د. منى عبد الباقي محمود

المفاتيح النصيّة للعناوين

باب لقراءة جديدة في المُنجز الشعري
للدكتور عبد الله باشراحيل

منازل للنشر والتوزيع

الشاعرة: د . منى عبد الباقي محمود

اسم الكتاب: المفاتيح النصية للعناوين
"باب لقراءة جديدة
في المنجز الشعري للدكتور عبد الله باشراحيل"

المدير العام
د . أشرف الشحات

الغلاف والإخراج الفني / فريق دار منازل

الناشر دار منازل
لتطوير حقوق الملكية الفكرية والنشر والتوزيع
شارع النيابة الإدارية _ دمياط الجديدة_ دمياط
التواصل /٠١٠١٤٣٠٨٤٨٤ أرضي/ ٠٥٧٢٤٠٠٧١٧
DarManazel@gmail.com

رقم الإيداع ٨١٥٥ الطبعة الأولى ٢٠٢٥
الترقيم الدولي: 978_977_9689_34_0

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز استخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو استنساخها أو نقلها كليا أو جزئيا في أي شكل وبأي وسيلة دون الحصول على إذن خطي من المؤلف، سواء أكان ذلك بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم التخزين.

دراسة نقدية بقلم:

د. منى عبد الباقى محمود

♦----------♦

المفاتيح النصية للعناوين

باب
لقراءة جديدة فى المنجز الشعرى
للدكتور عبد الله باشراحيل

♦

منازل للنشر والتوزيع

الإهداء

إلي أبي، وأستاذي، ومعلمي، وقدوتي، ومثلي الأعلى، إلى من وجّه خُطايَ لطريقِ النقدِ الأدبيِ، واستطاعَ ببصيرتِه النافذةِ أنْ يرى في هذه اليدِ الواهنةِ القدرةَ على أنْ تخطّ؛ فيكونَ لها سطرُها الأدبيُ والنقديُ المائزُ، فشجّع ووجّهَ، فتكونتْ رؤى، واتسعتْ آفاقٌ، وكُوِّنَتْ خبراتٌ، ما كانتْ إلَّا بالتتلمذِ لهذه القامةِ العاليةِ

إلى أستاذ الأساتذة

حسن عبد العال عباس

مقدمة

الشعر هو فنُ العربيةِ الأولُ، وسجلُها الذي رصدَ حركةَ تطورِها ومراحلَ نضجِها، وكانَ الجنسَ الأدبيَ الأسبقَ و الأقدرَ على القيامِ بذلكَ الدورِ، فالأجناسُ الأخرى كالرواية والقصة القصيرة ظهرتْ متأخرةً نسبيًا وُنقِلَتْ في مُعظمِها عن الغربِ. ولقد تعددتْ الرُؤى النقديةُ التي حاولتْ قراءةَ النصوصِ الشعريةِ قديمِها وحديثِها، وحاولَ النقادُ -على اختلافِ مذاهبِهم الشعريةِ ومرجعياتِهم الثقافيةِ- إعادةَ قراءةِ النصوصِ الشعريةِ برؤى معاصرةٍ، ولما كانتْ التجربةُ لابدَ لها من معايشةٍ، ولما كانَ تميزُ الأديبِ يأتي من قدرتِه على نقلِ هذه التجربةِ وتقديمِها لغيرِه مُفَصَّلَةً واضحةً فإنَّ الباحثَ في تجربةِ الإبداع وبخاصةٍ الشعريِ منهُ يحاولُ جاهدًا الوصولَ لمغزى النصِ ولمِّ شتاتِه وخلقِ كيانٍ واضحِ المعالمِ لهُ يعملُ على سهولةِ إيصالِ رسالتِه للقارئِ وإدراكِها. إنَّ انصهارَ الناقدِ في ذاتِ التجربةِ التي عايشَها الأديبُ تمكنُه إلى حدٍ بعيدٍ من تكوينِ ملامحِ ذلكَ النصِ وانفعالِه مع ذلكَ النصِ يتهذبُ في كلِ قراءةٍ أكثرَ فأكثرَ، ويتعمقُ الإحساسُ مع كلِ تجربةٍ نقديةٍ جديدةٍ ،وفي خِضَمِّ هذا الزخمِ يشحذُ الناقدُ أدواتِه ويشحنُ فعاليتَها ليستطيعُ تجاوزَ الفجوةِ بينَ ما هو أدبيٌ وما هو نقديٌ إذ " لابدَ لبديهياتِ النقدِ وفرضياتِه أن تتبعَ الفنَ الذي يتناولُه. وأولُ ما على الناقدِ الأدبي أنْ يفعلَه هو أنْ يقرأَ الأدبَ وأنْ يقومَ باستعراضٍ استقرائيٍ لحقلِه، وأنْ يجعلَ مبادئَه النقديةَ تتشكلُ من معرفتِه بذاتِ الحقلِ، فالمبادئُ النقديةُ لا يمكنُ أخذُها جاهزةً من اللاهوتِ أو الفلسفةِ أو السياسةِ أو أي مزاوجةِ بينَ هذه الحقولِ." [1] هذا ما سأحاول جاهدة أن أقوم به في قراءة شاعر مبدع ومتميز له أسلوبه الفريد الذي جعل منه "السهل الممتنع" الذي لم يجاره فيه غيره، والذي قد يعجز القارئ العادي عن تجميع رؤيا كاملة عنه.

---

[1] تشريح النقد – نورثروب فراي – ترجمة محمد عصفور – عمان الأردن منشورات الجامعة الأردنية ١٩٩١ ص ١٧.

توطئة

وقد أضحت العتبات النصية ظاهرة، حري بالدرس النقدي أن يتناولها بالتحليل، خاصة أن تلك النصوص (العتبات) قد قطعت شوطًا كبيرًا في مجال تطورها. إن العتبات النصية ككيان ليست بالظاهرة الجديدة على الأدب عربيًا كان أم غربيًا، فقد ارتبط وجودها بوجود الشعر نفسه، وتطور في عصر الكتابة، وأخذ نصيبًا وافيًا من التفنن في عصر التقنية والتطور التكنولوجي.

غير أن النقد ظل ينظر إلى هذه الظاهرة باستسهال بالغ، متعاملًا معها بوصفها جوانب شكلية، سواء تعلق الأمر بنقدنا العربي أو بالنقد الغربي الذي كان سباقًا إلى التنبيه على أهميتها وجدوى دراستها.

ثم كان مجيء الناقد الفرنسي (جيرار جينيت)، الانطلاقة الأولى لمحاولة تقعيد دراسة (العتبات النصية) في ضوء ما يتعالق معه من متون، فاتحًا بذلك الأفق النقدي إلى ميدان (شعرية الشكل)، في ذهابه إلى أن شعرية النص تنبع من علاقته بما يحيط به من نصوص موازية بعيدة عنه زمانًا ومكانًا. أو من نصوص محيطة قريبة، بحيث يضمها كتاب واحد (غلاف، عنوان، رسومات داخلية، مقدمة، إهداء، هوامش.... إلخ) وهي علاقات أكبر من أن يقال عنها إنها مجرد إمكان تناصي كما سيتضح. وهكذا بدأ النقد منذ (جينيت) ينظر إلى هذه العتبات بوصفها نظامًا سيميائيًا دالًا؛ إذ لم يعد الكتاب وحده هو الحامل الوحيد للدلالة، بل أصبح ينظر إليه بوصفه نظامًا نسيجيًا متناغمًا، تتآزر جميع مكوناته وملامحه الشكلية في تأسيس شعريته، بما يلغي عن العتبة مفهوم الحلية النصية أو الزائدة التزيينية ويجعل منها معلمًا بارزًا من المعالم.

كما يقصد عادة بالعتبات النصية، ما تحتويه النصوص الأدبية من جوانب متاخمة لنصوصها الأصلية، وللعتبات النصية فروع عديدة منها "عتبة العنوان الرئيسي، عتبة العنوان الفرعي، الإهداء، التقديم، المقدمة، الملحقات، الهوامش، كلمات الغلاف، الاقتباسات، العلامات،

والتشكيل البصري للقصائد أحيانًا، وقد التفتت الحقول النقدية لأهمية دور العتبات النقدية في استكناه خفايا النصوص الأدبية بتعدد قوالبها، ونال الشعر عناية خاصة، فهو فن العربية الأول وديوانها الذي حفظ تاريخها، وقد تنبه النقاد إلى أن العتبات النصية هي المفاتيح التي تفتح آفاق النصوص للمتلقي؛ حيث الانديا‌ح معها وسبر أغوارها وفتح شتى مغاليقها، لقد ظهر مصطلح العتبات النصية في القرن العشرين وبالتحديد في العام ١٩٨٧ على يد الناقد الفرنسي (جيرار جينت) في كتابه المهم (عتبات)" (١)

ثم توالى ظهور المصطلح في الدراسات النقدية التطبيقية ؛ فتنبه النقد العربي الحديث إلى أهمية وخطورة العنوان ودلالته في سبر أغوار النصوص، وظهرت العديد من المؤلفات النقدية التي تناولت العتبات النصية، منها على سبيل المثال لا الحصر: "العتبات النصية في روايات واسيني الأعرج – د/إلهام عبد الوهاب"، "العتبات النصية في شعر سميح القاسم العنوان نموذجًا د/ حسين على الدخيلي"، "عتبات النص الشعري الحديث في شعرية المعاصرة ومعاصرة الشعر د/ صادق القاضي"، ثريا النص دراسات نقدية في العتبات النصية – د/ ضياء غني العبودي".

لكن المثير للانتباه أن نجد في تراثنا العربي اهتمامًا موسعًا بدلالات العنوان ففي كتاب "العقد الفريد" (لابن عبد ربه الأندلسي ٣٢٨ هـ) يورد إشارة تاريخية إلى أولية تدوين العنوان على المادة المدونة فيقول:

"وأما ختم الكتاب وعنوانه فإن الكتب لم تزل مشهورة، غير معنونة، ولا مختومة، حتى كتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها ختمت الكتب وعُنوِنت، وكان يؤتى بالكتاب فيقال: من عني به؟ فسمي عنوانًا" (٢)

---

(١) عتبات جرار جينيت من النص إلى المناص – عبد الحق بلعابد – تقديم سعيد يقطين -٢٠٠٨ منشورات الاختلاف الجزائر.

(٢) العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي – تحقيق أحمد أمين وصحبه طبعة ١٩٦٢ ص ١٥٨.

ويعلق "محمد عويس" على نص ابن عبد ربه فيقول:

"إن هذا النص يشير إلى أن المدونات قبل صحيفة المتلمس لم تكن تحمل عنوانات مباشرة أو حتى شفهية، وربما كانت بعض العنوانات مدونة، لكن العناية بالعنوان لم تكن أكثر من وضع المدونات في الإطار التصنيفي لمضمونها" (١)

وللولوج إلى عالم شاعرنا "عبد الله محمد صالح باشراحيل" لابد من الوقوف أمام العتبات النصية في بعض إنتاجه، فشاعرنا غزير الإنتاج، متعددة قوالبه التي يصب فيها مشاعره وأحاسيسه ما بين القصيدة، والخاطرة، والحكمة، والتوقيعات، والنثر، وسأكتفي برصد بعض دلالات العناوين وتشكيلات البناء والأغلفة لنفتح بهذه الدراسة المقتضبة الباب أمام الدارسين ومحبي الأدب لإضاءة هذا الجانب الحيوي والمهم.

(١) في الأدب العربي النشأة والتطور – محمد عويس– مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٨ ص ٧٤.

جماليات العتبات النصية

في ديوان – النبع الظامئ

توقفت كثيرًا أمام استخدام المتناقضات(١) لدى د/ عبد الله باشراحيل في ازدواج يبعث المتلقي على الترقب، وإعمال الفكر، وتتبع المعاني.. فماذا يقصد شاعرنا من عنوانه؟ وكيف للنبع أن يكون "ظامئًا"؟ كيف له أن يظمأ وهو مصدر الري؟. فهل قصد الشاعر معنى أنه يمنح الحب والعطاء للجميع دون توقف وبغير تفكير، في حين ضن الجميع عليه بما يروي عطشه ويُذهب ظمأه؟.

إنه السؤال الذي سيجيب عنه تتبعنا للديوان الذي اختار الشاعر أن يهديه إلى والدته، بما في هذا من دلالة؛ فالأم هي رمز العطاء ومنبعه وقد وصف الشاعر أشعاره على أنها نبض وبوح، هذا البوح الذي يجيء بعد صمت ليترجم نبض القلب وكوامن الشعور.

و تطالعنا أولى القصائد بعنوان "موطن الهدى" وهو عنوان يدلنا على حب الشاعر الشديد لوطنه واعتزازه به، فهو مهبط الوحي والنبوة ومنار الشموخ ومبعث الاعتداد، شهدت جنباته نزول آيات الذكر الحكيم، وتشرفت بتجلي الملائكة الغر والروح الأمين، ولمكة مكانتها الأثيرة في شعر الشاعر يردد اسمها بصفة دائمة عبر شعره، وفي معظم دواوينه لا نعدم وجود قصائد يتحدث فيها عن مكة ومكانتها ومنزلتها في نفسه وفي نفوس العرب والمسلمين جميعًا، حيث عزة الحق ومولد العزة. لكن الشاعر يعود فيعيب ما غرسه الحقد في النفوس التي أخذت تتصارع على حطام الدنيا متناسية ما غرسه الأجداد من الأمجاد، ففي نهاية القصيدة دعوة للبشر أن يفيقوا وأن يعيدوا للحياة رونقها الذي كان.

---

(١) استخدمت استراتيجية القراءة بالثنائيات المتناقضة والمتعارضة وهي استراتيجية تنتمي صراحة إلى الهرمنيوطيقا وترقى في أحيان كثيرة إلى شمولية نظرية التلقي.

وإن كانت القصيدة قد بدأت بقول الشاعر:

مَوْطِنَ الهَدْيِ يَا مَلَاذُ الرَّشَادِ وَمَنَارَ الشُّمُوخِ وَالإِعْتِـدَادِ
مَهْبِطَ الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْحَقِّ وَمَهْدَ الدُّعَاةِ وَالـرُّوَادِ

فإنها تنتهي بقوله:

فَمَتَى يَا تُرَى نَفِيقُ وَنَصْحُو نَتَنَادَى بِنَخْوَةِ الْأَجْدَادِ؟!
ونُعِيدُ الْحَيَاةَ نَصْرًا وَفَخْرًا وَنُلَاقِي الْأَجْـنَادَ بِالْأَجْنَادِ؟!

والمتصفح لديوان "النبع الظامئ" سيجده يرسخ بما لا يدع مجالًا للشك للوحدة العربية. ولما يمكن أن نطلق عليه "قصيدة المشروع القومي" فالشاعر مهموم بصورة كبيرة بقضايا وطنه، الذي يمتد في وعيه من الخليج إلى المحيط. يطالعنا هذا في عناوين كثيرة مثل:

"أحبك يا بلادي – بين جدة ومكة – الخليج الأخضر – رصاصة من فلسطين – نكبة اليمن – لبنان – ويل العروبة – صبرا وشاتيلا – الأرز الذبيح... إلخ لذا فقد آثر الشاعر أن يصدر هذه المجموعة من القصائد بعنوان "وطنيات وقضايا عامة" وأن يكتب حكمة يعجز عن الوصول إليها العديد من البشر، الذين يتصارعون على حطام الدنيا وهم في خضم هذا الصراع يقتلون بمدية البغض ملايين الناس، بينما يصر القليل من الناس – وشاعرنا منهم – على مجابهة هؤلاء بسلاح أقوى وأمضى وأعظم هو سلاح الحب، ذلك الحب القادر على إحياء نفوس أوشكت على الموت. يقول دكتور باشراحيل(١)

"قد يستطيع الإنسان أن يقتل بمدية البغض ملايين الناس، وقد يستطيع أن يحي بالحب نفوسًا أشرفت على الموت "ونتوقف عند إصرار الشاعر على اتباع النظم العمودي في معظم شعره وباستعراض عدة نماذج منها في مثل قوله:

---

(١) الدكتور عبد الله باشراحيل – الأعمال الكاملة – المجلد الأول – دار منازل للنشر والتوزيع ص ٩٧.

وحدة الشمل شعُوبُ الْخَلِيج مَطْلَبُ الدِّينِ بِالْإِخاء الوشيج
تـتـلاقى الآمـــال بَيْنَ رُبـانًا فَاسْلُكُوا الدَّرْبَ مُفْعَمًّا بِالْأريج[1]

أو حين يقول:

فِلسْطِينِي.. فِلسْطِينِي وَرَبُّ الْبَيْتِ يَحْمِينِي
قَلَبتُم يا طُغَاةَ الأَرْضِ أَشْـوَاكًـا رَيَـاحِـينِي
وَبَـيْنَ جَوانِـحِي قَلْـبٌ يُظَـلِّـلُـنِي وَيَرْوِيـنِي
أَنَا الْمَطْعُونُ فِي أَرْضِي وَفِي قُدْسِي وَزَيْتُونِي(٢)

وإحكام نظم قصائد باشراحيل يؤكد إيمانه باستعادة الماضي من شعرنا العربي الأصيل في أوج صوره وكمال تألقه، هذه الاستعادة التي تعتبر الوجه الآخر للتطلع للمستقبل شرط ألا تعني الاستعادة التقليد الساذج أو الاتباع الجامد، بل العزم على اكتشاف الذات والتعبير عن الرؤى الخاصة، والرغبة الجامحة في اكتشاف أسرار الوجود، والبحث الدؤوب عن معايير الحق، والجمال، والتحرر من قرارة هوة العقم، والاستعانة بالميراث الشعري تواصلًا مع قممه الإبداعية. فاتحًا آفاق الاجتهاد لاستعادة أمجاد الماضي الزاهر ومنافسة الأجداد؛ فتعود علاقة الشعر بالحياة عفية من جديد، ويستعيد الشعر مكانته التي أضاعها رواد حداثة زائفة يلهثون وراء التقليد الأعمى، فَنَحَوْا بالقصيدة العربية إلى الإبهام والإلغاز والعجز عن تصوير الذات العربية ومعالجة قضايا العروبة والإسلام.

فهل تكون إجابة سؤالنا السابق؛ كيف يكون النبع ظامئًا؟ أن النبع هو حضارتنا التي اغترب عنها أهلها وأضاعوها، أو هو ميراث أجدادنا الذي سقى الغرب علمًا وأدبًا وفنونًا وظل وحيدًا ظامئًا لأبنائه الذين يعيدون له رونق وطلاوة وحلاوة كلمات الماضي التي سلبت ألباب العالم فيما مضى.... ؟!

---

[1] الدكتور عبدالله باشراحيل _ الأعمال الكاملة المجلد الأول ص٩٧

[2] نفسه.

العتبات النصية للعناوين

في ديوان الهوى قدري

ديوان يأخذ بأيدي القارئ إلى الجانب الرومانسي في شعر عبد الله باشراحيل، وهو جانب أثير محبب. يمتزج فيه الشجن بدفء العاطفة، شأنه شأن الشعر الرومانسي، ويذيل الشاعر عنوان الديوان بعبارة "قصائد للحب والحياة" والجمع بين المفردتين جمعًا واعيًا يدلنا على ما للمشاعر الصادقة الممتلئة بالحب والوفاء ودفء العاطفة من مكانة لدى باشراحيل فهي باختصار حياة، وأي حياة تخلو من الحب لديه ليست بحياة، يهدي الشاعر الديوان هذه المرة إلى والده "رحمه الله" مقدمًا له بعض نبضات الفؤاد، ويظهر الإهداء حبًا جليًا يكتسي بالاحترام الشديد والهيبة والإجلال والود.

يتلو هذا "مفتتح غير معنون"، حيث اكتفى الشاعر بوضع "نقاط خمس" ما بين قوسين معقوفين وكأنه يترك للقارئ حرية اختيار العنوان، أو كأن الأبيات مفتاح سر الديوان كما سيتضح بعد قليل، والمقطوعة تمتلئ بحكمة لا يهتدي إليها المرء إلا بالكثير من التجارب وشاعرنا مغرم بشعر الحكمة مولع بتزيين دواوينه بها بين الحين والحين، يقول دكتور باشراحيل: (١)

من قابَلَ الدُّنْيَا بِبَلِّ دُمُوعِ ... عَاشَ الْحَيَـــاةَ بِذِلّـــةٍ وَخُضُوعِ
آلَيْتُ أَلَّا أَسْتَكِينَ لِشِدَّةٍ ... وَالْعَزْمُ مِلْءُ جَوَانِحِي وَضُلُوعِي
حَتَّى أَحَقِّقَ غَايَةً أَصْبُو لَهَا ... وَأَضِيءَ فِي كُلِّ الدُّرُوبِ شُمُوعِي
وأزيل أَشْوَاكَ الْحَيَاةِ بِهِمَّتِي ... وَأَمُدَّ فِي بَحْرِ الْهَـــنَاءِ قُـــلُوعِي
وَأَرَى بِعَيْنَيَّ الْأَمَانِي رَوْضَةً ... دَفَاقَةً حَوْلِي، وَفَوْقَ رُبُوعِي

(١) عبد الله باشراحيل – الأعمال الكاملة – المجلد الأول – ص ٤٣.

إبحار بلا سفر

عنوان جديد مراوغ آثر دكتور باشراحيل وضعه لقصيدته هو: "إبحار بلا سفر" فهل يقصد شاعرنا التأمل الفكري الذي يبحر المرء فيه مع خيالاته، وبين أروقة الذاكرة فيعني بالعنوان ما عناه "صلاح عبد الصبو" حين سمى إحدى دواوينه إبحار في الذاكرة، ذلك الإبحار الذي يثير الشجون، ويستدعي السهاد والترقب، حيث يعيش المرء مع أفكاره يحاورها وتحاوره، يراوغها وتراوغه، تقسو عليه فتغرق عينيه بالدموع و يهرب منها إليها.. يحاور الجمادات ويستنطق الطير والنجوم والقمر والألحان ويختتم الحديث بتنهيدة حائرة يقول:(١)

أجد إِلَيْكِ فِي عَتَبٍ لِكَي تَأْتِي عَلَى ضَجْرِ!
أَنَا الشَّاكِي أَنَا الْبَاكِي مِنَ الْآهَاتِ وَالسَّهَرِ
وَمَا بِي مِنْ سُهَادِ اللَّيْل إِبْحَارٌ بِلَا سَفَرِ

إلى أن يقول:

أَظَلُّ أَظَلُّ أَرْقُبُهَا وَيَحمِلُنِي لَهَا قَدَرِي
وَشِعْرِي مُبْحِرٌ فِي الشَّـــوْ قِ.. مِنَ فِكْرٍ إلى فِكَر

غير أن القارئ يستشف من رومانسيات باشراحيل وجود قصة حب تؤرقه، كان مصيرها الفراق المؤلم والهجر القاسي، الذي ترك وراءه شوقًا معربدًا، يطل بوجهه في معظم القصائد، شوقًا لا يمل من الأمل في عودة الحب الضائع. وعناوين القصائد، تدلنا على تأرجح مشاعر الشاعر بين رغبة عارمة في عودة هذا الحب، وبين يأس وقنوط وإعراض عنه فنقرأ عناوين مثل "تراك تعود – عتاب – ما قد راح.. راح – ذكريات – نسيان – الهوى قدري"

إن الحب لدى باشراحيل هو الوجه الآخر من إرادة الحياة يجمع بينهما الأنا التي تسيطر على الخطاب وتجعل من وجودها مركزًا للحضور. فإرادة الحياة هي الجانب الآخر من العاطفة

(١) عبد الله باشراحيل – الأعمال الكاملة – المجلد الأول – ص ٤٣.

المتقدة المسيطرة على قصائد الحب، وحرص الشاعر على وجوده.

فالصور، وتوازي المقاطع، وتقابل الدلالات، وأساليب الإنشاء، واستخدامه لها ما بين نداء، وتعجب، واستفهام، كلها تقنيات تبرهن صدق هذا الفرض؛ فصورة الحبيبة التي تضن باللقاء وتؤثر الإعراض هي وجه آخر من وجوه الحياة التي لا تنقاد للمرء طواعية ولا تستجيب له بغير ترويض.

وقد مزج د/ باشراحيل بعبقرية متفردة جمال حضور الحبيبة بجمال الحياة، ووعي الشاعر بالجسد لا يقتصر على الجنس الذي يجمع بين رجل وامرأة، إنه يبدأ بإرهاف الحواس بما يجعل العين ترى الضياء في الظلال، ويجعل الكف تحس الدفء والصقيع في أكف صحبة الترحال. ويمضي الوعي بالجسد ليصل إلى كينونة الأنا واكتمال الوجود حتى يصل بالشاعر إلى إلى أحوال الوجد الخالص الذي يصل فيه المرء إلى نشوة المعرفة، فهو حين يكتب عن "عين الحبيبة" أو خد الحبيبة، فهو يكتب عن الحب، وهو حين يكتب عن الحب يكتب عن الحياة، ويعيد للإنسان إنسانيته وبراءته وعرامة إحساسه بالوجود، واسمع إليه حين يقول:

يا حبيبًا لم يزل غض الصبا وأليفًا ناعمًا بين البرود
كيف يسري الوجد في بحر الهوى حينما يذكيهِ إشراق الخدود
وخيال الغيد في فتنتهِ رائع المبسم مياس القدود

ليظل الحب عند باشراحيل وترًا مشدودًا واصلًا وفاصلًا بين نقيضين؛ أولهما الحب الجسدي حبلًا من نغم. وثانيهما الحب الروحي الخالص، الذي يسمو بالمعشوقة ويضعها في مصاف الملائكة، رغم ظلمها وهجرها يرغبها ويريدها، وتبقى إرادته لها إرادة للحياة، هذه الإرادة التي برهن عليها المفتتح الذي تركه بغير عنوان في بداية الديوان

يقول:

لمن لحظها يبدي الهوى ويطيف فيمتد طرف للجمال أليفُ
إذا ما مشت هب النسيم معطرًا وراح بنفخ الرائحات يطوفُ

دلالات العناوين
في ديوان الخوف

يأخذنا العنوان فورًا إلى ما أطلق عليه الأستاذ الدكتور "جابر عصفور" القلق الوجودي المرتبط بشكل كبير بالوعي المديني(١) هذا الوعي المأزوم بقضايا الإنسان المعاصر والمتسم بالحزن، الذي يحول الوجود كله إلى أسئلة مؤرقة. وباشراحيل شاعر يؤمن إيمانًا عميقًا بدور الأديب في الحياة الاجتماعية، وبرسالة الشعر ودوره في سبر أغوار الوجود. هذه الأسئلة الأبدية التي تلتهم كل بريق للسعادة وتجهض كل إحساس بالنعيم. إن وحشة الإنسان المعاصر في عصر حاصرته فيه المادة والصراعات والحروب، والأوبئة والمجاعات، وهددته الأسلحة النووية والكيميائية، حدا بهذه النفس الشاعرة الممتلئة بالرقة ورهافة الإحساس، إلى عبور شعاب الخوف الذي تجسد في أسماء العديد من القصائد مثل "الضمير المخنوق، حجر، غابات أسى، القلم الشاكي الستار – ابن الليل، المخبوء، يا ويلتي – الغدر... إلخ

والحقيقة أن الكثير من هذه الأسماء يستدعي الخوف ويثير القلق وحيرة النفس، فماذا يحدث للإنسان في هذا الزمان إذا "اختنق الضمير" أو إن هو سار في "غابات الأسى" ولم يستطيع الفرار، فلا يمتلك إلا "شكوى القلم" فهل يستطيع بعدها أن يزيل "الستار" عن المجهول، الذي يحدق به من كل اتجاه، أم سيبقى الإنسان في هذا العصر منبوذا، كـ "ابن الليل" الذي يولد سفاحًا فلا يجد غير "الليل الأسود" ولا يعرف إلا الظلمة والظلم.

يسير في غابات الحزن لا أم تهب الدفء، ولا كف أب تكفل الرعاية في زمن الجوع والبطش والقهر والذل والتعاسة، هذا الزمن الذي يستدعي صرخة الشاعر "يا ويلتي"، ويبقى فيه

---

(١) انظر رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر – د/ جابر عصفور – المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ٢٠٠٨ ص ١٢١ وما بعدها وانظر تحولات الشعرية العربية – جابر عصفور – الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٧ ص ١٩٩ وما بعدها.

الخوف الدائم من "الغدر" الذي يحاصر كل جنبات الحياة

هكذا يمكن أن يربط المتلقي الواعي أسماء عناوين القصائد في ديوان الخوف هذه الأسماء التي تبرهن على أن د/ باشراحيل، لديه استراتيجية خاصة يختار بها عناوين قصائده التي يضمنها في الديوان، فهو وإن كسر خط الربط في بعض القصائد أحيانًا فإنه يبقى القارئ تحت مظلة هيكل عام يكوّن مضمونًا متكاملًا للديوان.

يقول باشراحيل في قصيدة حجر: (١)

سَمِّنِي مَا شِئْتَ حَتَّى لَوْ حَجَرْ لَفَنِي الصَّمْتُ وَأَعْيَانِي الضَّجَرْ
هَدَأَ الْإِبْحَارُ فِي وَقْتِي وَقَدْ ضَاعَ مِجْدَافِي وَضَيْعْتُ الْأَثَرُ
لَيْلَتِي الْأَنْوَاءُ لَا أُنْكِرُهَا عَاصِفَاتٌ وَعَلَى وَجْهِي كَدَرُ

وفي قصيدة غابات الأسى يقول: (٢)

كُلُّ مَا فِي الدَّهْرِ غَابَاتُ أَسَى فَالْتَقِطْ مِثْلِيَ حَبَّاتِ الْأَنِينُ
وَاسْتَعِذْ ذِكْرَاكَ مِمَّا قَدْ مَضَى وَاجْمَعِ الْآهاتِ مِنْ بَوْحِ السِّنِينِ
كَمْ رَأَيْنَا لِلْأَمَانِي مَنْظَرًا يَجْعَلُ النَّاظِرَ مِنْهَا يَسْتَبِينَ

وقبل أن نغادر هذا الديوان توقفت عند عنوان قصيدة "ميراث".. عن أي ميراث يتحدث الشاعر، يخيل إلى أن شاعرنا يعني بالميراث "الشكل" الذي اتخذته القصيدة فهي قصيدة شبه حوارية، الشطر الأول من البيت يحوي كلمتين يقصد بهما في الغالب سؤالًا.. أو مقولة، يرد عليه أو يفسره الشطر الثاني، وهذه الطريقة في الكتابة طريقة معروفة استخدمها العرب وبخاصة في شبه الجزيرة العربية، اعتمدت على سرعة البديهة وطواعية القوافي وقدرة الشاعر

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – دار منازل للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ص ٢٠٤
(٢) نفسه.

على التشكيل الموسيقى، هذا ما فعله باشراحيل أيضًا في قصيدة تجربة التي ضمنها ديوانه الأخير "قرابين الوداع" حيث استعمل شكلًا جديدًا من أشكال توزيع القوافي، وهو باختياره لعنوان "تجربة" أو ميراث يوجه القارئ إلى أنه لا يعتمد الشكل الخليلي المعروف وإن لم يتركه إلا في القليل النادر.

ولقد سوغ له هذا وشجعه عليه، أن شعرنا العربي قد عرف أشكالًا للقصيدة في العصر المملوكي لم تكن معروفة من قبل مثل "الموشحات – الكان الكان – الدوبيت.. وغيرها.

ومع هذا نجد شاعرنا قد ألزم نفسه ما لا يلزم كما فعل أبو العلاء المعري في اللزوميات؛ حيث جاءت قوافي الأشطر كلها موحدة بحرف روي واحد هو الباء مما يدلنا على قدرة إبداعية خارقة لا يستطيعها إلا شاعرُ مجيد.

وفي حرص منا على تقريب التجربتين للمتلقي سأورد القصيدتين وسأترك للقارئ قدرته على مشاركة التلقي والاتفاق أو الاختلاف معي في سبب التسمية.

قصيدة الميراث: (١)

تِلْكَ الثَّعَـــالِبْ لَمْ تُخْطِي الْعُنْقُودَ وَالْمَغْلُوبُ غَالِبُ
الْفَــأْلُ غَــارِبْ وَاللَّيْلُ وَالنَّدْمَانُ مَسْـلُوبٌ وَسَـالِب

مَــاذَا تُرَاقِبْ؟ هانَ الْهَوَانُ عَلَى الْأَنَــامِ فَلَا تُعَـاتِبْ
أَوَ ثَمَّ قَــارِبْ؟ لَكِنْمَا الْجُدْرَانُ مُطْلَقَةُ الْجَـوَانِـبْ
وَلِمَــنْ تُحَـارِبْ؟ مَا دَامَ يَسْرِي السَّمَّ مِنْ ذَنَبِ الْعَقَارِبُ

وفي قصيدة تجربة يقول: (٢)

---

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الأول ص ١٩٠.

(٢) نفسه المجلد الخامس ص ٥٣.

لَا تَتْبَعْنِي كَالظِّلِّ
أَمَلْ
اتْرُكْنِي عِنْدَ الْفُلِّ
أَظَلْ
أُلْبِسْكَ ثِيَابَ الْذِّلِّ
حُلَلْ
يَا أَنْتَ الْعَدْلُ الْفَضْلُ أَطِلْ
لِمَ فِيكَ أَمَانُ الْخِلِّ
أُخِلْ ؟
وَكَيْفَ أَضَعْتُ الْحَلَّ
فَضَلْ ؟

قناديل الريح- إرادة الحياة
الأيدولوجيات الفكرية في شعر
د/ عبد الله باشراحيل

جاء في المعجم أن "قناديل" جمع قنديل، وهو مصباح كالكوب في وسطه فتيلة، يملأ بالماء والزيت ويشعل، ومن معاني "قنديل" قندل فلان: أي عظم رأسه، وقندل فعل بمعنى مشى في استرسال، من هنا فإن المعنى الأقرب الذي أراده الشاعر هو المعنى الأول "مصباح" وكعادة باشراحيل فقد استعمل "الثنائيات المتضادة" ليثير الدهشة ويجعل القارئ يتساءل عن معنى جمعه للمفردتين "قناديل الريح" في جملة واحدة وما علاقة الريح بالقنديل، إن الرياح لا دور لها سوى إطفاء القنديل، مهما قويت ناره وعظمت مقاومته، فهل يقصد الشاعر أن هذه القناديل قد عقدت العزم على المقاومة وعلى تحدي الرياح بجبروتها، وسطوتها، وأي رياح يقصد شاعرنا، وأي قناديل؟ هل يقصد أن الرياح هي رياح حضارة الآخر الغربي الذي يتربص بقناديل الحضارة العربية والإسلامية ويسعى بكل ما أوتي من القوة لإطفاء قناديلها المنيرة؟ سيساعدنا تصفح الديوان، وقراءة عناوين القصائد على برهنة هذا القصد، لكن بعد أن نتوقف عند ملحوظة جلية في هذا الديوان وهي طول النفس الشعري إذا ما قورنت هذه القصائد بما سبقها في دواوين الشاعر السابقة.

وكاتب مقدمة الديوان د/ محمد بن مريس الحارثي(١) يذكر أن هذا الديوان قد صدر بعد ربع قرن من الزمان من إصدار الديوان الأول لدكتور باشراحيل، وهي فترة زمنية كفيلة لبناء

---

(١) أستاذ النقد الأدبي، قسم الدراسات العليا العربية بجامعة أم القرى.

الأعمال الكاملة – الدكتور عبد اله باشراحيل – المجلد الأول – دار منازل للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ٢٠٢٤ – ديوان قناديل الريح من ص ٢٤١: ٢٤٩

الخبرات، واتساع المعارف والتحول من الأفق العذري الرومانسي في ديوان "معذبتي" إلى الأفق الوجودي المتأمل، وتأسيس الوعي الوطني وإن كنا لا نعدم وجود إرهاصات له في الدواوين الأولى؛ لكننا نجدها في هذا الديوان أوضح، وأعمق، وأرسخ.

وشاعرنا هنا مشغول بأحداث وطنه يدفعه وهج الحماسة الوطنية، فيجعل أولى قصائد الديوان قصيدة بعنوان "الوطن" حيث تأخذه الغيرة على وطنه العربي الذي يمتد بطول الأمة العربية، فينبه الأذهان التي راحت في سبات عظيم إلى أنها تنحدر إلى عصر التيه، كما ينبه إلى خطر الصهاينة وكذب اليهود الذين لا عهد لهم، فلابد من الانتباه إلى شرعة الظلم التي سادت في مجتمع الغاب، وإلى أظفار العداوة التي نشبت نارها، والتي من المنتظر أن تأكل الأخضر واليابس، وكيف باتت تسقينا صنوف الشر وتترك فينا الجروح التي تثير إعجاب الأعداء، والقصيدة طويلة قاربت السبعين بيتًا يستنجد الشاعر في نهايتها بصلاح الدين؛ ليعيد أمجاد الأمة، وينصر الحق، ويرجع الحب والسلام لربوع بلاد المسلمين كما يضرع إلى الله العلي القدير العظيم ليعلي منائر الإسلام فهو سبحانه بالخير وهاب.

يقول باشراحيل في قصيدة الوطن: (١)

وَطَنِي أَيَا أَنْشُودَةَ الْعَصْرِ ... وَمُطَالِعَ الْأَنْوَارِ لِلْفَجْرِ

يَا كَوْكَبًا يَهْدِي عَوَالِمَنَا ... وَمَنَارَةٌ يَعْلُو بِهَا فَخْرِي

يَا عِيدَكَ الْأَحْلَى مِنَ الزُّهْر ... فِي رَوْضَةٍ أَنْسَامُهَا تُغْرِي

وَجَلَالَةُ الْبَيْتَيْنِ نُورُ هُدًى ... منْ رحْلَةِ التَّوْحِيدِ يَسْتَقْرِي

وَمُهَابَةٌ أَحْيَا نَفَائِسَهَا ... عَبْدُ الْعَزِيزِ الْقَرْمُ بِالنَّصْرِ

مُذْ كَانَتِ الْأَيَّامُ وَاجِمَةً ... يَسْتَبْدِلُ الْإِعْسَارَ بِالْيُسْرِ

---

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد اله باشراحيل – المجلد الأول – دار منازل للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ٢٠٢٤ - ديوان قناديل الريح من ص ٢٥٥

قلْبُ السَّمَاحَةِ فِي سَرِيرَتِهِ تَزْهُو عَلَى الْأَيَّامِ بِالْبِشْر
وَبنُوهُ أَوْرَادٌ بِدَوْحَتِنَا أَنْسَامُهُمْ تَسْرِي مِنَ الْعِطْر
قَدْ شَيَّدُوا التَّارِيخَ أَعْمِدَةً فَحُرُوفُهُ مِنْ رَائِعِ الطَّهْرِ
بلدِي وَمَمْلَكَتِى وَعَاشِقَتِى يَا وَجْهَ مِيلادِي وَيَا عُمْرِي

ويواصل شاعرنا حبه المتدفق للأوطان. حتى أنه ينفرد من بين شعراء عصرنا بكتابة "مئوية للحب" "حب الوطن" واسم القصيدة يبين للقارئ عدد أبياتها التي تصل إلى مئة بيت فهي قصيدة فريدة. لا في أعمال الشاعر فقط بل في شعرنا العربي الحديث بصفة عامة، فقد حوت القصيدة نبذة عن "تاريخ الدعوة الإسلامية" منذ مهبط الوحي ومرورًا بالغزوات الإسلامية ثم عهد الملك "عبد العزيز آل سعود" الذي شيد وأدخل للسعودية مظاهر المدنية وعرفت به آيات الازدهار.

وبعد ذكر أمجاد المملكة، لا ينسى الشاعر قضيته الأولى الأغلى التي شغلت حيزًا كبيرًا من منجزه الشعري، ألا وهي القضية الفلسطينية التي يصر الشاعر على ذكرها في أغلب دواوينه وفي معظم قصائده الوطنية يقول باشراحيل في المئوية: (١)

مَوْطِنِي يَا حَبَّةَ الرَّمْلِ الثَّمِينِ وَالنَّمِيرَ الْعَذْبَ مَوفُورَ المَعينِ
وَالنَّدَى الضَّاحِكَ فِي وَجْهِ الْأَمَانِي وَسَنَا الإِشْرَاقِ فِي كُلِّ العُيونِ
يَا بِلَادِي وَقَصِيدِي فِيكِ يَسْمُو صَادِقَ الْبَوْحِ على الصَّمْتِ الرَّهِينِ
.....
مَهْبِطُ الْوَحْيِ وَمِيثَاقُ الْغَيَارَى وَانْطِلَاقُ الرُّوحِ مِنْ عَصْرِ سَجِينِ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الأول - ص ٢٨٠: ٢٨٤

.....

جاءه جبريل بالقرآن وحيًا منزل يجلو غشاوات العيون

.....

ثم يقول في نهاية المئوية:

تشتكي القدس من الآلام دومًا مَنْ لَهَا إِلَّاكَ يَا نِعْمَ الضَّمِينِ
كَمْ تُدَارِي هَمَّهَا الْعَاتِي وَتَمْضِي وَتَرَاكَ الْبُرْءَ بِالْقَلْبِ الْحَنُونِ
شفها الْوَجْدُ وَبِالْأَرْذَالِ تَشْقَى تَنْفُثُ الْآهَاتِ فِي شَعْبٍ ظَعِينِ
نَكَصَ الْعَادِي عُهُودَ السِّلْمِ بَغْيًا وَارْتَضَى الْقَهْرَ عَلَى غَدْرٍ مُبِينٍ
بكَتِ الرِّيحُ عَلَى وَجْهِ الضَّحَايَا وَبَكَى النَّاسُ عَلَى الْعَدْلِ الطَّعِينِ
شرْعَةُ الْغَابِ وَتَرْوِيعُ الْأَيَامَى تَسْتَبِيحُ الْهَوْلَ لِلْحَقِّ الْغبِينِ
دمعَةُ الطِّفْلِ وَأَحْزَانُ الثَّكَالَى ونداء ضاع في جيم وسين
كَمْ تُرَى نَرْعَى عُهُودَ الذُّلِّ رَغْمًا كُمْ شَكَا الضَّيْمَ خَدِينٌ لِخَدِينِ

قصيدة: عصر التيه

عنوان آخر اتخذه باشراحيل لإحدى قصائد الديوان، ودال "التيه" يومئ بالضياع والاغتراب، والسير بلا هدى في فيافي الحياة، في طريق يمتد بامتداد الدهر "العصر" تحيطه الأطلال من كل جانب كأنها علامات لحيوات ذاهبة، وفي القصيدة أسئلة تصرخ بغضب الشاعر ورفضه للخنوع والخضوع للصهاينة وأتباعهم.

فانظر إليه حين يقول:(١)

كَيْفَ السَّلَامُ مَعَ الْبَاغِي وَمَا رَغِمَتْ مِنَّا النُّفُوسُ وَرَوْضُ الْمَوْتِ مِعْشَابُ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد اله باشراحيل – المجلد الأول - ص ٢٥٨

كَيْفَ السَّلَامُ وَدِينُ اللهِ حُجَّتُنَا كَمْ يَمْكُرُونَ وَمَكْرُ اللهِ غَلَّابُ
كَيْفَ السَّلَامُ نَبِيُّ اللهِ حَذَّرَنَا إِنَّ الْيَهُودَ بِنَبْذِ الْعَهْدِ قَدْ خَابُوا
فَشِرْعَةُ اللهِ عَدْلٌ فِي خَلَائِقِهِ وَشِرْعَةُ الظُّلْمِ يَرْوِي هَوْلَهَا الْغَابُ
أَحْلَامُهُمْ أَنْ يَسُودُوا بَيْنَ أُمَّتِنَا يَقُودُهُمْ فِي طَرِيقِ الْوَهْمِ عَرَّابُ

لتبقى القضية الفلسطينية شغل شاعرنا الأعظم على طول منجزه الشعري، وفي عنوان لافت لقصيدة أخرى هي قصيدة "الموت الأعزل" يعالج أيضًا هذه القضية، لكن من خلال نموذجها الأوضح "أطفال الحجارة" ويستوقف العنوان المتلقي في استفهام ودهشة فالموت سلاح يقهر كل سلاح

لكن شاعرنا أنسن الموت وجرده من جبروته وقوته، بل ووصفه بأنه "أعزل" فماذا قصد الشاعر.

إن هذا العنوان من أكثر العناوين التي ترجح كفة أن يكون مقصد شاعرنا من عنوانه "قناديل الريح"، هو خلق التحدي في نفس المتلقي العربي، وأن دال "القناديل" يدل على التحدي والمقاومة؛ لتبقى هذه القناديل صامدة في وجه كل عاصفة، كما ستبقى الحجارة في أيدي الأطفال العزل، تحمل الموت للعدو المغتصب اللعين، وتخلق في نفسه الخوف والهلع؛ لأنه جبان لا قضية له، ولا حق يتبعه. إن الحجارة في أيدي أطفال عزل هي "موت أعزل".

ويكرر الشاعر نداءاته المتوالية للعرب والمسلمين والضمير الإنساني، بعناوين لقصائد أخرى في الديوان منها "الانتفاضة – إياك والقدس – ها نحن نعلن موت العرب – كفى يا عرب – حبل العروبة... إلخ

السندباد

أتوقف أيضًا عند قصيدة السندباد وما تولده هذه العتبة النصية من تفاعل سياقات رمزية الرحلة، وطول الطريق والسفر والارتحال، لكن رحلة السندباد في قصيدة باشراحيل

ليست رحلة المعنى في مهمة الخيال وحده، إنما فضلًا عن ذلك هي رحلة الإنسان في هذا العصر في بحثه الدؤوب عن المعنى، في زمن اللا معنى، وارتحال السندباد يستمد بنيته المتضادة من "البحر" الذي هو فضاء رحلته، فالبحر رمز مزدوج، يجمع فرحة النسمة الأولى للحياة، وحشرجة النزاع الأخير للموت.

ورغم طول الرحلة والصبر الذي كان كالطود المنيع في وجه الأيام، فإن السندباد لا يكل من الرحيل، حتى وإن "عاد من ظمأ المدى، لا ماء في فمه ولا مأوى رفيع".

وحضور السندباد كرمز تراثي شعبي، ليس بجديد على الشعر العربي؛ فقد تأثر معظم الشعراء المعاصرين، بقصص "ألف ليلة وليلة" هذا التأثر الذي يدعو لدراسات عديدة من الباحثين؛ لذا فقد استخدم هذا الرمز العديد من الشعراء منهم على سبيل المثال لا الحصر "السياب" و "صلاح عبد الصبور" وغيرهم. وليس هذا مجالًا لسبب اختيار هؤلاء الشعراء لهذا الرمز، لكنني سأتوقف عند سبب اختيار باشراحيل لهذا الرمز دون غيره من الشخصيات في تراثنا العربي، لقد صورت الرحلات أخلاق السندباد بطريقة سامية، ففي الرحلة الخامسة تعاطف "السندباد" مع "شيخ البحر" وأعانه بالسير، ولأمانته وصدقه كان مقربًا من الكثير من الحكام ففي "الرحلة الأولى" كان قريبًا من "الملك المهرجان" وفي "الرحلة الرابعة" كان قريبًا من حاكم "جزيرة البهار" ولقد اشتهر "السندباد" بالفطنة والذكاء، لهذه الأسباب وغيرها وقع اختيار "باشراحيل" على هذا الرمز دون غيره من الرموز التراثية فباشراحيل يستحضر شخصيات تتلاقى مع شخصيته هو ويجد فيها نفسه، وتجمعه وإياها ذات الظروف والخصائص والطباع النفسية، حيث العطاء بغير حد ودون انتظار المقابل، وحيث النفس التي تفجع بالنكران والجحود من أقرب الناس.

ففي القصيدة لحظة من لحظات اليأس الذي يصيب النفس البشرية ويقهرها أحيانًا؛ لذا نجد هذه القصيدة تأتي على عكس التيار السائد في هذا الديوان.

إذ يقول د/ عبد الله باشراحيل فيها: (١)

وَصَبَرْتُ لِلْأَيَّامِ كَالطَّوْدِ الْمَنِيعْ ... لَمْ أَسْتَخِرْ وَالْحَقُّ فِي شَفَتِي صَرِيعْ
نَظَرُوا حُرُوفَ الْوُدِّ فِي وَجْهِي أَسًى ... كَتَبُوا عَلَى الْأَحْزَانِ مِنْ دَمْعِ الشُّمُوعْ
يَا سَائِلًا عَنِّي وَعَنْ شِعْرِي الْبَدِيعْ ... طَلَّقْتُ أَوْرَاقِي وَأَحْلَامَ الرَّبِيعْ
وَنَثَرْتُ فِي عَيْنِ الزَّمَانِ وَدَاعَتِي ... وَاخْتَرْتُ وَجْهَ الظِّلِّ فِي زَمَنِي الْوَضِيعْ
السِّنْدِبَادُ يَعُودُ مِنْ ظَمَأِ المَدى ... لَا مَاءَ فِي فَمِهِ وَلَا مَأْوًى رَفِيعْ
حَجَبُوا ضِيَاءَ الشَّمْسِ عَنْهُ فَمَا يُرَى ... غَيْرَ الْتِفَاتِ النَّوْءِ وَالْقَدَرِ الْمُرِيعْ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ قَدْ يَحْلُو الرُّجُوعْ ... لَكِنَّنِي دَامٍ وَآمَالِي تَضِيعْ
حَاوَرْتُ أَيَّامِي وَأَحْسَنْتُ الصَّنِيعْ ... وَحَصَدْتُ نُكْرَانَ الزَّمَانِ الْمُسْتَطِيعْ
الْفِكْرُ وَالتَّرْحَالُ غَايَاتُ الْمُنَى ... وَسَنَابِلٌ فِي الْحَقْلِ يَأْكُلُهَا الْقَطِيعْ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لِلْأَدَبِ الرَّفِيعْ ... دَعْنِي أُذِيبُ الشَّمْسَ فِي عَيْنِ الْخُنُوعْ
أَدْرِي بِأَنَّ الزَّيْفَ فِي حَدَقِ الْمَدَى ... وَأَظَلُّ أَسْتَعْمِي وَأَسْتَرْضِي الْقُنُوعْ
هَذِي حَيَاةٌ كُلُّ مَا فِيهَا بَرِيقٌ ... ذَا زَمَانٌ كُلُّ مَنْ فِينَا يَبِيعْ
يَا سَائِلًا عَنِّي وَعَنْ شِعْرِي الْبَدِيعْ ... طَلَّقْتُ أَوْرَاقِي وَأَحْلَامَ الرَّبِيعْ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد اله باشراحيل – المجلد الأول - ص ٢٥٨

سيوف الصحراء
استحضار عظمة الأجداد
واستعادة الماضي
"المدح" في أشعار باشراحيل

ديوان مدح بامتياز يباري فيه د/ باشراحيل فحول شعراء العربية في غرض المدح، الذي يُعدُّ من أغراض الشعر العربي المهمة والأصيلة، وهو ديوان يبرهن بما لا يدع مجالًا للشك حرص شاعرنا على التشبث بميراثه العتيد الذي تركه له الأجداد، منذ "امرئ القيس" "زهير ابن أبي سلمى" "الأعشى" مرورًا "بجرير" و"الفرزدق" و"الأخطل" و"بشار بن برد"، ثم "أبي العتاهية" و"أبي نواس" و"المتنبي"، حتى نصل إلى رواد الكلاسيكية؛ "البارودي" و"شوقي" و"حافظ"، ثم الرومانسية؛ حيث "إبراهيم ناجي" و"علي محمود طه" و"محمود حسن إسماعيل"

ولنتوقف مع دلالة العنوان وعتبته "سيوف الصحراء" لقد ارتبط السيف في الثقافة العربية، وفي التراث العربي، بالشرف، والسؤدد، والمجد، والقوة.

وأفرد له الأدباء والشعراء المصنفات والمؤلفات المستقلة، فقد ارتبط العربي بالسيف ارتباطًا قويًا إذ كان أداته الأولى للقتال دفاعًا عن النفس والعرض والأرض والقبيلة، ولأهميته سمى الكثيرون أبناءهم به، وليس أدل من أن تتخذ المملكة العربية السعودية من السيف شعارًا تضعه في علم المملكة تعلوه الشهادة، لذا فقد اتخذه باشراحيل شقًا لعنوانه كما ذكره مرة أخرى في المجلد الرابع من مجموعته الكاملة في قصيدة بعنوان

"غمد وسيف"

أما الشق الآخر فهي "الصحراء" بامتدادها وسطوتها ودلالات حضورها في الشعر العربي الذي عدد لها الأسماء (الصحراء، الفيافي، البوادي، البراري، العراء، الفلاة... إلخ.) وفي الاسم نلحظ ارتباط الشاعر ببيئته واعتزازه الشديد بها

وإضافة السيف بدلالاته إلى كلمة أو مفردة الصحراء دليل حب وافتخار، لكن ترى من هم "سيوف الصحراء" إنهم ملوك وأمراء المملكة العربية السعودية، الذين أفرد د/ باشراحيل لكل منهم قصيدة لإظهار مدى اعتزازه وفخره بهم وهم:

أصحاب الجلالة والفخامة والمجد:

"الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن" الملك "فهد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "عبد الله بن عبد العزيز" وسمو الأمير "بندر بن عبد العزيز" وسمو الأمير "سلطان بن عبد العزيز" وسمو الأمير "نايف بن عبد العزيز" وسمو الأمير "ماجد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "أحمد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "عبد المجيد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "عبد الله الفيصل آل سعود" وسمو الأمير "خالد الفيصل" وسمو الأمير "فيصل بن فهد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "سلطان بن فهد بن عبد العزيز" وسمو الأمير "منصور بن بندر بن عبد العزيز" وسمو الأمير "فيصل بن ثامر بن عبد العزيز" وسمو الأمير "مشعل بن ماجد بن عبد العزيز".

وفي حقيقة الأمر فقد حرصت على ذكر كل الأسماء التي تناولها شاعرنا في ديوانه لأبرهن على أن المدح الذي جاء فيها يصدر عن عاطفة حقيقية، وصدق مشاعر وحب عميق لا يشوبه زيف، ولا نفاق ولا يرجو مصلحة، وإلا لما تدفقت كلماته بهذه الأريحية، ولما انثالت أبياته بكل هذا الصدق وهذه الألمعية والقدرة الجبارة على الإبداع.

ديوان أقمار مكة

في حب نبي الإسلام وأهل بيته الكرام

حين يكون الشعر "منبرًا للدعوة"

وعتبة العنوان تحمل دلالة معنى الإضاءة، التي تذهب الظلمة وتنير الكون كما تحمل معنى الجمال والحسن والعلو والبعد. فمن هم الأقمار الذين جاءوا لينيروا مكة ويضفوا عليها هالة الجمال والحسن، ويجعلوا منزلتها أعلى وأبعد من أن يصل إليها أحد، إن هذا الديوان هو ديوان في حب "رسول الله" وأصحابه، وآل بيت النبوة فقد خصص باشراحيل معظم القصائد في هذا الديوان لمدح نبينا الكريم وأصحابه البررة الأخيار، وآل بيته الكرام الأطهار، لكنه وقبل أن يبدأ توجه بالشكر والإقرار بالفضل لله العزيز الجبار، نجد هذا في قصيدة " مالك الملك "التي يقول فيها: (١)

يَا رَبِّ مَجْدُكَ عَطَّرَ الْأَعْطَارَا ... وَسَنَاكَ إِشْرَاقٌ جَلَا الْأَنْظَارَا

مِنْ غَيْرِ فَضْلِكَ لَا تَعِزُّ حَيَاتُنَا ... أَنْتَ الْعَظِيمُ تُقَدِّرُ الْأَقْدَارَا

يَا رَبِّ يَا مَلِكَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا ... وَرَحِيمُ مَنْ أَفْنَى الْمَدَى أَعْذَارَا

يَا عَالِمًا سِرَّ الْغُيُوبِ جَمِيعِهَا ... يَمْحُو وَيُثْبِتُ مَا أَرَادَ جَهَارَا

نَدْعُوكَ باسْمِكَ يَا كَرِيمُ فَمُدَّنَا ... مِنْ نُورِكَ الْوَضَّاءِ كَيْ نَخْتَارَا

هَا نَحْنُ أَسْلَمْنَا إِلَيْكَ مَصِيرَنَا ... يَا رَبِّ جَنِّبْنَا الْأَسَى وَالْعَارَا

يَا مَنْ لَهُ كُلُّ الْأَنَامِ تَعَبَّدُوا ... وَلَهُ الَّذِي نَدْرِي وَمَا يَتَوَارَى

نَفْنَى وَتَنْبَعِثُ الْحَيَاةُ جَدِيدَةً ... بَيْنَ الْجِنَانِ وَمَا حَوَتْ أَثْمَارَا

---

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد اله باشراحيل – المجلد الثاني – ص ٤٩

كُلٌّ يُسَبِّحُ لِلْإِلَهِ هُوَ الَّذِي يُجْرِي السَّحَابَ وَيُنْزِلُ الْأَمْطَارَا
يَا رَبِّ قَدْ جِئْنَا إِلَيْكَ أَذِلَّةً جَنِّبْ خُطَانَا الْهَوْلَ وَالْأَخْطَارَا
وَاخْتَرْ لَنَا خَيْرًا يُرِيحُ نُفُوسَنَا وَاجْعَلْ خَوَاتِمَ عُمْرِنَا أَزْهَارَا

ويعيد باشراحيل تجربته الفريدة في كتابة مئوية جديدة جاءت هذه المرة في حب ومدح نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

وتسرد لنا هذه الدرة الفريدة قصة نبينا المصطفى منذ الميلاد، فموت الأم ثم رعاية جده له، ثم وفاة الجد ليرعاه عمه، وزواجه من السيدة خديجة، والتجارة التي كان صلى الله عليه وسلم يديرها لها في رحلة الشتاء والصيف، أشهر الرحلات التجارية في مكة، ثم موت أم المؤمنين "خديجة" وما حدث لنبينا المصطفى في الطائف، وهجرته صلى الله عليه وسلم وسيدنا "أبو بكر الصديق" رضي الله عنه، واختبائهما في غار "ثور"، وكيف استحال وصول كفار قريش لهما، ودور "أسماء بنت أبي بكر" في هذه الهجرة وما لاقته من صعاب في مهمة إيصال الطعام للغار، وتذكر القصيدة أيضًا كيف افتدى سيدنا "علي بن أبي طالب" -كرم الله وجهه- نبينا المصطفى، ثم وصوله -صلى الله عليه وسلم- إلى طيبة، وبناء مسجد المدينة، والإخاء الذي تم بين الأوس والخزرج، ودور الأنصار، وانتشار الدين الإسلامي، ثم فتح مكة وعودة النبي الكريم إليها.

إنها قصيدة تعليمية تنويرية محكمة السرد، فإذا ما أخذنا في الحسبان حرص شاعرنا على ترجمة أشعاره إلى اللغات الأجنبية، سنعرف حجم وقيمة هذه القصيدة وغيرها في منجز شاعرنا؛ لتتحول رسالة باشراحيل إلى رسالة عالمية غير قاصرة على الانتصار للأمة الاسلامية وللعرب والمسلمين، بل تمتد لأن تصبح قصيدته وسيلة لنشر دعوة الإسلام وتعاليمه السامية.

لقد آمن باشراحيل بحتمية أن تكون للشاعر رسالة يصدر عنها، وتشكل رؤيته للعالم ويريد تبليغها للناس، كما آمن بمفهوم الشاعر الحكيم، وقد ارتبط الشعر بالعلم في جانب أصيل من تراثنا، وانظر إلى قول سيدِنا "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه "إنَّ الشعرَ عندَ العربِ

كانَ علمًا، لا علمَ لهم فوقَه، فالتَجَئُوا إليه لما وجدوا فيهِ من الحكمةِ،(١) والحكمةُ هنا قرينةُ العلمِ؛ من حيثُ هي معرفةُ الحقِ لذاتهِ، والشاعرُ الحكيمُ هو "العالمُ صاحبُ الحكمةِ" الذي يقودُه تأملُه إلى الحقِ فيهدي للعلمِ بحقائقِ الأشياءِ، وما يقترنُ بهذا من قدرةٍ على الكشفِ والتنبؤِ من ناحيةٍ، والقدرةِ على الهدايةِ والتأثيرِ من ناحيةٍ أخرى، لهذا فقد وصلتْ هذه القدرةُ المزدوجةُ بينَ الشاعرِ والنبيِ، ولهذا وُصِفَ سيدنا "محمد" -صلي الله عليه وسلم- بأنّه شاعرٌ-لما التَمسَ فيهِ العربُ من الحكمةِ- وعقبَ على بيتِ "طرفة":

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

بقوله هذا من كلام النبوة(٢) كما رد عبد القاهر الجرجاني جدوى الشعر إلى ما ينطوي عليه من حق "حكمة" وكذلك فعل ابن رشيق، أما حازم القرطاجني فقد وصل بهذه الجدوى إلى النهاية الطبيعية، ورفع الشعر إلى مصاف النبوة، وجعل أصحابه هم أكرم الخلق، يقول: "كثير من أنذال العالم –وما أكثرهم– يعتقد أن الشعر نقص وسفاهة، وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيه ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة على حال قد نبه عليها أبو علي ابن سينا فقال: كان الشاعر في القديم ينول منزلة النبي، فيُعتَقدُ قولُه، ويُصَدّقُ حكمُه، ويُؤمَنُ بكهانتِه،

---

(١) يقول المظفر العلوي:" أما مدح الشعر على لسان النبي صلي الله تعالي عليه وسلم.. فكثير.. فمن ذلك قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: (إن من الشعر لحكمة) وفي موضع آخر (إن من الشعر لحكمًا).هذا قوله وهو صلي الله تعالى عله وسلم لا ينطق عن الهوى، بعد أن قال الله تعالى في شأن داود عليه السلام: (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب)، وقوله تعالى: (ولوطًا آتيناه حكمًا وعلمًا)، فجعل صلى الله تعالى عليه وسلم بعض الشعر جزءًا من الحكمة التي اختص الله تعالى بها أنبياءه ووصف أصفياءه وامتن عليهم بذلك إذ جعلهم مخصوصين بها من قبله مغمورين بفخرها من جهته، وناهيك بذلك فضيلة للشعر والشعراء) راجع نضرة الإغريض في نصرة القريض، دمشق ١٩٧٦ ص ٣٥٢، ٣٥٣

٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني – تونس – ١٩٧٣ ص ١٢٤٢٥

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء – حازم القرطاجني – تونس – ١٩٧٣ ص ١٢٤٢٥

فانظر إلى تفاوت ما بين الحالين: حال كان ينزل فيها " الشاعر " منزلة أشرف العالم، وحال صار ينزل فيها منزلة أخس العالم وأنقصهم.

و"حازم القرطاجني" هنا حتى وإن كان يتحدث عن وضع قديم نفاه الإسلام، نفيًا حاسمًا للتشابه بين النبي والشاعر، أو بين القرآن والشعر، فيبقى التلويح اللاهب بها في أوجه " أنذال العالم " أمرًا له مغزى بالبعد المعرفي لرسالة الشاعر، وما للشعر من أهمية، ودور يتصل بالكشف والهداية، وتظل الصلات موصولة بين الشاعر الحكيم والنبي الملهم، وبينهما وبين الفيلسوف محب الحكمة، بكل ما يقترن بها من تأمل في الطبيعة، وعندما نرد كل هذه التجاوبات إلى بعضها البعض، بحيث تتجاوب حكمة الشاعر القديم وحكمة النبي والفيلسوف، نجدهم يرتبطون بقوى علوية، وقوى إنسانية، خالصة تقترن بالفطنة والدراية والعلم والمخيلة والبصيرة، لذا قد تتوجه هذه الحكمة صوب المطلق، ليرى الشاعر حقيقة متعالية تهبط إليه من المحل الأرفع، كما حدث في عينية ابن سينا، أو كما تجلت لابن الفارض عندما قال: (١)

آنستُ في الحيِ نارًا ليلًا فبشّرْتُ أهلي
قلتُ امكثُوا فلعلي أجدْ هدايَ لعلي
دنوتُ منها فكانتْ نارَ المُكَلَّمِ قبلي
نُودِيتُ منها كَفَاحًا رُدوا ليالِيَ وصلِي
حتى إذا ما تدانى الميقاتُ في جمعِ شملي
صارتْ جبالي دكًا من هيبةِ المتجلِي
ولاحَ سرٌ خفيٌ يدريهِ من كانَ مثلي

(١) ديون ابن الفارض – قراءات لنصه عبر التاريخ – تحقيق جوزيبي سكاتولين – الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١١ ص ٢٣٠

وصرتُ موسى زماني مُذْ صارَ بعضي كُلي
فالموتُ فيه حياتِي وفِي حياتِي قتْلي

كما قد يتوجه تأمل الشاعر الحكيم نحو الإنسان والطبيعة؛ فيغدو الشعر تأملًا في الكائنات والأشياء، أو قد يتوجه كما فعل شاعرنا لنشر السلام والفضيلة وحب الخير وتعاليم دين الاسلام الحنيف ويبقى اليقين بأهمية الشعر ودوره في تعمير الأرض وإصلاح الإنسان يقول ابن الرومي:

أرى الشعرَ يحيِ الناسَ والمجد بالذي تُبَقِّيهِ أرواحٌ لهُ عطراتُ
وما المجدُ لولا الشعرُ إلا معاهدٌ وما الناسُ إلّا أعظمٌ نخراتُ

إذ أهم خاصية تنطوي عليها نهضة الشعر العربي في العصر الحديث،هي تجدد ذلك الوعي بأهمية الشعر في حياة الفرد والجماعة، واستعادة الشاعر الحكيم الذي يجب أن يؤدي أدواره الأساسية في توجيه الإنسان، وتأمل العالم، وكشف أسرار الوجود، وكان هذا منطق شاعرنا حين تمسك بعمود الشعر العربي ولغته الرصينة العامرة بمفرداتها وبلاغتها وجمالها الخاص، هذا هو ما طمح إليه شاعر فريد متفرد في ثقافته وانتقاء أدواته وتخير مفردات لغته وصفاء قريحته وسمو رسالته.

ومن هذا المنطلق يكتمل الديوان الفريد المتفرد في منجز د/ عبد الله الشعري إذ يفرد شاعرنا قصيدة لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم قصيدة لسيدنا عمر بن الخطاب ثم قصيدة لسيدنا "عثمان بن عفان" رضي الله عنه ثم لسيدنا"علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه ثم للسيدة "عائشة بنت أبي بكر" ثم لسيدنا أسامة بن زيد ليكتمل عقد أقمار مكة، التي أضاءت الكون بنور الهدى والحق وأخذت بأيدي الكون للهداية والرشاد.

وانتقاء هذه الشخصيات تدلنا على الأيديولوجيات التي ينطلق منها د/ عبد الله باشراحيل وهي أيدولوجية واضحة المعالم تنطلق من مذهب سني وسطي معتدل الأركان ومن

نفس المنطلق، منطلق الزود عن الاسلام والمسلمين يقرر شاعرنا أن يحاور مثقفي أمريكا بقصيدة تعد إعلانًا رسميًا عن موقف سياسي وعقائدي، ويعتمد باشراحيل على المنطق وحوار العقل في خطابه لمثقفي أمريكا، بل ويعتمد على أقوال مفكرين وفلاسفة غربيين فيستشهد بـ"رسطاليس" و "أفلاطون" و"سقراط" بل إلي حكمة "نيتشه" ونبذ هؤلاء جميعًا للظلم، ويسأل شاعرنا مفكري ومثقفي أمريكا عن سبب افتراء معظمهم على الدين الإسلامي ووصمه بدين الإرهاب وهو أبعد ما يكون عن الارهاب، ويؤكد على أن هذه مغالطة وبهتان ومحض افتراء، وفي نهاية القصيدة دعوة مفتوحة لكل شعوب الأرض دون تمييز بين عرق أو جنس أو لون كما نجد دعوة للحياة في سلام ومحبة وعدالة و إخاء

ولقد تخير باشراحيل لهذه القصيدة أن تكتب في قالب السطر الشعري "شعر التفعيلة" ربما كان سبب هذا أن الدفقة الشعورية دفقة مغايرة، تنطلق من نفس ثائرة غيورة وتنفتح على متلقٍ مختلف بعيدٍ عن الثقافة العربية والإسلامية لن تستوعب ذائقته بحور الخليل، بل ستكون التفعيلة أقرب الأشكال التي يمكن أن يعمد إليها د/ باشراحيل لإيصال فكرته وهو هنا يمثل بلاغة أجداده بمراعاة الكلام لمقتضى الحال، إن استعمال باشراحيل للقوالب الشعرية يدلنا –وهو شيء لا يحتاج إلى دليل– على ذكائه الفطري، وتوظيفه لهذا الذكاء، كما يدلنا على تمكنه وامتلاكه أدواته، ووعيه الشديد بها سواء أجاءت الكتابة في قوالب الخليل المعهودة والأثيرة لنفس باشراحيل، والقريبة لروحه أم جاءت في الشكل التفعيلي. و الشكل التفعيلي هو قالب أفسح لنفسه مكانًا مميزًا على الساحة الشعرية وبين مثقفي وأدباء الأمة العربية منذ الرعيل الأول " نازك الملائكة – وبدر شاكر السياب – وصلاح عبد الصبور وحتى يومنا هذا وهو قالب معترف به لدي د/ عبد الله باشراحيل الذي لم تتقبل نفسه ما أطلق عليه "قصيدة النثر" بأشكالها الكثيرة والغريبة في بعض الأحيان على الذائقة العربية، والمتلقي العربي وبخاصة مع هذا الغموض وهذه الترهات التي امتلأت بها هذه القصيدة، حتى غدت في بعض الأحيان نوعًا من الألغاز التي لا معنى لها.

وعليه فإن د/ باشراحيل يرى أن مثل هذه القصيدة تجافي الذائقة العربية التي تربت على اتباع الأوزان والتزام القوافي وحسن التقسيم وحلاوة الصورة مما يعطي لشعرنا العربي بريقه ورونقه المعهود، والآن أتركُ القارئ مع القصيدة

يقول باشراحيل:

إِلَى أُدَبَاءِ أَمْرِيكَا
قَرَأْنَاهَا رِسَالَتَكُمْ
وَقُلْنَا رُبَّمَا يَخْضَرُّ جَدْبُ الْأَرْضْ..
وَتُورِقُ بَينَنَا الْأَيَّامُ وَالْأَحْلَامُ
نَمْزُجُ فِي ضِيَاءِ الْفَجْرِ
نُورَ الشِّعْرْ
وَنَجْنِي مِنْ تُرَابِ الْفِكْرِ
بَعْضَ التِّبْرْ
نُهَادِيكُمْ زُهُورَ الشَّرْقْ
نُحَيِّيكُمْ بوَجْهٍ طَلْقْ
وَنَدْعُوكُمْ لِقَوْلِ الْحَقْ
أَيَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..
تَنَاسَيْتُمْ عَذَابًا رَاحَ يُصْلِينَا
تَنَاسَيْتُمْ أَمَانِينَا
وَمَا جِئْتُمْ وَنَارُ الْقَهْرِ
تُضْرَمُ فِي صَحَارِينَا
أَمِنْ أَلَمٍ تَذَكَّرْتُمْ مَآسِينَا؟
إِذَنْ
مَا مَرَّ مِنْ تَارِيخِنَا الْمَجْبُولِ بالْآلَامِ

يَكْفِيكُمْ وَيَكْفِينَا
وَمَا كُنَّا أَعَادِيَكُمْ
وآدم ملتقى الإنسان بالإنسان
وَمَا كُنْتُمْ أَعَادِينَا
وَلَكِنَّ السِّيَاسَاتِ الدَّنِيئَةَ
مَا تَزَالُ تُقَوِّضُ الْحُلْمَ
الَّذِي صُغْنَاهُ
مِنْ آلَامِ حَاضِرِنَا
وَمِنْ أَطْيَافِ مَاضِينَا
***
أَيَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..
قَرَأْنَا
أَنَّ لَا تَفْرِيقَ بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمُ
وَآدَمَ مُلْتَقَى الْإِنْسَانِ بِالْإِنْسَانْ
وَكُلَّ الْخَلْقِ لِلدَّيَّانْ
تُنَادِي الْأَرْضُ رَسْطَالِيسَ
أَفْلَاطُونَ أَوْ سُقْرَاطْ
أَلَيْسَ الْحِكْمَةُ الْمُثْلَى
امْتِشَاقَ الْحَقِّ مِثْلَ السَّيْفِ
نَبْذَ الظُّلْمِ
نَشْرَ الْعَدْلِ فِي الْبُلْدَانْ
***
وَ يَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..
إِذَا مَا الْقُوَّةُ اخْتَرَقَتْ جِدَارَ الضَّعْفْ

فَإِنَّ الظُّلْمَ يَسْتَشْرِي
وَيَغْرِزُ نَابَهُ فِي الْقَلْبْ
وَنَقْضِي عُمْرَنَا دَوْمًا بِجَرْحِ الصَّمْتْ
بِرَغْمِ حَضَارَةِ الدُّنْيَا وَمَا ابْتَكَرَتْ أَيَادِي الْعَصْرْ
تَظَلُّ نَوَازِعُ الْبَغْضَاءِ تَسْتَسْقِي غُيُومَ الْقَهْرْ
وَيَأْتِي الْخَطْبُ إِثْرَ الْخَطْبْ
وَيُسْفِرُ عَنْ شَقَاءِ الْخَلْقِ
وَجْهُ الْحَرْبْ
فَكَيْفَ تُحَمَّلُ الْأَدْيَانُ وِزْرَ الظُّلْمِ؟
كَيْفَ يُسَوَّغُ الْبُهْتَانْ؟

***

أَيَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..
تُرَى مَنْ عَلَّمَ الْإِرْهَابَ؟
مَا الْأَسْبَابُ، كَيْ تُرْمَى بوَصْمَتِهِ
جَمِيعُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ
وَمَا الْأَسْبَابُ كَيْ يُرْمَى بِهِ الْإِسْلَامُ
دُونَ بَقِيَّةِ الْأَدْيَانْ
فَمَنْ ذَا يَفْقَهُ الْإِسْلَامَ
يَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..
لِيَمْلَأَ نَفْسَكُمْ حُبًّا
وَيَعْرِفَ جَمْعُكُمْ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنْ
فَكُلُّ سَمَاحَةٍ تَأْتِي مِنَ الْإِيمَانْ
وَمِنْهُ يَفِيضُ كُلُّ الْحُبِّ وَالْإِحْسَانْ
تَوَارَثْنَا خَلَائِقَنَا مِنَ الْقُرْآنْ

فَمَا لِلْضَّيْمِ يُسْكِنُنَا ثَرَى الْأَحْزَانْ

***

وَيَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا...

أَلَيْسَ الْخَلْطُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْقُوَّةْ

وَمَا قَدْ قَالَهُ(نِيتْشَهْ)

إِزَاءَ تَحَكُّمِ الْإِنْسَانِ بالْإِنْسَانِ

عَيْنَ الظُّلْمْ؟

لِمَاذَا لَا نُقَارِعُ قُوَّةَ الْأَفْكَارِ بالْأَفْكَارِ

لَا بالْبَطْشِ وَالْقَسْوَةْ؟

لِمَاذَا لَا يَسُودُ الْعَدْلُ بَيْنَ النَّاسْ؟

لِمَاذَا لَا تُوَزِّعُ هَذِهِ الْأَرْضُ

الَّتِي يَجْتَاحُهَا الْإِمْلَاقُ وَالْإِجْحَافُ

خُبْزَ الْحُبِّ بالْقِسْطَاسْ؟

***

.....

أَيَا أُدَبَاءَ أَمْرِيكَا..

تَعَالَوْا نَهْجُرِ الشَّكْوَى

وَنَصْنَعْ مَخْرَجَ الْبَلْوَى

فَلَا أَذْكَى وَلَا أَقْوَى

مِنَ الْحُبِّ الْمُضَمَّخِ بالْحَنَانِ

وَرِفْعَةِ الْإِنْسَانِ وَالتَّقْوَى

وَنُؤْمِنْ أَنَّ فِي الدُّنْيَا

جَمَالًا يَخْلُبُ الْأَلْبَابْ

وَأَفْئِدَةً تُؤَلِّفُ بالْمَحَبَّةِ

سَائِرَ الْأَعْرَاقِ وَالْأَنْسَابْ
وَتَنْزِعُ عَنْ كَرَاهِيَةِ الْخَلَائِقِ
نَابَهَا الْوَحْشِيَّ
أَوْ مَا يَحْمِلُ الْمُتَصَارِعُونَ عَلَى الْفَرِيسَةِ
مِنْ طِبَاعِ الْغَابْ
وَتِلْكَ خَطِيئَةُ الْأَقْلَامِ وَالْأَعْلَامْ
***

وحشة الروح

يردنا العنوان على الفور إلى قصيدة "ابن عبد ربه" الأندلسي(١) التي يقول فيها:

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح، بل يا غربة الجسد
إن تبك عيناك لي يا من كلفت به من رحمة فهما سهمان في كبدي

ولا شك أن أديبنا موسوعي المعرفة، كثير الاطلاع وبخاصة على الموروث من أمهات الكتب في المكتبة العربية، مما يرجح اطلاعه على قصيدة ابن عبد ربه التي تناص مع شطر بيتها في عنوان ديوانه، لكن لماذا الروح؟؟ لماذا لم يقل شاعرنا "القلب" أو النفس أعنى لماذا لم يكن التركيب.. يا غربة القلب أو يا غربة النفس، إن الروح كيان خارق للطبيعة غير ملموس، وقد تحدث المولى عز وجل عن الروح في العديد من آيات الذكر الحكيم ومنه قوله عز وجل "وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا"(٢)

والقرآن الكريم كلام معجز ليس له مثيل وقد انفرد بالجلال والبهاء حتى غدا معجزة النبي الكريم. كما أطلق القرآن كلمة الروح على ملاك الوحي سيدنا "جبريل" الملك الموكل بالتبليغ حين قال المولى سبحانه "نزل به الروح الأمين"(٣)

ومن معاني الروح في القرآن أيضًا القوة والثبات والنصرة التي يؤيد الله بها من يشاء من عباده المؤمنين جاء هذا في قوله تعالى "لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّونَ من حادَّ اللّهَ ورسولَه ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان

---

(١) هو العلامة الأديب الإخباري صاحب كتاب العقد الفريد "أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ابن جدي المرواني مولى أمير الأندلس هشام ابن الداخل الأندلسي القرطبي وكان نبيلًا، بليغًا، شاعرًا" انظر سير أعلام النبلاء الطبقة الثانية عشرة لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ج ١٥ ص ٢٨٣

(٢) سورة الشورى الآية ٥٢

(٣) سورة الشعراء الآية ١٩٣

وأيدهم بروح منه"(١)

وأطلقت كلمة الروح أيضًا على سيدنا "عيسى" عليه السلام في قوله تعالى "إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله"، أو هي سر الحياة كقوله تعالى "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا".(٢)

فأي المعاني يقصد باشراحيل حين اختار لديوانه اسم "وحشة الروح" وهي مما سبق تعني سرًا علويًا لا يعلمه إلا المولى عز وجل، سواء جاء "السر" في إعجاز القرآن أو كان في الملك الموكل بتبليغه؛ إذ إن الملائكة من الغيبيات التي لا نعلم عنها شيئًا

أو كان السر في قوة التثبيت، والتي لا يهبها الله إلا لعلم عنده خفي أو هي السر الذي منح سيدنا عيسى الحياة دون أب ودون أن يمس أمه العذراء بشر؟؟؟

أما الوحشة فمن معانيها (الخلوة – الخوف – الوهم – الابتعاد) وهي ضد الاستئناس أكان مقصد شاعرنا من هذا التركيب "وحشة الروح" شعور نفسه بالغربة التي آثرت أن تنعزل بعيدًا عن صخب الحياة، وزيفها و خداعها، وشاعرنا يوجه حديثه في إحدى قصائد الديوان لهذه الروح نجد هذا في قصيدة "عقل الذئب والديك" والتي مطلعها:

يا روح لا تغضبي إني مُفدِّيكِ قد كنت أجهدت نفسي في تعنِّيكِ
بحثت في الدهر عن شخص أصدقه فما وجدت سوى بعض الصعاليكِ

أيكون هذا هو السبب في وحشة الروح التي لا تجد لها ندًا أو مثيلًا يستحق الصحبة والائتناس به، وإن وجدت تعجل الموت، فحصد أرواح الأحبة.

ففي الديوان مرثيتان تقطران ألمًا، وتفيضان أسى وحزنًا إحداهما في رثاء "محمد بن

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٢) انظر كتاب الروح للعلامة ابن القيم ص ٢٤١

سبيل" إمام المسجد الحرام، والثانية في رثاء الشاعر الكبير "حسين عرب" التي ذيل باشراحيل عنوانها بجملة " على مثله دمع الرجال يسيل" يقول باشراحيل

مَثِيلُكَ يَا فَخْرَ الرِّجَالِ قَلِيلُ ... تَمَهَّلْ إِذَنْ إِنَّ الزَّمَانَ عَجُولُ

يُشَيِّعُكَ الصَّمْتُ الْمَهِيبُ وَعِزَّةٌ ... وَطَبْعٌ كَمَا طَبْعِ الْكِرَامِ أَصِيلُ

لَكَ الْخُلُقُ السَّامِي لَكَ الْحُبُّ وَالتُّهَى ... وَأَنْتَ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ نَبيلُ

يُحَدِّثُ عَنْكَ الطِّيبُ وَالْعِلْمُ وَالنَّدَى ... وَذِكْرُكَ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ جَلِيلُ

حَكِيمٌ عَلَى قَهْرِ الزَّمَانِ وَجَهْلِهِ ... بِنُورٍ قَدِ اسْتَجْلَتْ سَنَاهُ عُقُولُ

لَكَ الْمَجْدُ طَوَّافًا عَلَى قِمَمِ السَّنَا ... لَكَ الْقَوْلُ وَالنَّظْمُ الرَّفِيعُ يَؤُولُ

بَكَى الْعِلْمُ فِي كُلِّ الْمَهَامِهِ وَالرُّبَى ... بَكَى الشِّعْرُ، وَالْآدَابُ فَهْيَ ثُكُولُ

بَكَى الْحُبُّ وَالْأَحْبَابُ وَالطُّهْرُ وَالشَّذَى ... عَلَى مِثْلِهِ دَمْعُ الْكِرَامِ يَسِيلُ!

يَعُودُ إِلَيْكِ الْيَوْمَ يَا مَكَّةُ الْهُدَى ... وَلِيدًا إِلَى الْخَيْرِ الْكَثِيرِ يَمِيلُ

حَبِيبُكِ وَالسَّيْفُ الَّذي ظَلَّ مُشْرَعًا ... غَمَدْنَاهُ فِي الْأَرْمَاسِ وَهْوَ صَقِيلُ

حَبِيبُكِ يَا أُمَّ الْقُرَى فَاحْسِنِي الْقِرَى ... أَعِيدِيهِ عُمْرًا فِي سَمَاكِ يَجُولُ

هُوَ الصَّادِقُ الْأَوْفَى الْحَفِيظُ لِعَهْدِهِ ... رَفِيعٌ عَنِ الْهَذْرِ السَّقِيمِ أَثِيلُ

يَعِفُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا هَانَ وُدُّهَا ... وَلَمْ يَغْتَرِرْ بالدَّهْرِ وَهْوَ يُدِيلُ

سَلَامٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَغْشَاكَ كُلَّمَا ... تَوَلَّدَ صُبْحٌ يَا (حُسَيْنُ) جَمِيلُ

سَلَامٌ وَبُشْرَى تَلْتَقِيكَ وَجَنَّةٌ ... وَرَبُّكَ بالْفَضْلِ الْكَبِيرِ يُنِيلُ

وَدَاعًا لَدَى ظِلِّ الْفَرَادِيسِ وَارِفًا ... وَدَاعًا فَمَا بَعْدَ الْجِنَانِ رَحِيلُ[1]

---

[1] الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني – ص ٩٩

أبجدية قلب

وكالعادة استوقفني العنوان كثيرًا وبخاصة حين تصفحت العناوين الفرعية فوجدت الكثير منها يحمل أحرفًا مفردة من حروف الأبجدية العربية فهناك قصيدة عنوانها الحرف "ر" وأخرى الحرف "ص" ثم الحرف "ع" و"م" وهي حروف أطلقها الشاعر على قصائد خصصها لأحباب لديه، واختار الحرف الأول من أسمائهم عنوانًا للقصيدة، والحقيقة أن المرجعيات الثقافية الإسلامية لعبت دورًا في هذا؛ إذ إن القرآن الكريم قد جاءت سور عديدة فيه باسم حروف كسورة "ص"، وبدأت سور كثيرة فيه بحروف مفردة كسورة مريم "كهيعص" وسورة يوسف "ا ل ر" وغيرها الكثير، وربما في هذه التسميات التي أطلقها باشراحيل على قصائده تأثر واضح بالقرآن الكريم، كما بها ارتباط لافت باسم الديوان، فأبجديات قلب الشاعر هم أصحاب هذه الحروف، مما يوحي بشدة ارتباطه بهم، فهم قطع الروح، وأجزاء القلب مما يرجح ما سبق و ألمحت إليه من أن باشراحيل لديه استراتيجية مسبقة وسيناريوهات معدة لاختيار العنوان الذي سيطلقه على مجمل الديوان.

توقفت في هذا الديوان طويلا أمام قصيدة "تسقط كالغيم على مدني" التي افتتحها باشراحيل بعبارة تلخص الفكرة يقول: "قتلت الرغبة فداءً له، وتاه عمرها في صحراء الغربة، صورة من صور الشقاء عندما يتعذر الرجاء ويخيب الأمل ويحكم القدر"، والقصيدة تفتح للمتلقي أبوابًا عدة للعديد من القراءات المتجاورة، فقد يكون باشراحيل قد أراد من قصيدته عرض قصة حب تنازعت فيها الرغبة العارمة مع القدر الذي فرض حواجزه؛ ليحول بين التقاء العاشقين، حيث ألهب الشوق وجدان الحبيبة وأنهكت الحياة الحبيب وأتعبته التجارب فسكنه الحزن، وملك عليه قلبه وروحه، ومنع نفسه من التجاوب والإقبال على مغريات الحبيبة، لكن المتمعن في شعر باشراحيل سيدرك أن هذه الصورة للحبيبة بكل ما تعرضه من شهوات

وملذات، ما هي إلا صورة للحياة فالحبيبة والحياة لدى عبد الله باشراحيل وجهان لعملة واحدة.

ونتوقف عند مفردات العنوان "تسقط كالغيم على مدني" لنرى ما في كلمة "مدني" من "وعي مديني" وهو وعي لا يرتبط بوجود الشاعر في بيئة معينة "كالبادية أو الصحراء أو المدينة" إنما يرتبط بوعي الشاعر بقضايا ومشكلات المدينة التي فرضتها على أبنائها، وهو وعي مأزوم يتسم بالحزن وعلامات القلق الوجودي الذي يفرض مساءلة دائمة، لا تستثني شيئًا دون سؤال، حتى غدا الوجود ذاته مجموعة من أسئلة مؤرقة، ليصبح الهم قرين الجفاف والقيظ، ويصبح الغيم أمنية ورجاء تؤمله النفس وسط صحراء خاوية خالية من الأنيس تبعث الوحشة والغربة وتجسد أحوال التوحد عبر رحلة الشاعر المعرفية والإبداعية التي تناوشه فيها مغريات الحياة بحسنها وبهجتها.

إذ تقف بكل دل وأنثوية وبإغواء لا يقاوم عارضة فتنتها على محبيها، وانظر لهذه الصورة التي رسمها عبد الله باشراحيل ببراعة في هذا المقطع:

أَنَا كُلُّ رِجَالِ الْأَرْضِ تَمَنَّوا مِنْ نَظَرِي اللَّمْحَةَ
مَاذَا يُثْنِيهِ عَنِ الْهَمْسِ؟
فمَا زَالَ يُحَيِّرُنِي
أَسْأَلُ عَنْ عَيْبٍ يَمْنَعُهُ عَنِّي:
شَعْرِي، أَنْفِي، ثَغْرِي، عَيْنِي، طُولِي، عَرْضِي
وَصَفُونِيَ بالْأَجْمَلْ
سَمَّوْنِي عَاشِقَةَ الْحُبِّ الْعُذْرِيِّ
وَسَمَّوا مِنْ عِطْرِي الْوَرْدَةَ
وَسُمُوقَ النَّخْلَةِ مِنْ جِذْعِي
وَالنَّاعِمُ وَالْفَاحِمُ شَعْرِي
وَبثَغْرِي حَبَّةُ عُنَّابٍ وَاللُّؤْلُؤُ دَاخِلَهُ يُغْرِي
أَسْقَطْتُ سُيُوفًا مِنْ سِحْرِي

وَهَزَمْتُ بعَيْنَيَّ جُيُوشًا
لَكِنَّ حَبيبِي
يُدْهِشُنِي
بَلْ يُقْلِقُنِي
يَتْرُكُنِي أَذْوِي مِنْ وَجَلِيْ(١)

إنها حبيبة تعرض فتنتها كاملة، لكن لا تسمح لمن يقترب منها بأن يتلذذ بلمسها أو يقطف ثمار حسنها، يقول باشراحيل على لسان الحبيبة: (٢)

أَبْحَثُ عَنْ نَمِرٍ يَسْكُنُنِي
لَا يَلْمِسُنِي وَيُعَذِّبُنِي

لكنها أمام تجاهل الحبيب وإعراضه ورغبتها الشديدة والملحة فيه، تغريه بكل ما أوتيت من حسن وبكل الطرق التي تفجر بداخله كوامن الرغبة، وتقول هيت لك، إنها تستنفر غرائزه المكبوتة مستعملة كل دهاء حواء ومكرها.

يقول باشراحيل: (٣)

أَشْتَاقُ إِلَيْهِ يُعَابِثُنِي
كَالْمُهْرَةِ يَعْسِفُنِي
وَيَعُودُ وَيُخْجِلُنِي
يَتَحَدَّثُ عَنِّي عَنْ مُثُلِي
وَرِيَاحُ الْغُرْبَةِ تَعْصِفُ بِي
أَتَوَاثَبُ حِينَ أَرُوحُ وَحِينَ أَجِيءُ

---

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني - ص ١٦٢

(٢) نفسه.

(٣) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني - ص ١٦٦

لِكَيْ يَتَشَهَّى الرَّغْبَةَ فِي جَسَدِي
وَلْيَهْمِسَ لِلنَّجْوَى فِي صَدْرِي

لكن هذا الحبيب المكبل بقيود الزمن وأطلال الأحزان وخزائن الحسرة والأسرار، التي تعيي الصبر لا يعير كل هذا اهتمامًا، والقصيدة كلها مبنية على المفارقة بين حالة الحبيبة والحبيب بين هذا العرض المغري وذلك الإعراض المصمم.

والمفارقة هي عنصر تكويني في شعر باشراحيل، لكن حدتها في هذه القصيدة تزداد بتباعد أطرافها؛ فتصدم مستقبلها بقدرتها التي تكشف عن مأساوية الموقفين، وللقصيدة قالب سردي مشوق فيه عرض القصة والحوار القائم على الأسئلة من طرف الحبيبة التي أعيتها الوسائل والحيل لتستكشف سبب هذا الإعراض بعد كل ما قدمته من آيات الإقبال ومظاهر الرغبة، وبعد ما تجلى لها من رغبة دفينة لدى الحبيب يقول(١)

قَد جِئْتُ أُسَائِلُهُ عَنِّي؟
لَمْ يُخْلِفْنِي ظَنِّي
يَعْرِفُ عَنْ فِتْنَةِ حُسْنِي وَبَرَاءَةِ قَلْبِي وَرَجَاحَةِ عَقْلِي

وفي دعوة من الحبيبة للقاء سري في بيتها هي "دعوة" للبوح استجمعت فيها كل المسببات التي تجبر بها هذا العاشق الصامت للانهيار والاعتراف أمام الإغراء الكامل..

حيث خفوت الضوء، وأنفاس من عطر الحب وعري السحر.. فكانت النتيجة أن أطرق عاشقها في صمت، وسحائب حزن في عينيه لكنها لم تيأس إلى أن اعترف لها وقال:

قَالَ أُحِبُّكِ وَحْدَكِ حَتَّى الْمَوتْ
لَكِنِّي يَا دُنْيَا
مُطْفَأَةٌ أَجْمَلُ أَحْلَامِي

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني – ص ١٦٧

أَنَا لَيْلٌ يَسْكُنُ أَطْلَالَ الْأَحْزَانْ
قَدَرِي يَا دُنْيَا أَنْ أَحْمِلَ سِرًّا يُعْيِي الصَّبْرْ
فَاحْتَفِظِي بالْحُبِّ الْخَالِدِ فِي غَدِنَا

ثم غرام باشراحيل الدائم بجمع المتناقضات في جملة واحدة إذ يقول:

إِنِّي أَهْوَاكِ كَعِشْقِ اللَّيْلِ لِنُورِ الْبَدْرْ
أَنَا أَفْقَرُ إِنْسَانٍ فِي الْحِقْدِ
وَأَجْهَلُ إِنْسَانٍ فِي الْغَدْرْ
وَرَصِيدِي مِنْ آثَامِي صِفْرْ
وَالْأَغْنَى بالْأَحْبَابِ وَجَمْعِ الصَّحْبِ،
وَأَمْلِكُ فِي نَفْسِي قَلْبًا طِفْلًا
عُذْرِي أَنْ أَبْكِي مِنْ أَلَمِي وَحْدِي

إن استحالة لقاء الحبيبين فرض واجب على هذا الحبيب الذي رغم احتياجه الجارف إلى هذا الحب لن يلبي النداء أو ينصاع للرغبة وللعروض المتكررة.

إذ يقول في ختام القصيدة:

أَحْتَاجُ هَوَاكِ كَوَجْهِ الصُّبْحِ لِنُور الشَّمْسْ
وَيَحِنُّ إِلَيْكِ عَفِيفُ الْهَمْسْ
نَامُوسُ الْكَوْنِ بِأَنْ تُولَدَ نَفْسٌ مِنْ نَفْسْ
تَسْتَفْحِلُ أُنْثَى الْإِنْسِ وَأُنْثَى النَّخْلِ وَأُنْثَى النَّمْلْ
مَوْلُودٌ يَا دُنْيَا مَقْطُوعَ النَّسْلْ
إِنْ كُنْتِ أَضَعْتِ حَبِيبًا
فَأَنَا ضَيَّعَنِي الدَّهْر

ويحضر السؤال البديهي لذهن القارئ العادي، بل المتخصص غير المطلع؛ لماذا اختار

الشاعر "أنثى النمل وأنثى النخل"؟؟

في الحقيقة، إن هذه الشطرة الشعرية تدلنا على اطلاع واسع للدكتور/ عبد الله باشراحيل، وتفتح أعين المتلقي على فرع ثقافة آخر نهل منه د/ باشراحيل عبر رحلته المعرفية؛ إذ إنه من المعروف -علميًا- أن أنثى النمل العقيمة هي التي تقوم بأعباء المملكة وتقضي لقبيلة النمل حاجاتهم؛ فترعى الصغار وتدافع عن المملكة، أما ذكر النمل فلا يخرج إلا في فترة التلقيح، ولا دور له إلا تلقيح الملكات. وفي هذا دلالة واعية للرسالة التي يريد الشاعر إيصالها لهذه الحبيبة من إعراض وصد وتحول وترتيب لأولويات الحياة. وأما أنثى النخل فإنها أقل في الطلع وعدد الشماريخ داخل هذا الطلع وهي أضأل في الطول والعرض والحجم، وباجتماع الدلالتين يمكن أن نفسر شطر القصيدة على أن الشاعر قد عزف عن دوره الذكوري في الإخصاب والاستجابة لنداءات الشهوة والجنس، وما بهما من ملذات وتفرغ لواجبات أكثر أهمية وضرورة، فرضتها عليه الحياة كرعاية القبيلة أو الأسرة والقيام بأعباء الحياة، ومتطلبات عديدة فرضها الزمن وأجبرته عليها الظروف، فإن كان ناموس الكون أن تولد نفس من نفس فإن نصيبه من هذا الكون أن يلعب دور "مقطوع النسل" والدلالة هنا ليست لفظية بل قصد الشاعر بها المعنى الكنائي المعنوي، أي العطاء دون انتظار المقابل أو الجزاء.

ولعلنا من خلال هذا العرض السابق نعني ما عناه العرب حين أرجعوا معنى الشعر إلى الفطنة؛ ففي لسان العرب جاء أنه من معاني الشعر الفطنة، حيث يفطن الشاعر إلى ما لا يفطن إليه غيره من علاقات لم تكن مكتشفة من قبل بين المدركات أو الظواهر، والأصل في ذلك هو إدراك المشابهة بين ما لم يكن مدركًا، أو ما يندر إدراكه، أو ما يتعذر على المخيلة العادية. إن الإتيان بالتشبيه النادر والغريب والذي يترك فيمن يتلقاه ما يشبه الصدمة، هو جوهر الشعر الذي يخلق حالة من النشوة غير المسبوقة

الغول

عنوان يفتح شباك التلقي للقارئ على "الحكي الشعبي والأسطورة" ويستدعي كافة الحقول الدلالية المرتبطة بهذه الكلمة، فالغول أحد "المستحيلات الثلاثة" التي تحدث عنها العرب خاصة في شبه الجزيرة العربية، وهو كائن خرافي ورد ذكره في القصص الشعبية والحكايات التراثية، إذ ورد أنه كائن يتصف بالبشاعة والوحشية والضخامة وغالبًا ما يتم إخافة الناس بقصصه، ولقد ورد في أشعار الجاهلية يقول تأبط شرًا:

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعًا لليدين، وللجران

ويقول عنترة:

والغول بين يديّ يخفى تارة ويعود يظهر مثل ضوء المشعل
بنواظر زرق ووجه أسود وأظافر يشبهن حد المنجل

كما ورد ذكر الغول في شعر العصر الإسلامي يقول جرير:

فيومًا يوافيني الهوى غير حاضر ويومًا ترى منهن غولًا تغوّل
فأضربها بلا دهش فخرت صريعًا لليدين، وللجران

وقال صفي الدين الحلي:

أيقنت أنَّ المستحيل ثلاثة الغول والعنقاء والخل الوفي

وقال الجاحظ:

"هو من الأمثال التي تضرب لشيء يسمع به ولا يرى"

وكانت العرب تقول إن الغيلان في الفلوات تتراءى للناس "فتتغول تغولا" أي تَلونُ تلونًا فتضلهم عن الطريق وتهلكهم، وقيل هي من مردة الجن والشياطين، قال الأزهري: وتسمي

العرب الحيات غولًا. (١)

لقد نهل باشراحيل من موروثه الثقافي، وارتبط به ارتباطًا شديدًا، مما يغري الدارس بتتبع المرجعيات الثقافية والرموز التراثية في منجزه الشعري، وهو في تسمية القصيدة قد قصد إلى هذه المعاني وغيرها، واستدعاها في ذهن المتلقي، وقد صوره في قصيدته فقال:

صَهْ لَا تُحَدِّثْ
أَنَّ فِي الْأَرْجَاءِ غُولْ
كَمْ يُهْلِكُ الْأَنْعَامَ مِخْلَبُهُ
وَيَلْعَقُ مِنْ دِمَاءِ النَّسْلِ مَوْتُورًا
وَيَغْتَصِبُ الْفُصُولْ
وَلَهُ مِنَ الْأَيْدِي مِئَاتٌ بَلْ أُلُوفْ
وَلَهُ فَمٌ أَنْيَابُهُ
تَبْدُو كَشُفْرَاتِ السُّيُوفْ
يَمْشِي عَلَى هُدُبِ الرِّيَاحِ
وَيَمْتَطِي فَرَسَ الذُّهُولْ
وَصَفُوهُ فِي الْمَاضِي بطَاوُوسِ الْغُرُورْ
حَتَّى إِذَا طَالَتْ نَوَاجِذُهُ تَبَيَّنَ أَنَّهُ كَلْبٌ عَقُورْ
وَهُوَ الَّذِي مَا زَالَ يَنْبشُ فِي الْخَرَائِبِ
مِثْلَ حَفَّارِ الْقُبُورْ
وَيُحَرِّرُ الْقَتْلَى، يَفُكُّ قُيُودَهُمْ
مُتَعَطِّشًا يَرْوِي بدَمْعِ الْفَقْدِ جَدْبَ اللَّيْلِ

---

(١) فتح الباري – الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي – الجزء الرابع ص ٤٨٩
وانظر فيض القدير في شرح الجامع الصغير – للعلامة المحدث محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٣ – الجزء الأول ص ٣١٨

يَرْحَلُ بالزَّمَانِ إِلَى الْوَرَاءِ، يُعِيدُ أَشْبَاحَ الْمَغُولْ

بهذا الوصف الكافي والشافي والذي تخيله الشاعر، فرسم به صورة مرعبة لكائن خرافي ؛ زاوج فيها باشراحيل بين ما كتبته الأساطير عن هذا الكائن وبين رؤيته الخاصة ليخلع هذه الأوصاف، ويسقطها على وصف "الوهم" الذي سلب الأمل ونحا بالعرب إلى الصمت المعربد وأباح لهذا "الغول" انتهاك كل مقدس وخوَّل له إحياء الهوان ومصادرة الكلمات

هذا "الخوف" الذي تحكم في النفوس فحول سندسها الأخضر إلى نبات جافٍ يابسٍ مصفرٍ، وفي نهاية القصيدة يدعو الشاعر العقول للتحرر من كل وهم ومن كل خوف يقف حائلًا أمام تقدمنا وحريتنا وانتصار إرادة العرب.

أما قصيدة "النور والطين وخيوط القطن"

فعتبة العنوان فيها، تدعو المتلقي إلى الانتباه واليقظة والسؤال ما الذي يجمع بين هذه الكلمات غير حرف العطف الذي انتقاه الشاعر للربط بينها.

النور: لدلالته معاني الإشراق، والرؤية فهو عكس الظلام، والعتمة ومصدره الشمس التي تنير جنبات الكون و"للنور" دلالة حضور الملائكة التي خلقت منه، وبخاصة إذا تلت كلمة النور كلمة الطين الذي خلق منه الإنسان، إذًا فالعنوان يحمل شقًا ملائكيًا نورانيًا وشقًا طيني النشأة إنسانيًا.

أما المفردة الثالثة "خيوط القطن" والتي تمثل الرابط الذي يربط بين الشقين السابقين فقد فسر وجودها الشطر الثاني والثالث من القصيدة، يقول باشراحيل:

لحظات الدهر خيوط
تدخل كالإبرة في الأعماق
لتخيط لنا ثوب الميلاد
وتَحُوكَ لنا الأكفان

لتتواثب الدهشة في ذهن المتلقي، ويقر لهذا العقل الذي ابتدع هذه الصورة بالعبقرية

والتفرد، فخيوط القطن التي تحيك ثوب الميلاد كما تحيك ثوب الكفن هي لحظات الدهر التي تنقل الإنسان عبر رحلته الحياتية من الميلاد إلى الموت. والقصيدة يمكن أن تندرج بهذا الفكر تحت القالب الفلسفي المتأمل الذي يتفكر في أسرار الوجود الكبرى والتي من أهمها النفس البشرية.

هذه النفس التي قد تنحدر إلى المملكة الحيوانية بما تأتيه من شرور وسفاهات، أو ترتقي إلى مصاف الملائكة بأفعالها الإنسانية وقيمها النورانية، وسأورد القصيدة كاملة لقصرها ولنكمل سويًا أنا والقارئ متعة التحليل ونتتبع كافة جوانبه

يقول باشراحيل: (١)

أَدْخُلُ فِي أَعْمَاقِ اللَّحْظَةِ
أَتَأَمَّلُ فِيهَا كَيْفَ تَمُرُّ بلَا اسْتِئْذَانْ
لَحَظَاتُ الدَّهْرِ خُيُوطٌ
تَدْخُلُ كَالْإِبْرَةِ فِي الْأَعْمَاقْ
لِتَخِيطَ لَنَا ثَوْبَ الْمِيلَادِ
تَحُوكُ لَنَا الْأَكْفَانْ
الْقُطْنُ بَيَاضٌ وَالْعَظْمُ بَيَاضٌ
وَالْجِلْدُ كِسَاءٌ تَتَعَدَّدُ فِيهِ الْأَلْوَانْ
وَاللَّوْنُ الْأَبْيَضُ يَتَشَكَّلُ مِنْهُ الطِّينُ
فِيَبْدُو حَيَوَانًا أَوْ يَغْدُو إِنْسَانْ
أَتَفَكَّرُ كَيْفَ يَكُونُ رَحِيقُ النَّبْضِ الْأَحْمَرِ
يَجْرِي فِي نَفْسِ الشّرْيَانْ
وَشَظَايَا النُّورِ إِذَا تُشْرِقُ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني – ص ١٧٧

قَبَسٌ مِنْ شَمْسٍ صُغْرَى
تَكْمُنُ فِي نَفْسِ الْأَشْيَاءِ
وَتُوقَدُ مِنْ مَاءِ الزَّيْتُونِ
فَيُشْعَلُ فِي أَنْفَاسِ الْكَوْنِ النُّورْ
لِيَكُونَ حَيَاةً
ثُمَّ زَمَانًا ثُمَّ مَكَانْ
لَوْ تُطْفَأُ نَارُ الشَّمْسِ لِتَرْحَلَ لِلصَّمْتِ الْأَزْمَانْ

وأتخيل أن الشكل الكتابي للقصيدة قد جاء بالطريقة التي أوردتها هنا لا بالطريقة التي كتبت في المجموعة الكاملة للشاعر، ولو أننا راجعنا مسودة الكتابة التي كتبت بها هذه القصيدة فلابد أن تأخذ هذا الشكل السابق، إذ إن الفكر سيتوقف عند كل كلمة أو دفقة بهذا المنطق وتلك الطريقة.

وانظر عزيزي القارئ إلى دقة المفردة التي تجلت في القصيدة حين يقول:

الْقُطْنُ بَيَاضٌ
وَالْعَظْمُ بَيَاضٌ
وَالْجِلْدُ كِسَاءٌ تَتَعَدَّدُ فِيهِ الْأَلْوَانْ

إن مآل الإنسان مهما طال عمره إلى التراب، وتحلل الجسد الفاني -أيًا كان لون الجلد الذي يحمله- إلى عظم يحمل نفس اللون الأبيض، الذي سيدثر به، لون الكفن، لون القطن، لتتلاشى كل آيات التمييز بين البشر، والتي أهمها لون الجلد، فما الذي يدعو الإنسان لترك إنسانيته، ويمضي به إلى عالم حيواني كريه المعالم؟ هذا الإنسان الذي يمكنه أن يضيء جنبات هذه النفس بقبس من نور الشمس.

وفي الصورة السابقة لمحة من قول المولى عز وجل في الآية رقم (٣٥) من سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ صدق الله العظيم

وفي هذه الآية من سورة النور التي ذكرها المولى عز وجل ليقرب للأذهان بعض من فيض نورانية الذات الإلهية التي يمكن أن يتجلى اليسير منها في الإنسان، إن هو استمسك بالعروة الوثقى، وربما هذا شيء مما عناه الزهاد من تجلي الأنوار الربانية في الجسد الناحل للإنسان المتمسك بنور الحق، ونور اليقين ليضيء الكون كله نور الهداية؛ فتكون حياة حقيقية إلى أن تنطفئ الشمس، ويذهب الإنسان الذي تحققت إنسانيته إلى دار أخرى، ليصمت الزمن وتثبت عجلة الدهر.

تبقى لمحة واحدة في عتبة هذا العنوان اللافت، وهي ترتيب الكلمات فقد آثر الشاعر أن يبدأ بالنور ثم الطين، وهو بدء عكس الرحلة التي تدرجنا بها في قراءة هذه القصيدة غير أنه عنى هذا التقدم؛ ليشير إلى دعوته للإنسان بأنه لابد أن يرتقى ليصل إلى الدرجة الأعلى إلى النور صاعدًا نحو درجات الملائكة.

"مدن الغفلة"
منظور باشراحيل للبنى التسلطية
وموقفه من حاكم العراق السابق
صدام حسين

ترى عن أي مدن يتحدث باشراحيل، وأي غفلة يقصد وهو الذي يعيش في ظلال أجمل مدن الأرض "مكة المكرمة"، وتحت راية حاكم عدل ونسل منسب، إن باشراحيل لم يقصد أبدًا عزيزي القارئ –أعزك الله– بهذا الديوان الحديث عن المملكة العربية السعودية بل عني "بمدن الغفلة" هذه المدن التي ابتلاها الله بأنظمة تسلطية أهدرت فيها كرامة الشعوب، وامتهنت أدميتها، ولم يرع فيها الحاكم حقوق شعبه ولم يؤد ما أمر الله به الحاكم، من نشر العدل، والمساواة ودفع الظلم عن الرعية، ولقد تجلت هذه الدولة القمعية، وتلك البنى التسلطية أمام عين باشراحيل في حكم العراق، و في حاكمها السابق "صدام حسين". "والعراق" أو "بلاد ما بين النهرين" كما أطلق عليها موطن الحضارة السومرية والآشورية، ومركز "الدولة الإسلامية" في خلافة سيدنا "علي" -كرم الله وجهه- الذي نقل عاصمة الدولة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة، ثم قام معاوية بن أبي سفيان بنقل عاصمة الدولة الإسلامية من الكوفة إلى دمشق

إلى أن جاء عصر العراق الذهبي في عهد الخلافة العباسية، لذا فللعراق مكانته الأثيرة لدى مثقفي العرب، وحاملي مشاعل التنوير فإن كان موطن نكبات العرب الذي شهد معارك المذاهب والطوائف، فإنه بلد الكوفة والبصرة، وموطن الشعراء والعلماء ومدارس النحاة، ومعقل البلاغة غير أن النكبات لم تفارق العراق في عصرنا الحديث كما لم تفارقه قديمًا، ولقد رأى باشراحيل في صدام حسين مثالًا لدولة تسلطية باطشة ترسخ لقوى القمع والبطش والعنف والإرهاب، بعيدًا عن تعاليم ديننا الحنيف ومواصفات الحاكم العدل.

بل قام بنشر القهر والذل و الخوف، الذي ربطه باشراحيل دائمًا بدوال بعينها كالموت والظلمة، والغول، والأشباح والسجن والجلاد، وهي دوال تدل على رؤيته للقمع ولبنى الدولة التسلطية التي لا تستمر إلا بالحماية اللازمة التي تقوم بها الأجهزة القمعية "الجلاد – الشرطة – العسكر" هذه الحماية التي تلازم وجود هذه الأجهزة وتؤكد فاعلية القمع في الضبط الاجتماعي، والتحكم السياسي.

ويذهب دارسو علم الاجتماع السياسي " إلى أن الدولة التسلطية هي الشكل الأحدث للدولة الاستبدادية التي سعى إلى تحليلها والكشف عن مظاهر القمع فيها "عبد الرحمن الكواكبي" في كتابه "طبائع الاستبداد" سنة ١٩٠١.

لذا نجد في ديوان "مدن الغفلة" حديثًا مطولًا لباشراحيل عن هذه الأنظمة التي تجسدت أمامه في حكم "صدام حسين" يقول باشراحيل في قصيدة "هدام العروبة"(١)

صَدَّامُ قَدْ أَزِفَ الحِمَامْ وَسَطًا النُّسُورُ عَلَى الحَمَامْ
يَا مَنْ جَنَيْتَ عَلَى الْعُرُوبَةِ وَارْتَضَيْتَ لَهَا السَّقَامْ
وَحَطَمْتَ آمَالَ الشُّعُوبِ وَبعْتَ بالبَخْسِ الْحُطَامْ
مَاذَا حَصَدْتَ سِوَى الخَنَا وَقَوَارِعَ المَوْتِ الزُّؤَامْ
أَوْ مَا تَرَى هَذِي الْجُيُوشَ تُعِدُّ قَتْلَكَ وَ(النِّظَامْ)
صَوْتُ الضَّحَايَا وَالْمَنَايَا أَيْقَظَا تِلْكَ الرِّجَامْ
وَالثَّأْرُ يَصْرُخُ وَالنُّفُوسُ يَضِجُّ فِيهَا الإِنْتِقَامْ
شَعْبٌ سَيَسْقِيكَ الرَّدَى بِيَدَيْهِ لَا بِيَدِ الطَّغَامْ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني – ص ٢٢١

والقصيدة طويلة وصلت إلى سبعة وخمسين بيتًا، وجه فيها باشراحيل أصابع الاتهام إلى صدام حسين الذي وهب أمريكا فرصة ذهبيه للتدخل في شئون الدول العربية، وأتاح للرعاع - على حد تعبير باشراحيل- أن تمسك بزمام الأمور كما وصفه بالشخصية الدموية المتعطشة للدماء، والتي لا تتورع حتى عن قتل الأطفال قبل الوصول إلى الفطام

"التمثال"

وفي قصيدة "التمثال" يؤرخ باشراحيل للحظة نادرة في تاريخ العراق الحديث، هي لحظة سقوط تمثال "صدام حسين" فيما انتشر على صفحات الصحف بحادثة ساحة الفردوس التي شهدت تفكيك وتدمير تمثال "صدام حسين" البرونزي بالعاصمة بغداد في العام ٢٠٠٣ بواسطة جنود القوات المسلحة الأمريكية، وللحدث أهمية خاصة حيث رفع العلم الأمريكي على رأس التمثال، وسط فرحة وتهليل مجموعة من العراقيين، الأمر الذي يدل على مدى الذل والمهانة التي فرضت على هذا الشعب لعقود طويلة، ورغم أن رحيل صدام لم يكن هو الحل لمشاكل العراق فبعد رحيله حل محله ألف صدام دمروا العراق وأعادوه إلى عصور الظلام إلَّا أن الدلالة ظلت عالقة في الأذهان.

يقول د/ عبدالله باشراحيل[1]

هَا قَدْ هَوَى ذَلِكَ التِّمْثَالُ وَا أَسِفِي ... وَبَانَ بَعْدَ رَحِيلِ اللَّيْلِ كُلُّ خَفِي

الْمَوْتُ وَالصَّمْتُ وَالْأَجْدَاثُ بَاكِيَةٌ ... وَمَنْظَرٌ مِنْ دَمٍ قَانٍ وَمُقْتَرَفِ

أَصْدَاءُ صَرْصَرَةِ الْأَرْيَاحِ تَذَرَعُهَا ... أَشْبَاحُ هَوْلٍ تُخِيفُ النَّسْلَ فِي النُّطَفِ

ثم يقول:

أُمُّ الْقَنَابِلِ بُرْكَانٌ تَفَجَّرَ فِي ... أُمِّ الْحَضَارَاتِ (مِنْ بَغْدَادَ لِلنَّجَفِ)

---

[1] الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني - ص ٢٣٥

صَرْحُ(الرَّشِيدِ)قَدِ اِنْهَارَتْ مَعَالِمُهُ وَنَهْرُ (دِجْلَةَ) مُسْوَدٌّ مِنَ الْجِيَفِ

وفي ختام القصيدة يقول:

هَذَا هُوَ الشَّامِخُ التِّمْثَالُ وَا عَجَبِي قَدْ كَانَ يَرْقَى عَلَى الْأَفْلَاكِ وَالسَّجَفِ

تَحَطَّمَتْ رَهْبَةُ الْإِذْعَانِ وَاشْتَعَلَتْ كُلُّ الشُّمُوسِ وَزَالَ النِّيْرُ عَنْ كَلَفِ

وَوَدَّعَ الضَّيْمُ أَعْمَارًا مُنَضَّرَةً تَحَرَّرَتْ مِنْ إِسَارِ الذُّلِّ بالْأَنَفِ

تَذُبُّ عَنْ أَرْضِهَا الْأَغْيَارَ فِي صَخَبٍ وَتَسْتَحِثُّ خُطَى الْأَحْبَابِ فِي لَهَفِ

هَذَا(الْعِرَاقُ)جَحِيمُ الْقَهْرِ غَادَرَهُ فَهَلْ سَيَأْمَنُ بَعْدَ الْيَوْمِ لِلصُّدَفِ

نَهْرُ(الْفُرَاتِ)سَقَى الْأَحْقَابَ مِنْ قِدَم (بَغْدَادُ)لِمَّا يَزَلْ عَذْبًا لِمُغْتَرِفِ

هُبِّي إِلَى صَحْوَةِ الْأَيَّامِ وَابْتَدِعِي عَهْدًا وَلِيدًا رَفِيعًا جِدَّ مُخْتَلِفِ

بَغْدَادُ هَا قَدْ هَوَى (التِّمْثَالُ) مَنْحَطِمَا فَاسْتَمْطِرِي الْغَيْثَ بَعْدَ (الْجَدْبِ) وَالتَّلَفِ

"أكواخ الطين"
ثنائية المدينة القرية المدينة البادية
بين شاعر الكوخ محمود حسن إسماعيل
ودكتور عبد الله باشراحيل

وتردنا كلمة "كوخ" إلى شاعر الكوخ كما أطلق عليه "محمود حسن إسماعيل" لأنه أول من غنى للكوخ في ديوانه "أغاني الكوخ" حيث استقطر محمود إسماعيل شعره في هذا الديوان من أسطورة القرية فجعل الكوخ في قصيدة "الكوخ" موئلًا لخبايا النفس المطمورة ومحرابًا عابدًا، ورمزًا مجسدًا للبؤس الذي لا ترعاه المدينة، التي يلهيها زيف الغرب عن جوهرها وأصلها الموجود في الأكواخ، ورغم اختلاف البيئة بين شاعرنا د/ عبد الله باشراحيل وبين البيئة المصرية عند "محمود حسن اسماعيل"، إذ نشأ الأول في شبه الجزيرة العربية وبين ربوع المملكة العربية السعودية، وهي بيئة صحراوية بينما نشأ الأخر في بيئة مصرية، حيث ثنائية "القرية – المدينة" لكنني لا أرى فارقًا كبيرًا بين أن تكون الثنائية "القرية – المدينة" أو أن تكون "البادية- المدينة" فقد حملت البادية ذات الصفات البائسة للقرية المصرية؛ حيث قسوة العيش كما حملت ذات المثالية والنقاء والبراءة؛ فكانت كما كانت القرية عند محمود إسماعيل، ذلك الصدر الحاني الذي يهرع إليه باشراحيل رافضًا تعقد الحياة المدينية التي امتلأت بالزيف والخداع وظلم الإنسانية، والتي طفحت على حد وصف باشراحيل بالبنزين، فأباحت به النعمة للعصاة الذين جحدوها وأغرتهم بالتبذير والغرور والتكبر والجبروت؛ فتغربوا عن كل ما هو عربي وتركوا كل جذر يربطهم بالأرض حتى لغتهم التي ظهر فيها لحن القول، كما انتشر الجهل الذي مثل الجهل بالدين أبشع صوره، وامتلأت الكروش والبطون وخوت العقول، كل هذا على حساب أصحاب الأكواخ الذين يعانون الفقر والجوع.

لكن الله لا محالة سينتصر لهؤلاء المساكين الذين أصبحوا فرائس للجشع. لقد استنطق باشراحيل مفردات واقع أليم، شعر به وأحس وطأته التي يشعر بها كل عربي وأرعبه اتساع الهوة

بين عالم "مدن النفط" وعالم البادية بأكواخها المقفرة يقول د/ عبد الله باشراحيل: (١)

أَكْــوَاخَ الطِّــينْ أَوَمَا تَدْرِيــنْ؟
ظَهَــرَ التِّنِــينُ عَـلَى اللَّاهِـينْ
فِي وَعْدِ الرِّيحِ وَزَيْفِ اللِّينْ
حَلِمَ الْمَخْدُوعُ بِظِلِّ أَمِينْ
وَخُيوطُ الْوَهْمِ ظَلَامُ دَفِينْ
تَغْنَى الْأَيَّامُ بِكُلِّ ثَمِينْ
أَشْجَارٌ يَنْضَجُ فِيهَا التِّينْ
وَحُقُولُ تَطْ فَحُ بِالْبَنَزِينْ
كَذِبَ الْخَوَّانُ علَى الغَاوِينْ
وَأَبَاحَ النِّعْ مَةَ لِلْعَاصِينْ
مِنْ لُغَةِ الْأُمِّ إِلى التَّهْجِينْ
صَارَ التَّبْذِيرُ بِلَا تَقْنِينْ؟
فِي لَحْنِ القَوْلِ وَجَهْلِ الدِّينْ
لُغَةٌ عَرْجَاءُ بِلَا تَبْيِينْ
قُلْ لِلْمَجْدُودِ الدَّهْرُ يُدِينْ
أَكْوَاخَ الطِّينْ الدَّمْعُ سَخِينْ
مِنْ دَاءِ الفَقْر بِعُمْرِ غَبِينْ
أَنَفَاسُ الصَّبْر تَئِنُّ أَنِينْ
وَالْجُوعُ الْكَافِر سَوْفَ يَحِينْ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٢٦

المصابيح

عنوان ديوان من مفردة واحدة اختار الشاعر أن يأتي بها جمع تكسير لكلمة "مصباح" والمصباح هو السراج أو القنديل، ومن معانيه أيضًا في المعجم قدح كبير يشرب فيه كما أن من معانيه سنان الرمح.

لكن شاعرنا عنى في غالب الظن معنى السراج، أي ما يستضاء به، وأراد أن يعطي القارئ عدة مصابيح تضيء له الطريق، وفي لغة الإشارة اليوم عندما يريد الكاتب أن يعبر عن أن هناك فكرة جديدة قد أضاءت في عقله أو فكرة يود أن يلفت لها الانتباه ويركز عليها فإنه يرمز لها بـ (💡) وهو رمز للمصباح الكهربائي؛ فكأن الشاعر قد أراد أن يخبرنا أن هذه الومضات قد لاحت لخاطره في لحظات تأمل وتفكر، وقد نوه لهذا د/ إدريس بلمليح في مقدمته القصيرة لهذا الديوان فقال أن د/ عبد الله باشراحيل قد اعتمد على طريقة الومضة، التي يعرفها على أنها إشراقة فلسفية معتمدة على الحدس الذي يتأمل الإنسان والوجود، فيصل عبر هذا التأمل إلى الحقيقة الصافية دونما منطق أو استدلال يبررها، لقد تخير شاعرنا عدة معانٍ هي كنوز ومصابيح وومضات صافية إذا تأملها القارئ فسيجدها مفردات الحياة التي يحياها المرء وهي: " الحزن – الصدق – الغضب – الأخوة – الكرامة – العبقرية – القناعة – الخوف – الغربة – الحرية – الأمانة – الكبير – الوقت – النوم – الأمل – الحكمة – الجمال – العلم – البحر – النظام - العطر – سكينة – الصبر – الصفح – العدو – الغيب – الموسيقى – القدم – المستقبل – الجنة – المهابة – الجهل – الدنيا – الحيلة – الطفولة – الكآبة – اللا شيء".

والسؤال الذي يقفز للذهن الآن؛ هل هناك رابط بين هذه المعاني، أو لنقل بين هذه المفردات، وما الذي وضع هذه المعاني دون غيرها في دائرة اهتمام باشراحيل؟؟ وما الذي تمثله هذه المعاني له، ليتأملها وتفرض نفسها عليه فيفرد لها مقطوعات شعرية بل يخصص لها ديوانًا بأكمله؟ وهل قصد الشاعر المعنى المعجمي للإضاءة فقط؟ أم أن هناك من هذه المعاني ما أراد به "القدح الكبير" الذي يروي الظمأ، وينهل منه محب الحكمة حتى يرتوي؟ وهل فيها ما أراد به

الشاعر "سنان الرمح" التي تودي بحياة البشر؟

هذا ما ستجيب عليه الأوراق القادمة وتحليل هذه العتبات النصية الملهمة لهذا الديوان المتخصص، جاءت العتبة الأولى عن:

"الحزن" يقول(١)

الْحُزْنُ دُمُوعُ الْقَلْبِ وَلَيْسَ دُمُوعَ الْعَيْنْ
إمَّا انْبَعَثَتْ مِنْ حَرِّ الصَّدْرِ الْآهُ
وَأَغْضَتْ لِلْأَلَمِ الْأَهْدَابُ
سَتَعْرِفُ مَعْنَى الْحُزْنْ
وإِذَا مَا أُطْبِقَ ثَغْرُ الْبَوْحِ
وَصَارَ الصَّمْتُ نَجِيَّ اثْنَيْنْ

فالحزن أرق المشاعر الإنسانية، لا تعرفه إلا النفوس التي صهرتها تجارب الحياة والتي تتألم لأجل الآخر، وتتوجع نتيجة بؤس الإنسان وشقائه، ومشاركة الحزن لا تكون إلا لشقيق النفس وتوأم الروح، فالمرء لا يجاهر بحزن لغريب ولا تتساقط دموعه إلا على غال وأمام عزيز.

وفي الحزن تتساقط الأقنعة، وتنجلي معادن البشر، لقد رأى باشراحيل أن الحزن هو المعنى الأصدق، وأن أخف أنواعه ما ترجمته الدموع، وأخرجته الآه، أما أعنفها وأشدها ما ظل رهين المآقي، يقف كغصة تعز على الخروج وتأبى البوح.

وثنى باشراحيل بالصدق، وفي هذا تأكيد لما سبق وذكرت من أن الصدق قرين الحزن فالصدق مطهر النفوس وعلامة نبلها، منبته الفضيلة، يعلي صاحبه وينأى به عن مواطن الزلل والرزيلة والانحطاط.

يقول في مقطوعته الصدق (٢)

---

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٥٩

(٢) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٢٦

إِنَّهُ قَلْعَةُ النُّفُوسِ النَّبِيلَةْ
قَدْ أَذَابَ الزَّمَانُ فِيهِ نَدَى الدَّهْرِ
يُسَاقِي سَنَاءَ عُمْرِ الطُّفُولَةْ
فَإِذَا مَا اسْتَقَامَ عُودُ الْأَمَانِي
وَتَعَالَتْ إِلَى بُدُورٍ ظَلِيلَةْ
زَرَعَ الصِّدْقُ فِي النُّفُوسِ إِبَاءً
تَارِكًا لِلذُّبُولِ نَبْتَ الرَّذِيلَةْ
يَنْطِقُ الصِّدْقُ بَعْدَ لَأْيٍ وَيَعْلُوُ
وَهْوَ يَخْضَرُّ فِي تُرَابِ الْفَضِيلَةْ

الغضب:

عرفه باشراحيل وذكر أسبابه، وجاء تعريفه في كلمة واحدة جامعة وموجزة، تحمل خلاصة الكلم، وما يمكن أن نصف به ذلك الانفعال الذي حذرنا منه النبي المصطفى فعرف "الصرعة" على أنه من يملك نفسه عند الغضب، فالمرء إن غضب فقد البصيرة والرؤية، ولربما ظلم نفسه قبل ظلمه للآخر، فينساق به هذا الغضب إلى هوة عميقة، وربما بُني هذا الغضب على مجرد ظن غير صحيح، أو شك أو ريب غير مؤكد فيكون المرء بهذا قد ارتكب خطأً جديدًا، فبعض الظن إثم، لذا على المرء أن يخمد هذه الثورة التي تستبد بالنفس، أو على الأقل يحاول تهدئتها والتعامل معها بمنطق وعقلانية؛ ليصون نفسه قبل أن يصون الآخرين يقول باشراحيل:(١)

الغضب
شَرَارَةٌ
تَسْرِي إِلَى الْهَشِيمِ فِي النَّهَارِ وَالدَّيْجُورْ
وَالرِّيحُ إِذْ تَثُورْ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٦٠

وَيَصْرُخُ الْوَعِيدُ بالْوُعُودْ
فَتَدْمَعُ الْعُيُونُ بالْمَطَرْ
مِنْ ظَالِمٍ وَمَا ظَلَمْ
بِغَيْرِ مَا سَبَبْ
مِنْ سَوْءَةٍ تُثِيرُهَا الظُّنُونْ
تُجَسِّدُ الشُّكُوكَ وَالرِّيَبْ
مِنْ ثَوْرَةٍ تَضِيقُ بالنُّفُوسِ
كَيْ تَسْتَنْبتَ الْغَضَبْ
الخوف

يربط باشراحيل دائمًا كلمة الخوف بدوالٍ بعينها، كالموت والظلمة والغول والأشباح والسجن والجلاد، وهي دوالُ تدل على رؤيته للقمع، اذ يخرس أصوات الحق، ولقد تجلى موقفه من هذه القوى القمعية في القصائد التي كتبها عن العراق وعن صدام حسين كما ذكرت قبل قليل في تحليل العتبات النصية.

وهو في مقطوعته جعل للخوف رحمًا أزليًا يتناسل منه الموت فالجبن والصمت وخرس الأصوات، هي موت للإنسان الذي يحيا مسلوب الإرادة، يرهبه نباح كلاب الحي، ونباح الكلاب دالُ مرتبط في الأذهان بالسجن والجلاد والشرطة والعسكر.

يقول: (١)

الخوف
مِنْ نُطَفِ الْخَوْفِ وَمُضْغَتِهِ تَرْتَسِمُ الْأَعْمَارْ
وَالْمَوْتُ تَنَاسَلَ مِنْ رَحِمِ الْخَوْفِ الْأَزَلِيِّ
وَأَنْجَبَ أَبْنَاءً وَبَنَاتْ
مَا الْغُولُ النَّائِمُ فِي الظُّلُمَاتِ

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٦٤

وَصَوْتُ نُبَاحِ كِلَابِ الْحَيِّ
سِوَى أَسْمَاءٍ تَتَحَوَّلُ فِي الْأَذْهَانِ إِلَى أَشْبَاحْ
وَالْخَوْفُ إِذَا مَا شَبَّ اسْتَعْلَى وَاسْتَكْبَرْ
حَتَّى رَاحَ يُهَدِّدُ بالسِّجْنِ أَوِ الْجَلَّادْ
بِالشُّرْطَةِ وَالْعَسْكَرْ

ثم يستدعي حضور الخوف المرتبط بالقمع والقهر ومصادرة الرأي شعور النفس "بالغربة"، هذه النفس التي ترحل نحو المجهول، بعد أن ضاع منها الأمان وأفل الحب عن دنياها، فتغرب الإنسان عن إنسانيته، ولم يعد يحس بالمشاعر الإنسانية الفطرية التي جبل عليها، وتساوت عنده الضحكة مع الآه، ولحظات السهد والأرق مع متعة الراحة والحلم.

الغربة(١)

تَرْحَالُ النَّفْسِ إِلَى الْمَجْهُولْ
وَأُفُولُ الْحُبِّ عَنِ الدُّنْيَا
غُرْبَةْ
الضَّاحِكُ وَالْبَاكِي سِيَّانْ
وَالنَّائِمُ فِي أَحْدَاقِ السُّهْدِ
كَمَنْ يَسْكُنُ فِي الْأَحْلَامْ
مَا أَقْسَى أَنْ يَهَبَ الْقَلْبُ التَّحْنَانَ
وَيُسْقَى مِنْ مَاءِ النُّكْرَانْ
أَصْعَبُ آلَامِ الْغُرْبَةْ ..الْغُرْبَةُ فِي الْأَوْطَانْ

فالغربة عند د/ عبد الله لا تعني ترك الوطن أو النزوح لبلاد غريبة، إنما عنى بها الغربة النفسية، التي ترتحل فيها النفس إلى المجهول، وتسلك دروب وعرة للوصول إلى جوهر دائم التخفي يستعصي على الإدراك الكامل، ولا يحيط به عقل بشر إنه جوهر العلم والمعرفة، التي

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل ص ٢٦٤

يسعى فيها المرء أولًا لإدراك كينونته، فيصدمه شعوره بالنكران بعد كل ما وهب من العطاء والتحنان.

الأمانة

يقول المولى عز وجل في محكم التنزيل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

صدق الله العظيم

إنَّ الأمانة كما فسرها القرطبي والطبري وابن كثير ومعظم جمهور علماء المسلمين، هي جميع وظائف الدين، وقد روى عن الترمذي أبو عبد الله، حدثنا إسماعيل بن نصر عن صالح بن عبد الله عن محمد بن يزيد بن جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال (رسول الله صلى الله عليه وسلم:") قال الله تعالى لآدم يا آدم إني عرضت الأمانة على السماوات والأرض فلم تطقها، فهل أنت حاملها بما فيها، فقال: وما فيها يا رب؟ قال: إن حملتها أجرت وإن ضيعتها عذبت. فاحتملها بما فيها فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر، حتى أخرجه الشيطان منها".(١)

فالأمانة هي الفرائض التي ائتمن الله عليها العباد. من هذا المنطلق ينبعث باشراحيل في معظم شعره من فكر عقائدي، ويتشبث بتعاليم دينه في كل شاردة وواردة تعن لخياله الخصب، وفكره المنظم، لكنه يضفر هذا الموروث العربي الإسلامي بما انفتح عليه عقله من ثقافات وحضارات أخرى وأساطير مقروءة عن شعوب مغايرة

ففي هذه المقطوعة التي افتتحها باشراحيل بقوله: (٢)

---

(١) انظر تفسير القرطبي الجزء الرابع عشر ص ٢٣٠: ص ٢٥٧ .. وانظر تفسير الطبري الجزء التاسع عشر من ص ١٩٦: ٢٠٠، وانظر تفسير ابن كثير الجزء السادس ص ٤٨٨

(٢) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل ص ٢٦٦

عَجَزَتْ جِبَالُ الْأَرْضِ عَنْ حَمْلِ الْأَمَانَةْ
مَا ذَنْبُهُ الْإِنْسَانُ يَحْمِلُهَا
وَقَبْلًا كَانَ يَحْتَضِنُ الْخِيَانَةْ
قَدْ خَفَّ مَا فِي الْكَوْنِ وَزْنًا وَهْيَ إِذْ تَزْدَادُ ثُقْلًا

نراه يشير هنا إلى أسطورة "سيزيف"، الذي خان إلٰه الموت ثانتوس، فعاقبته باقي الآلهة، وتحكي الأسطورة الإغريقية أن "سيزيف" كان رجلًا ذكيًا وماكرًا جدًا، استطاع أن يخدع إلٰه الموت " ثانتوس" حين طلب منه أن يجرب الأصفاد والأقفال، وما إن جربها إلٰه الموت حتى قام سيزيف بتكبيله، وحين كبل "سيزيف" إلٰه الموت منع بذلك الناس أن تموت، وأغضب هذا الأمر الآلهة الأوليمبية، فأصدروا عليه حكمًا بأن يعيش حياة أبدية على أن يقضي "سيزيف" هذه الأزلية في عمل غير مجدٍ، ألا وهو دحرجة صخرة صعودًا إلى جبل حتى تعود للتدحرج نزولًا من جديد، مرارًا وتكرارًا، وبلا نهاية.(١)

و ثمة فارقٌ ضخمٌ بين أن يتمثل الإنسان أسطورةً ما، وبين أن يؤمن بها ويصدق مضامينها، فشاعرنا يبحث في دلالات هذه الأسطورة ويعي أبعادها الفلسفية، فينتقل من العلم بهذه الأساطير إلى التناول التحليلي لمضامينها ودلالتها، فيكتشف حينها أن هذه الأسطورة لم تكن شيئًا سوى تصور لتاريخ الإنسان نفسه ولكينونته ووجوده في هذا العالم، ليأتي الإسلام فيزيل عن كاهل هذا الإنسان نير الجهل، ويرتقي به إلى أعلى درجات السمو الإنساني من هنا فإن باشراحيل يكمل مقطوعته بقوله: (٢)

قَدْ خَفَّ مَا فِي الْكَوْنِ وَزْنًا وَهْيَ إِذْ تَزْدَادُ ثُقْلًا
يَرْتَضِيهَا الْحُرُّ كَيْ يَسْمُو بهَا
وَتَصِيرَ صَخْرَتُهَا رهانه

---

(١) انظر أسطورة سيزيف – ألبير كامو

(٢) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل ص ٢٦٦

ولتنظر – أعزك الله – إلى استخدامه كلمة الحر التي يلوح بها إلى عتبته النصية السابقة وكأنه يقول للقارئ إن هذه مواصفات الشخصية الإسلامية كما يرتضيها ويراها

الكبر

مَا كُنْتَ اللَّيْلَ لِتُطْفِئ وَهَجَ الشَّمْسْ
مَا أَنْتَ الْبَحْرُ لِتُغْرِقَ فِيكَ الْفُلْكْ
وَتَظُنُّ بِأَنَّكَ تَحْكُمُ نَاصِيَةَ الدَّهْرْ
تَخْتَالُ عَلَى مَاذَا؟
أَوَلَسْتَ النُّطْفَةَ فِي رَحِمِ الدُّنْيَا تَتَوَلَّدُ مِنْ أَمْشَاجِ النَّفْسْ؟
أنْتَ خُلِقْتَ كَكُلِّ الْخَلْقْ
تَبْكِي أَوْ تَضْحَكُ حِينَ يَثُورُ الْحِسّْ
أَوْ تَتَوَجَّعُ مِنْ آلَامِ الْجُرْحِ وَسُوءِ التَّحْسْ

هكذا افتتح باشراحيل كلامه عن "الكبر"، الذي نهانا عنه المولى على لسان سيدنا لقمان الحكيم حين نصح ابنه قائلًا:

" يٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ "

صدق الله العظيم

إن الكبر جهالة، ينحدر بها صاحبها إلى مستنقع شرور النفس، وشاعرنا هنا ينهى البشرية عن الوقوع فريسة لشرك الجهل، الذي يفضي إلى الكبر والذي يبدأ بثقة مفرطة في النفس، ثم الغرور فالتكبر فالكبر والعياذ بالله، الذي يشعر صاحبه بأنه من طينة أخرى غير التي خلق منها البشر، وأنه فوقهم. ويتساءل باشراحيل في السطور الآتية؛ ألم يخلق ذلك الذي أصيب بالكبر من نطفة جاءت إلى رحم الحياة من أمشاج النفس؟

ديوان "بماذا تتنبأ يا صديقي...؟ "
اختلاف المنطلق الفكري وطرق التناول

الديوان عنوان لقصيدة يخاطب فيها باشراحيل "علي أحمد سعيد" أو أدونيس وعنوان القصيدة والديوان هو سؤال وجهه أدونيس إلى د/ عبد الله باشراحيل فكانت الإجابة هي القصيدة التي حملت نفس اسم الديوان.

ورغم اختلاف المنطلقات الفكرية والأيديولوجيات بين شاعرنا الذي يتمسك بتراثه الثقافي بشدة ولديه مشروعه الخاص جدًا والمتفرد للدفاع عن الأصالة والحفاظ على الهوية الذي يتمثل في استخدام لغة رصينة جزلة، وصبها في قالب عمودي، في محاولة لاستعادة الماضي المضيء من حضاراتنا التي ملأت العالم نورًا وعلمًا.

وبين "أدونيس" الذي يعتبر مثالًا حيًا للانفتاح الكامل على الحضارات الغربية واستلهام فكرها، وأساطيرها بل والانطلاق منها كنقطة بدء لمشروعه الخاص في الكتابة، مؤمنًا - على حد تعبيره- بعالمية الفكر والثقافة والفن الذي لا يحده وطن وليس حكرًا على أمةٍ دون أخرى.

غير أنني أرى أن الوصول للعالمية يستدعي الانخراط الكامل في الخصوصية، فما رجح كفة "نجيب محفوظ" لأخذ "نوبل" سوى شدة انخراطه وذوبانه في أدق معالم الحارة المصرية، كما أن ما يميز مشروع شاعرنا، وما أجبر الغرب على الالتفات إلى شعره هو شدة تمسكه بتراثه وبحضارته، وأصالة كلمته، الأمر الذي دعا "جاك شيراك" رئيس فرنسا السابق إلى التوقف أمام هذا الإبداع ورفع القبعة له والإشادة بفرادته.

لكننا سنتتبع ما دار بين هذين الاتجاهين من حوار فكري شائق في محاولة لكل منهما لاستكناه جوهر فكر الآخر ليس لإقناعه، أو استقطابه لنهج نفس الطريقة أو ذات الفكر أو حتى لمحاولة التقريب بين وجهات النظر، ولكن للتعرف عليه واستيعابه، فكل منهما مدرك أن

له مناصريه ومكانته وغاياته وطريقته. وباشراحيل وإن كان يرفض التغريب وهجر التراث الأصيل الذي يحافظ على سمت الأمة فإنه لا يعارض قط التقلبات الفكرية التي تحدث جلجلة التجارب، ومحاولة التحرر لخلق الجدة والابتكار. وهو لثقته الشديدة في مشروعه وفكره ورؤيته لمفهوم الحداثة يعي جيدًا أنه تخطى حدود الحداثة ووصل لما بعد الحداثة، فمن لا يرى في شعر المتنبي آيات الحداثة، فمن المؤكد أنه لا يعي جيدًا كنه الحداثة الحقيقي ومفهومها الحق.

إن "الحداثة" تعني من وجهة نظري المتواضعة شعور المتلقي الدائم بالجدة والدهشة تجاه ما يقرأ، وينفتح عقله مع كل قراءة على معن جديد ورؤى مختلفة للنص، وهذا ما يجعل المتنبي حيًا إلى يومنا هذا، وما يجعل شعره ذخائر تفيض على أرواح الشعراء ليومنا بكل جديد، فالحداثة – أعزك الله– لم ولن تعني يومًا تمثل تيارات غربية لا ننتمي إليها، ولن تنتمي إلينا؛ لأنها عضو غريب ودخيل على جسد ثقافتنا العربية ويستعصي على الزراعة ؛ لأن الجسد سيلفظه حتمًا، قد يتجمل منه بأشياء ظاهرية من باب تكامل الحضارات، وتبادل وتلاقح الثقافات، ولكن أن نتمثله كليًا، فهذا إغراق في التغريب وسخف لا يقبله أحد

وقد لخص دكتور/ عبد الله باشراحيل رأيه في الحداثة الشعرية في مقال غاية في الوضوح والإيجاز والدقة بعنوان "أين أصبحت الحداثة اليوم؟" يقول فيه:

"وإذا كان لابد لكل الأمم من التقلبات الفكرية التي تحدث جلجلة التجارب ومحاولة التحرر بالفكر لابتكار الأفكار المنتجة للجدة والخلق، وطزاجة الأثر، فهذه تمثل ظاهرة من ظواهر الإرادة الإنسانية المتمردة على العصور والحقب، لخلق السمة والهوية والتاريخ تجسيدًا ورصدًا، لقراءة نفسية العصر وأحداثه، وخلقه، لكن الإرادة الفكرية العربية جنح بها ثلة من غلاة التمرد الفكري، لا للخلق والابتكار، بل لاتباع البدع المستوردة من عالم نريد أن نحتوى ثقافته بدلًا عنه، وهذا تعد لحقوق المبدع وسلب لهوية أمة ما، وليس تأثيرًا يحقق أثرًا يضاف إلى الفكر الشعري الذي يتلاقح، ولا ينتسب إلَّا إلى بيئته وجذوره وتراثه ومن خلال ذلك يستطيع خلق التميز والنضوج والتحليق في أجواء الأسئلة، والتحليل والتأمل؛ لإثبات نتائج الفرضيات

المنتجة للفكرة الناضجة بالعقل المؤثر طوعًا لا كرهًا..... إلخ."

إن إيمان باشراحيل بوجوب وجود غاية ورسالة للشعر، والاتصال المباشر بواقع الإنسان المعاصر بوجه عام والعربي بوجه خاص، ميز رؤيته ومشروعه الشعري في خضم موجات الحداثة المبهمة المعالم، والتي وصل بعضها إلى المناداة باللامحدود واللانهائي فلا يوجد مضمون أو موضوع للقصيدة ويسيطر عليها الغموض، وانعدام الرؤية لكثرة التكثيف، والإحالات لمرجعيات وعناصر غير عربية وغير مترسخة في الذاكرة الجمعية للأمة العربية والإسلامية.

يقول الأستاذ الدكتور "محمد مصطفى هدارة" في المقدمة الثانية لديوان الخوف للشاعر عبد الله باشراحيل متحدثًا عن هذا الموضوع:

"إن المضامين الثرية التي ينداح بها شعر" عبد الله باشراحيل في دوائر متصلة بواقع الإنسان المعاصر بوجه عام والإنسان العربي المعاصر بوجه خاص، تمتع العقل والوجدان معًا بما تحمل من رؤى وما تثيره من أفكار وأحاسيس،

وهذا الجانب الأصيل في الإبداع الأدبي نفتقده اليوم في هذيان ما يسمى بشعر الحداثة، فأصحابه يدّعون أن مجال إبداعهم هو "اللامحدود" و"اللانهائي"، ولهذا يسقط عندهم الغرض أو الموضوع أو المضمون في القصيدة، وذلك يسهم إلى حد بعيد في تكثيف الغموض الذي يلف ما يسمى بالشعر وما هو منه، إذ تتحول الكلمات إلى رموز مستغلقة، والعبارات إلى مجموعة من الدلالات المستعصية على الفهم يقول أدونيس في ذلك: "ولئن كان الوضوح طبيعيًا في الشعر القصصي أو العاطفي الخالص لأنه يهدف إلى التعبير عن فكرة محددة أو وضع محدد، فإن هذا الهدف لا مكان له في الشعر الحق، فالشاعر لا ينطلق من فكرة واضحة محددة، بل من حالة لا يعرفها هو نفسه وهذا يقذف به في جميع الاتجاهات حتى الأطراف القصوى، ويغير علاقته باللغة، فلا تعود اللغة وسيلة لإقامة العلاقات اليومية بينه وبين الآخرين "

وحقيقة الأمر أن الخوض في خضم هذه المسألة ومناقشة دفوع كل طرف وموقفه ليس موضوع هذه الدراسة، فهو موضوع طويل يحتاج إلى كتاب مستقل، غير أن أي فن من الفنون

لابد له من رسالة ومتلقٍ يعيه ويستوعب أبعاده ومضامينه وإلا لنفى هذا الاتجاه مصنفات أستاذهم "دي سوسير" في علم اللغة والتي تقوم في أصلها على أن لكل رسالة "مرسل ومستقبل ومضمون" وأنه لابد لوسيلة الاتصال وقنوات الاتصال من وعي هذا المضمون ومحاولة إيصال فحواه للمستقبل "المتلقي" أما تيار الفن للفن وعالمية الفن، وإن كنت لا أصادر وجودها؛ فلابد له من أطر وحدود تؤطر وتحدد ما يجب علينا كمبدعين أخذه بعين الاعتبار، وما يتوجب علينا لفظه وإبعاده حتى لا ننجرف لعوالم غربية لا ننتمي إليها، ولا تمثل الفكر العربي والثقافة العربية فنصطدم بمنتج أدبي غاية في الإبهام والإلغاز، لا يعدو أن يكون مقطعات مبعثرة وتراكيب مبهمة لخيال مريض.

ليقع القارئ العربي ضحية لهذه التيارات التي تدعي الحداثة وتتسربل برداء ضال مضلل ثم ندعي وجود هوة سحيقة سقط فيها الإبداع العربي، أو هوة عميقة بين المبدع والمتلقي، إن دور النقد العربي لا يمكن أن يكون خلق مبررات ومعانٍ لقصيدة منعدمة المعنى، إنما عرض رؤى مغايرة أمام المتلقى، والعثور على مناطق قد تخفى عليه وزوايا رؤية تخلق له مسارات جديدة للفهم والتحليل.

وأتركك عزيزي القارئ مع قصيدة بماذا تتنبأ يا صديقي لدكتور عبد الله باشراحيل لتستشف من وراء سطورها ما ترسخ من عبقرية الفهم لهذا الشاعر العربي الأصيل يقول:

سألني الصديق الشاعر أدونيس: "بماذا تتنبأ يا صديقي؟"، فقلت:

«قَلْعَةُ الْفِكْرِ الْمُخَبَّا
(قَالَتِ الْأَرْضُ)
بِمَاذَا يَا صَدِيقِي تَتَنَبَّا..؟»

***

قَدْ تَخَرَّصْتُ، تَدَبَّرْتُ، تَأَمَّلْتُ رَزَايَا الدَّهْرِ
فَاقْرَأْ رِحْلَةَ الْأَيَّامِ

إِنَّا مَا قَرَأْنَا الضَّيْمَ إِلَّا حِينَ أَدْمَى
ارْكَبِ الْبَرْقَ إِلَى التَّجْمِ
وَهَيِّئْ خَيْمَةَ الشَّمْسِ
وَخُذْنَا
قَدْ تَعِبْنَا وَالرِّضَا فِينَا تَأَبَّى
***
الرُّؤَى خَيْلُكَ
أَطْلِقْهَا
لِتَرْتَادَ الثَّوَانِيْ
وَالْجِبَالُ /الصَّخْرُ
مِنْ غُصْنِ الْمَدَى
فَاقْطِفْ لَنَا
وَرْدًا عُرُوبِيًّا وَأَبَّا
***
قَلْعَةُ الْفِكْرِ الْمُخَبَّا
(قَالَتِ الْأَرْضُ)
بِمَاذَا يَا صَدِيقِي
تَتَنَبَّا؟
***
أَتَنَبَّا يَا صَدِيقِي
أَنَّ عَصْرًا سَوْفَ يَأْتِي
يَتْرُكُ الْأَوْطَانَ نَهْبَا

والقصيدة تحمل العديد من الدلالات التي لا تخفى على القارئ الفطن؛ إذ يصف باشراحيل "أدونيس" بقلعة الفكر المخبا في دلالة أن فكره لا يمكن قراءته في قصائده فهو

كالأرض التي تخفى قشرتها الحمم والبراكين في داخلها المشحون، ولا تظهر غير القشرة التي تبدو لناظرها مبهمة غير واضحة المعالم، وبالقصيدة دلالات انجذاب باشراحيل لقصيدة المضمون وحرصه على كتابتها، إنه بعد أن "تدبر، وتأمل رزايا الدهر" ما أجبره على كتابة قضايا وطنه إلا الضيم الذى أدمى الإنسان المعاصر وأحاط به ولم يصل لحالة من الرضا عما أثمره من نتاج؛ إذ يواجه بمتلقٍ غافل عما أصبحنا عليه كشعوب عربية من التردي، وعدم مواكبة رحلة الحضارة التي تمضي بأقصى سرعة، تاركة وراءها من تخلف، وهو يلمز طريقة "أدونيس" في الكتابة ورؤاه التي لا تنشغل بكل هذا هائمة في ملكوت آخر، غير عابئة بما تراه من هموم وقضايا.

وانظر للجملة:

"فاقطف لنا وردًا عروبيًا وأبّا"

التي تحمل دعوة من الشاعر لصديقه للتمسك بالسمت العربي والأصالة والتراث،

ثم تكون نبوءته الصادمة، والتي بدأت تتحقق في الأعم الأغلب في عصرنا هذا، حيث أصبحنا في عصر تنهب فيه الأوطان، ثم رسالة أخرى تلخص ما تحمله هذه النفس المؤمنة المتشبثة بأصالتها ودينها وجوهر كينونتها العربية والإسلامية وإقرار الربوبية للخالق، المعز المذل والعودة لطريق الحق والهداية واستلهام جوهر الحضارة الإسلامية واستعادة رونقها يقول:

يَا صَدِيقِي
رُبَّمَا قَبْلَ رَحِيلِ الْعُمْرِ
إِنِّي أَتَنَبَّا:
«نَحنُ لَنْ نَغْدُو سَنَا ضَوْعِ الْمُنَى
إِنْ لَمْ نَكُنْ
عَبْدًا وَرَبَّا»

وقد توقفت في هذا الديوان أيضًا عند قصيدة "ثمن حرية عنترة" فالعتبة النصية لهذه

القصيدة والتي تتمثل في عنوانها تحمل العديد من الدلالات التي لابد من الوقوف عليها في منجز "عبد الله باشراحيل" لقد عرفت القصيدة الحديثة العديد من التقنيات السردية والدرامية.

وقد تناولت هذا الموضوع باستفاضة في بحث بعنوان "تعدد أنماط السرد في القصيدة العربية الحديثة.. بلند الحيدري نموذجًا"، وبرهنت على المقولة المعروفة في الأوساط والمدارس النقدية الحديثة، والتي مفادها أن الشاعر ليس هو الصوت الوحيد في النص، إنما هناك "الجوقة – الكورس- العنوان المرمز الدال – المفارقة بشتى أنماطها وصورها – المونتاج السينمائي – فن الكولاج والتخليط، أو ما يعرف بفن القص واللصق – الراوي كلي العلم –الراوي الغائب – الراوي المشارك – الراوي بضمير المتكلم"

كل هذا فضلًا عن تقنية القناع التي تعد من أهم هذه التقنيات، وهي تقنية استعملها الشاعر العربي المعاصر، تقوم على المزج بين شخصيتين إحداهما شخصية الشاعر والأخرى شخصية القناع؛ لتنجب العلاقة مولودًا ينحت شخصيته الفريدة من الجمع بين جينات الشخصيتين معًا، شخصية تنتمي لكليهما، لكن لا تنطبق على أي منهما شخصية تمتلك القدرة على اختراق الأزمنة بين الماضي والحاضر

ورغم حرص باشراحيل الدائم على التشبث بكل ما هو عربي أصيل دون الانبهار بأي مظهر مما يلهث خلفه رواد الحداثة والمتشدقون بها، وبرغم يقينه التام بأن في بلاغتنا العربية زادًا يكفي شعرنا ويفيض، إلَّا أنَّه انتقى بعضًا من هذه التقنيات بعنايةٍ شديدةٍ ووظفها بذكاءٍ نادرٍ في أماكنها، وكان مما شجعه على اختيار تقنية استلهام الرموز التراثية أنها تقنية تمكن من ربط النص والمبدع بالتراث، في ربط يحقق الجمع بين الأصالة والمعاصرة، ومعها يمكن المراوحة بين الغنائية والدرامية ويحمل النص أكثر من بعد رؤيوي؛ فيصبح بهذا نصًا حمال أوجه، قابلًا لتعدد التأويلات، وينتقل من المباشرة والتقرير إلى التصور، ومن أحادية الصوت إلى تعدد الشخوص، ويتشكل النص معها من مجموعة من بنى سردية ودلالية، يتخطى بها عملية "الشكل

والمضمون" –التي بني عليها النقد التقليدي– إلى أبعاد وتجليات تمنح القصيدة عمقًا وقيمًا جمالية وفنية متعددة.

أما توظيف الرمز التراثي في القصيدة الشعرية، فيعد امتدادًا للماضي في الحاضر وتغلغل للحاضر في عمق الماضي! لكن لماذا وقع اختيار باشراحيل على "عنترة بن شداد العبسي" دون غيره، إن شخصية عنترة بن شداد العبسي قد تجمع فيها كثير مما تفرق في أقرانها؛ فعنترة شاعر فارس انطوت نفسه على المروءة والنبل والحس الثوري ونزعته الفطرية إلى التحرر، وقد روى عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه أنشد قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلي الله عليه وسلم ما وُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة (١)

فشخصية عنترة متعددة الأبعاد فهو العاشق النبيل، والفارس الجسور والشاعر الملهم، وهو صوت القبيلة، وصوت الحقيقة، وصوت الخيال هو الساخط على أوضاع المجتمع وهو في ذات الوقت صوت الانتماء لهذا المجتمع، الذي نبذه فلم يهجره أو يتخلى عن الدفاع عنه، وقد اشتهر برجاحة العقل الذي تبدو أماراته في قوله "كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا، ولا أدخل موضعًا إلَّا أرى لي منه مخرجًا، وكنت أعتمد على الضعيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع، فأثني عليه فأقتله"

وهو شديد الاعتزاز بنفسه ترتفع في شعره الأنا العنترية لتصل حد النرجسية أحيانًا في مثل قوله:

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

وإن كان لوني أسودًا فخصائلي بياض ومن كفي يستنزل القطر

وقوله:

لئن أك أسودًا فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولـكن تـبعد الفحـشاء عـني كبعد الأرض عن جو السماء

فعنترة ليس مجرد رمز تراثي أو قناع يدل على علم بعينه، بل يدل استخدامه كرمز على مجموعة فريدة من القيم والمبادئ الإنسانية، أولها رفض الظلم والقمع ووجود الإرادة التي تصنع المستحيل، هو نموذج للانتصار على واقعٍ مريرٍ.

لهذه الأسباب وغيرها تخيره باشراحيل ليكون المخلص الذي يستنفر شهامته لينقذ العروبة من واقع مر ومستقبل مخيف يتربص بها، فكان اختياره منطقيًا وله مبرره لدي د/ عبد الله باشراحيل، لكن لنعود مرة أخرى للعنوان "ثمن حرية عنترة" ترى ما هو ثمن حرية عنترة إن النتيجة لعدم دفع هذا الثمن ستكون موجعة فشداد -وبرغم كل أجراس الخطر التي دقت وتدق ناقوسها- لم تستطع رؤيته أن تستبين سطوة الأعداء والويلات، وخلق الصمت والجبن ألف عنترة محبط في المحبطين، إن الأيديولوجيات التي ينطلق منها عبد الله باشراحيل والتي شكلت رؤيته للعالم هذه الرؤية التي حملت إرهاصات كثيرة تحقق بعضها، وما زال الباقي ينذر العرب أنه في حالة عدم توحد الصف العربي فإن الحشود الغربية بزعامة أمريكا ستتمكن من خلق مستقبل مقبض ومهين، مستقبل تحصد فيه أيدي المنون فوارس العرب، وفي القصيدة يظهر إيمان باشراحيل بفكرة المخلص، هذا الفارس المغوار المكبل بالقيود.

وفي ظني أن باشراحيل لا يعني فارس بعينه أو مخلص فرد كما حدث لكثير من الشعراء في فترة المد الاشتراكي وفي عهد وجود "جمال عبد الناصر" الذي حملت قسماته وسماته صورة المخلص للأمة العربية أو في القصائد الكثيرة في تراثنا الشعري التي نادت بعودة صلاح الدين الأيوبي هذا الفارس الذي يعيد مجد العروبة أو التي تغنت بنصرة المعتصم، وغيرها الكثير من صور "المخلص" إنما عنى باشراحيل استنهاض "الضمير العربي"، و برغم أن نفس د/ عبد الله باشراحيل ظلت منطوية على سوء ظن متأصل بالتاريخ العربي الذي كدس عوامل التفرقة بين

الدول العربية بدلًا من حشد عوامل الوحدة -وهي كثيرة- ولم يكف هذا التاريخ عن ممارسة قانونه الأزلي في عدم لم شمل العروبة.

غير أن باشراحيل على الطرف الآخر من الوعي آمن بأن إنسانيتنا ومجدنا وعودة ماضينا الزاهر، مرهونة بمعنى المقاومة لرياح الآخر التي تعصف من كل اتجاه، وكالعادة التي لم يتخل باشراحيل عنها في قصائده السابقة بل واللاحقة، وعلي طول منجزه الشعري تأتي دلالات الفخر مضفورة باستحضار صورة الفارس العربي بصفاته التي تفتح الذاكرة الجمعية للمتلقي على مخزونها الشعوري الحي، وذلك على نحو يوازي فيه بين صورة عنترة الفارس المغوار، والشاعر الفطن الأريب، فارس الفرسان في يوم الطعان وقلعة النصر المبين، وبين صورة فرسان مجمجمة ورائي تستبين، وطوفان شر لعين.

وباشراحيل ينادي سادة عبس، على رأسهم شداد والد عنترة الذي يرى بعينيه سطوة الأعداء والويلات والعار المهين وألف عنتر محبط ورياح تذرو العرب وتحصد المنون أرواحهم وهو وسادة عبس معه يتشحون بالخرس، حملت نفوسهم سمات الخنوع والجبن، وضيعوا عنترة الوغى؛ فكان الثمن ضياع العرب جميعًا.

وقد استخدم باشراحيل في هذه القصيدة العديد من الأساليب الإنشائية بطريقة لافتة ونوّع أيضًا في استخدام الضمائر، بين ضمائر المتكلم، والمخاطب فقد كثر في القصيدة استخدام الأمر للحث واستنهاض الهمم في مثل: "قم أيها العبسي، جرد سيفك، اصرع بالشمال وباليمين، أسرج له الخيل العراب"

وكذلك كثر استخدام النفي في مثل

"لا لست من يرعى الشياه.. لست من أصل العبيد..أنا لا أري سبأ وحمير.. لا أرى قحطان"

وكذلك استخدم د/ عبد الله النداء في مثل قوله.. "يا أيها المغوار يا شداد".

وسأتركك عزيزي المتلقي لتستمتع بالقصيدة كاملة، يقول باشراحيل في ثمن حرية عنترة:

"مِنْ سَالِفِ الدَّهْرِ الْجَنِينْ
مِنْ خَلْفِ أَسْوَارِ الْمَسَافَاتِ
الَّتِي اتَّسَعَتْ
وَمِنْ عَصْفِ الرِّيَاحِ
يَهُزُّ أَطْنَابَ الزَّمَانِ
وَيَمْتَطِي فَرَسَ الْأَنِينْ
تَبْكِي الطُّلُولُ دَفَائِنَ الْأَرْزَاءِ
وَالطَّيْفُ السَّرَابُ يَلُوحُ
تَظْهَرُ صُورَةُ الْعَبْسِيِّ ..حقًّا
إِنَّهُ الْإِنْسَانُ وَالْبَطَلُ الْجَسُورْ
قُمْ أَيُّهَا الْعَبْسِيُّ
جَرِّدْ سَيْفَكَ الْهِنْدِيَّ
وَاصْرَعْ بالشِّمَالِ وَبالْيَمِينْ
أَوَّاهُ عَنْتَرُ قَيْدُنَا يُدْمِي
كَأَنَّكَ لَا تَرَى برَكَ الدِّمَاءِ عَلَى الثَّرَى
وَالْقَتْلُ خَضَّبَ رِحْلَةَ الصَّمْتِ الدَّفِين
هَا كَهْفُ سُكَّانِ الظَّلَامِ
أَتَوا لِيسْتَلِبُوا الصَّبَاحَ مِنَ الْعُيُونْ
عُذْرًا إِذَنْ
لَا لَسْتَ مَنْ يَرْعَى الشِّيَاهَ
وَلَسْتَ مِنْ أَصْلِ الْعَبيدْ
يَا أَيُّهَا الْمِغْوَارُ
أَنْتَ الشَّاعِرُ الْفَطِنُ الْأَرِيبْ
(شَدَّادُ) وَالْإِبْنُ الشَّرِيدُ رِيَاحُهُ كَمْ تَرْتَجِيْكْ

هُوَ فَارِسُ الْفُرْسَانِ فِي يَوْمِ الطِّعَانِ
وَقَلْعَةُ النَّصْرِ الْمُبِينْ
قُلْ أَيْنَ شَدَّادٌ؟
وَأَيْنَ الْقَوْمُ مِنْ عَبْسٍ
فَفُرْسَانٌ مُجَمْجِمَةٌ وَرَائِي تَسْتَبِينْ
أَنَا لَا أَرَى سَبَأً وَحِمْيَرَ
لَا أَرَى قَحْطَانَ
أَوْ عَدْنَانَ
يَا شَدَّادُ، أَطْلِقْ لِينَكَ الْعَبْسِيَّ
إِنَّ الْبَرَّ ضَاقَ مِنَ الْحُشُودْ
هَذَا هُوَ الطُّوفَانُ وَالشَّرُ اللَّعِينْ
أَسْرِجْ لَهُ الْخَيْلَ الْعِرَابَ
فَسَطْوَةُ الْأَعْدَاءِ وَالْوَيْلَاتُ وَالْعَارُ الْمُهِينُ
وَأَلْفُ عَنْتَرَ مُحْبَطٌ فِي الْمُحْبَطِينْ
شَدَّادُ وَيْحَكَ !سَوْفَ تَذْرُونَا الرِّيَاحُ غَدًا
وَتَحْصُدُ أَهْلَنَا أَيْدِي الْمَنُونْ
إِنْ لَمْ نَفُكَّ الْفَارِسَ الْمِغْوَارَ مِنْ أَسْرِ الْقُيُودْ
فَالْوَقْتُ يَدْهَمُنَا
وَهَذِي الْخَيْلُ مُقْبِلَةٌ"(١)

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ٣٠٢- ٣٠٣

عمر
بلا زمن

يعود بنا باشراحيل مرة أخرى إلى العناوين القائمة على "التناقض" "عمر بلا زمن" عنوان يضعنا مباشرة في منطقة "المفارقة" على المستوى الدلالي، ولكي نستطيع أن نفهم هذه العتبة النصية دعنا عزيزي القارئ نتعرف معًا على معاني كَلمتَيْ "العمر"والزمن" ونحاول أن نقرأ معًا المعنى وراء اختيار هذه العتبة النصية.

"العمر" في معجم المعاني الجامع، كلمة من فعل "عمر"، ومنه "عمر المكان بالناس"، أي كان مسكونًا بهم ومنه عمرت الأرض وعمَّر الإنسان: أي عاش طويلًا، وعمَّر المكان: أصلحه، والعُمر "مدة الحياة" ويقال في القسم: لعمرك، بمعنى أقسم بعمرك.

وفي الطبيعة والفيزياء، العمر: زمن يستغرقه انحلال نصف عدد ذرات عنصر مشع. ومن معاني "عمر" في لسان العرب "الحياة". أمَّا الزمن: فهو عملية تقدم الأحداث بشكل مستمر وإلى أجل غير مسمى، بدءًا من الماضي ومرورًا بالحاضر حتى المستقبل، ولا رجعة فيه إن انقضى، والزمن هو مدة من الوقت قليلهُ أو كثيره.

فإن اعتمدنا هذه المعاني فيمكن أن تكون دلالة العنوان أن "العمر" الذي يعني عمر الشاعر مر بلا توالي الأحداث فيه أو سرق منه دون أن يشعر به، دون أن يتوقف عند أحداثه فيخلدها ويثبت لحظاتها المهمة في الذاكرة.

وكثيرا ما يُحَدِّثُ المرءُ نفسَه بأنَّ اللحظات المعاشة حقًا من عمره قليلة يمكن أن يحصيها ويعدها عدًا ويسترجعها بحسب أهمية أحداثها، وخلودها في الذاكرة، بينما يضيع أكثر عمر المرء دون أن يعي الإنسان مروره وانقضاءه، وكيف مر خلسة فضاع دون أن ينذرنا ودون أن نشعر، كيف سرق الزمن أعمارنا عامًا بعد عام، وكأننا عشنا بين اليقظة والحلم، وحين أفقنا كان العمر قد ولى، بلا رجعة وبغير توقف.

إنه عنوان يحتاج من المرء أن يشعر به ويتأمله ويستنطق حروفه ويقرأ ما وراءه

معتمدًا في العنوان وفي القصيدة على أصوله اللغوية، التي تجمع بين بلاغة اللغة القرآنية التي تتصاعد في حضورها تضمينًا وتناصًا على طول منجزه الشعري، وممارسته الإبداعية وهي الممارسة التي لم تفارق صقال لغة العظماء "المتنبي – أبي العلاء – الرافعي" وغيرهم بإيقاعها التركيبي المائز، بسطوة أنظمة القوافي وتكرارها الموسيقي وبالصور البديعة الممتلئة بتراسل الحواس وقلب العلاقات بين المجرد والمحسوس.

وإن استحضرنا ما قاله بعض المفكرين الإسلاميين الذين ربطوا بين الزمن وبين الوعي ومنهم "إبراهيم العاني" حين عَرّف الزمن بأنه "شيء أقل جزء منه يحتوي على جميع المدركات"(١) والإدراك هنا قرين الوعي.

واستحضرنا أيضًا تعريف "جيل دولوز" للزمان على أنه "وعي الذات"(٢) وهو أرقى أنواع الوعي، سندرك ما عناه باشراحيل بعنوانه، ويدعم هذا التحليل ما جاء في القصيدة التي يقول باشراحيل فيها:

عُمْرٌ بلَا زَمَنْ
يَغْنَى مِنَ الْأَلَمْ
يَضِيعُ فِي غَيَاهِبِ الْغُرُوبِ
فِي الدُّجَى السَّحِيقْ
فِي رَعْشَةِ الْيَدَيْنِ وَالْقَلَمْ
وَكُلَّمَا يَمُرُّ بالْأَمَلْ
يَحْسَبُهُ يَرْمُقُهُ
لَكِنَّهُ يُشِيحُ بالنَّظَرْ

---

(١) الزمن في الفكر الاسلامي – إبراهيم العاني – دار المنتخب العربي – بيروت – الطبعة الأولى ص ١٤٧

(٢) البرغسونية – جيل دولوز – تعريب أسامة الحاج – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٩٩٧ ص ١٢٥

صَانِعُهُ لَاطَفَهُ،
تَغَافَلَتْ عَيْنَاهُ،
غَابَ فِي الْقُرَى
مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ مَا أَتَى الْمُدُنْ
سَلَا الْأَمَلْ
إِنْ غَابَ أَو حَضَرْ(١)

لكن د/ عبد الله يعود لعادته في التشبث بالأمل، والحث على التفاؤل والمقاومة لكل الطاقات السلبية، التي قد تحبط النفس الإنسانية، لذا نجده في مقطع القصيدة الثاني يجد أن مهمته الرئيسة في هذه الحياة أن يصنع قلعة من الحروف يتحصن بها العقل العربي، ويعتصم بها الإنسان العربي؛ ليخلق أمة جديدة تمتد جذورها وأصولها في الماضي، وتورق وتثمر في المستقبل

يقول:
يُبْصِرُهُ يُشِيحُ مِثْلَمَا أَشَاحَ مِنْ زَمَنْ
وَقَدْ رَحَلْ
لِمَهْمَهٍ خِلْوٍ مِنَ الضَّجَرْ
يَبْنِي مِنَ الْحُرُوفِ قَلْعَةً
أَشَادَ حَوْلَهَا الْحُقُولَ،
يَغْرِسُ الْعُقُولَ فِي الْبُكُورْ
لِتُثْمِرَ الْغُرُوسُ أُمَّةً جَدِيدَةً
تحمي حِمَى التُّرَاثِ وَالْوَطَنْ
يَحْكُمُهَا الضَّمِيرُ وَاثِقًا وَقَدْ صَدَقْ
وَحِينَمَا أَشَادَ أُمَّةً أَتَى الْأَمَلْ
مُحَدِّقًا إِلَيْهِ ضَارِعًا يُقَبِّلُ الْجَبِينَ وَالْيَدَيْنْ

(١) المجموعة الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثالث ص ١٦٣ - ١٦٤

مُسْتَعْطِفًا إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ سَيِّدَ النُّجُومِ والقَمَرْ
فَمَا الخَبَرْ؟
بِالْأَمْسِ قَدْ أَشَاحَ بالنَّظَرْ
وَالْيَوْمَ يَعْتَذِرْ
مِنْ نِصْفِ قَرْنٍ
لَمْ يَكُنْ يَرَى الرَّبيعَ
وَالزُّهُورَ وَالشَّجَرْ
وَقَدْ أَتَى فِي هَدْأَةِ الْخَرِيفْ
وَالْعُمْرُ شَاخَ عُودُهُ وَقَدْ مَضَى
عَلَى عَصَاهُ يَتَّكِئْ
مُتَمْتِمًا يُحَدِّثُ الذُّهُولْ
مَا نَفْعُهُ الْأَمَلْ؟!
لِمَنْ شَبَابُهُ اكْتَهَلْ
يَقُولُ لِلْأَمَلْ:
مِنْ حَيْثُ جِئْتَ عُدْ
فَأَنْتَ مَنْ سَقَيْتَنِي السَّرَابَ مِنْ قِدَمْ
وَقَدْ صَنَعْتُ عَالَمِي
مِنَ الْحُرُوفِ وَالْفِكَرْ
فَلْتَرْتَحِلْ يَا عَاقِرَ الْفَطِنْ(١)

(١) المجموعة الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثالث ص ١٦٣ - ١٦٤

ديوان قرابين الوداع
محاولة لقراءة عتبة الغلاف
وربطها بعناوين القصائد في الديوان

تخير الشاعر للغلاف لوني "السماء والصحراء" أو "الماء والرمل" أي درجة من درجات الأزرق السماوي ودرجة من درجات البني الذهبي، وهو اختيار ذكي ينم عن رسالة تريد أن تعبر للمتلقي، فالرمال الجافة في البيئة القاحلة توحي بالعطش والجفاف والانتظار' انتظار الغيث الذي يجيء به الماء وتنعم به السماء مع المطر.

كما تخير صورة شديدة الإيحاء هي صورة لرجل في يده حقيبة ينسكب منها الماء ليروي ما حوله من صحراء جافة قاحلة، والقارئ لمقدمة الديوان سيجد ترابطًا غريبًا بين صورة الغلاف، وبين كلمات المقدمة فباشراحيل يجد نفسه ذلك الفارس الذي يحارب طواحين الهواء، في زمن عز فيه الفرسان وقل الأوفياء، فارس يحمل صفات العزة والفخر بالعروبة، ويتحصن بمكارم الأخلاق القرآنية منذ نعومة أظفاره، يؤرقه الهم العربي وزوال عز العروبة وانطماس معالم الحضارة العربية تحت وطأة الهوس بكل ما هو غربي، وينعي هذا المعنى في المقدمة ويودعه ويقدم له القربان بكلمات ملؤها الأسى الممزوج بالغضب جراء الظلم وانتشار العنصريات بين البشر، وكثرة الشللية والعرقية في الأوساط الثقافية المنوط بها الارتقاء بالبشر والبشرية.

يطالعنا في الغلاف أيضًا صورة "الحقيبة" وهي رمز آخر من رموز الوداع المرتبط بالعنوان رمز يدل بوضوح على الرحيل والغياب، وينساب الماء من هذه الحقيبة كرمز لما تركه الأديب من خير، وأن حقيبة أيامه الممتلئة بالماء ستحيي الصحراء لتنجو البشرية وهو ما يغري بإلقاء النظر، والتمعن في رحلة الشاعر، وليس من شك في أن الماء يرمز للكلمات الغالية التي سكبتها قريحته في رحلة بحثه عن الحق والعدل والحب.

يحمل الغلاف بعد هذا اسم الشاعر مسبوق بلقبه "دكتور" اعتزازًا منه بالعلم الذي حصله، وثقةً وافتخارًا بمشواره، وباشراحيل في مقدمته ينفي عن نفسه صفة النرجسية

والعنجهية التي اتهمه بها زائفو الفكر وبعض المدعين، فالاعتزاز بالنفس والثقة لا يقترنان بغرور أو كبر أو خيلاء، ثم يذيل الغلاف بالعنوان "قرابين الوداع"

"والقربان، بالضم: ما قُرِب إلى الله، عز وجل، وتقربت به، تقول منه: قربت لله قربانًا وتقرب إلى الله بشيء أي طلب به القربة عنده تعالى"(١)

وبهذا المعنى الموجود في معاجم اللغة على اختلافها يكون من مقاصد الشاعر بهذا الاسم الذي تخيره عنوانًا للديوان، أنه يقدم بكلماته قرابين يتقرب بها إلى الله عز وجل بغية استعطائه، ورغبة منه في التكفير عن ذنوبه، وقد تخير المفردة جمعًا لغزارة إنتاج كلماته، ويكون إضافتها لكلمة الوداع، لاعتقاده بقرب الأجل يدعم هذا المعنى ما ذكره في مقدمة الديوان إذ يقول:

"وإذا كنت اليوم على مشارف الرحيل إلى عالم التحول لأبدية الصمت، فذلك يوجب ألا أغادر صغيرة ولا كبيرة من إلهامي، إلا وقد أحصيتها في كتب مبينة"(٢)

لكن هل أراد الشاعر هذا المعنى فقط؟ إن المتجول بين قصائد الديوان سيجد باشراحيل يخصص عددًا غير قليل من قصائد الديوان لرثاء المقربين له كما في قصيدة "آه خالد" التي رثى فيها مدير مكتبه(٣)وقصيدة "رثاء الأستاذ الأديب"علي حسن العبادي"(٤) وقصيدة "رثاء خالتي الحبيبة "فائقة"(٥) وقصيدة "أبي"(٦) وقصيدة "شيرين أبو عاقلة"(٧)

---

(١) لسان العرب – للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري – المجلد الأول – دار الفكر للطباعة والنشر ودار صادر بيروت – الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ ص ٦٦٤

(٢) قرابين الوداع – دكتور عبد الله باشراحيل – كتابي للطباعة والنشر- الطبعة الأولى ٢٠٢٤ ص ٧

(٣) قرابين الوداع – دكتور عبد الله باشراحيل – كتابي للطباعة والنشر- الطبعة الأولى ٢٠٢٤ ص ٥٧

(٤) نفسه ص٨٦

(٥) نفسه ص١٠٧

(٦) نفسه ص١٣٧

(٧) نفسه ص١٤٨، ١٤٩

ولربما أراد الشاعر أن يقدم قربانًا للوداع حتى يكف عن أخذ الأحبة، ويكتب بيده صحائف الوداع أو أنه أطلق العنوان على الديوان لأنه ذاته عنوان إحدى قصائد الديوان والتي تسجل رحلة الإنسان التي يجابه فيها أيدي الفراق وأعوانه من الوشاة والمنافقين، كما أن القصيدة تسجل قصة حب كتب الفراق نهايتها، ويفتخر باشراحيل بأخلاقه، وزوده عن الأهل والأحبة، رغم كونه لا يجني مقابلًا لهذه الشهامة وذلك العطاء، وفي حقيقة الأمر إن شعر باشراحيل ممتلئ بمثل هذا الفخر، حتى أن الدارس يمكنه أن يجد في ذلك مادة خصبة للدراسة والتوقف المتأمل في دراسة تحت عنوان الأنا في شعر عبد الله باشراحيل، حيث نجد في شعره تناصًا وشعر المتنبي في مواضع كثيرة ومن هذا:

سيذكرني الأكارم بعد موتي بأني الصادق الشهم النبيل

ومنه أيضا:

وإن ضنوا علي بكل خير سأكرمهم ولست أنا البخيل

ويعدد الشاعر في هذه القصيدة ما قدمه من قرابين إلى قومه وما بذله من عطاء وجهد للحفاظ على وشائج المودة وحفظ العهود.

أما عن أولى قصائد الديوان فهي قصيدة "صمت الهموم"(١) والتي يبدأها الشاعر بفعل مضارع تسبقه "لا" الناهية يقول:

لا تشك عصرًا بغى جورًا وعدوانا ولا تعاتب تَكَفَّى الناسُ أحزانا

واشرب نجيع القذى بالدمع كأنه الخمر وانس الهم سكرانا

وعتبة العنوان تدلنا على بعض ما يحتويه مضمون القصيدة، والذي منه تكالب الأحزان وكثرتها وزخمها الذي لا يحتاج إلى شرح أو وصف ولا يخفى على عين بل تضيق به الصدور،

(١) قصيدة صمت الهموم – ديوان قرابين الوداع – عبد الله باشراحيل كتابي للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٢٤ ص

ويبقى الحل الوحيد له أن يبدأ الإنسان بنفسه ويجود بكل جميل داخله لعل ذلك يكون سببًا في أن يعود الزمان جميلًا كما كان.

لقد حمل العنوان نصيحة مقنعة، صرح بها الشاعر عبر سطور القصيدة حين قال: "والصمت أضحى ملاذًا للذي عانى". فالاحتماء بسكون الصمت يعطي راحة ولو وقتية حين تصطخب الأحداث ويعربد الوقت وينتشر الضيم.

تلي هذه القصيدةَ قصيدة بعنوان "ليل وصبح"(١) واستخدام الثنائيات المتضادة في عتبة العنوان تقنية مستخدمة في الشعر العربي على مدار عصوره المتتالية فهي تقنية تدعو المتلقى إلى الالتفات وتستدعي تعاقب الأسئلة التي تستجلي الأمر وتستوضح سبب اقتران هذه المتضادات.

وفي عتبة هذه القصيدة قدم الشاعر "الليل" على "الصبح" وقد قصد هذا التقديم؛ فالقصيدة تنعي زمن الخير فقد عربد الضيم في كل الأماكن، وأطبق الصمت على الشفاه، وصارت الأمصار خانعة ذليلة، وحلقت طيور الشؤم في السماوات، وخيم ليل الجور، لذا يختم الشاعر قصيدته بنداء متوسل للصباح الذي يرجوه أن يسرع بالإشراق، حتى ينقشع به هذا الليل البهيم ويجد الشاعر فيه بوصلته التي يهتدي بها في الطريق.

والمتنقل في جنبات الديوان سيجد العديد من العناوين التي ذيلت بالاستفهام مثل: قصائد "من..؟ - من المدان..؟ - أنت أم أنا..؟ - أينا..؟ - متى..؟ - أين العراق..؟ - لماذا تغيب..؟ - لماذا لم تجبني الريح...؟.....وغيرها"

وسأتوقف عند قصيدتي "أنت أم أنا..؟" و "أينا..؟". وهما قصيدتان غاية في العذوبة ورقة العتاب الممتزج بالحنين إلى الماضي وفيهما يقدم الشاعر قربان وداع "للحب" الذي مضى وانقضى.

---

(١) قصيدة ليل وصبح – ديوان قرابين الوداع ص ١٦

والمتلقي يستشعر حسًا شعريًا مغايرًا لدكتور/ عبد الله باشراحيل في قصائده الرومانسية، حيث يتخلى عن الجانب الخطابي المعهود الذي تفرضه الأغراض الشعرية الأخرى، والتي منها المدح أو الرثاء أو الفخر.

كما يلحظ القارئ قصر الدفقة الشعورية في هذه القصائد، والتي تكاد تكون ومضة خاطفة، ربما سبب هذا النشأة المتدينة للشاعر، والتي جعلت النزعة الدينية، نزعة مهيمنة على معظم شعره، والسؤال الذي اختاره باشراحيل للقصيدة مع ما يحمله من عتاب، أو إقرار أو ندم، يثير فضول المتلقى لمعرفة الإجابة، وتفاصيل القصة، وتحديد المذنب، فسؤال أنت أم أنا..؟ سؤال مثير للذهن يضع القارئ في دائرة الترقب، وانتظار الجواب الذي يأتي سريعًا مع الشطر الأول للقصيدة يقول باشراحيل:

قَلْبِي وَقَلْبُكِ غَادَرَا
وَتَيَتَّمَ الْحُبُّ الْكَبيرْ
هَلْ أَنْتِ أَمْ إِنِّي أَنَا
مَنْ شَاءَ أَنْ يَلْهُو
وَلَمْ يَدْرِ الْمَصِيرْ؟
حَاوَلْتُ أَنْ أُخْفِيكِ فِي قَلْبِي
وَحَالَتْ بَيْنَنَا رِيحٌ
وَعَانَدَ كُلُّ مَنْ فِينَا هَوَاهُ
وَدَرْبُنَا أَضْحَى عَسِيرْ
وَدَّعْتُ حُبَّكِ وَارْتَحَلْتُ
كَمَا أَرَدْتِ
وَبَعْدَنَا هَجَرَتْ أَحِبَّتَهَا الطُّيُورْ(١)

(١) قصيدة أنا أم أنت..؟ – ديوان قرابين الوداع ص ٣٧

في القصيدة نجد إقرارًا بذنب مشترك لكلا الحبيبين كانت نتيجته المؤلمة أن تيتم الحب الكبير

والقصيدة تستدعي للذهن على الفور قصيدة "طفل" لصلاح عبد الصبور الذي افتتح الباب للعديد من القصائد التي تنعي الحب الضائع وقد ألقى شاعرنا بالذنب الأكبر على الحبيبة، نجد هذا في قوله: ودعت حبك وارتحلت

كما أردت

فلم تكن لديه الرغبة في الرحيل، بل كان رحيله تلبية لرغبتها هي، وقد عزز الشاعر ذلك المعنى في قصيدة "أيُّنا" هذا السؤال الذي يحمل نفس معنى سؤال القصيدة السابقة يقول:

مَا تَغَيَّرْتُ
أَنْتِ مَنْ قَدْ تَغَيَّرْ
يَا بَقَايَا الْمُنَى
وَيَا طِيبَ عَنْبَرْ
حَدِّثِي الشَّوْقَ
أَيُّنَا كَانَ أَظْمَى؟
يَوْمَ كُنَّا عَلَى الْأَرَائِكِ نَسْهَرْ
كَمْ أُغَنِّيكِ وَالزُّهُورُ الْعَذَارَى
كُنَّ حَوْلِي كَأَنَّهَا وَمْضُ جَوْهَرْ
لَسْنَ يُغْرِينَنِي
وَإِنْ كُنَّ أَغْرَى
حِينَ كَانَ الْفُؤَادُ فِيكِ مُحَيَّرْ
أَنْتِ مَنْ أَنْتِ؟
مَنْ أَنَا؟
مَا التَّصَابِي؟

والْهَوَى أَيْنَ؟
أَيُّنَا مَنْ تَغَيَّرْ؟(١)

ومع ميل الشاعر في معظم عناوين الديوان بل وفي شعره عامة' إلى إصابة كبد المعنى من أقصر الطرق، فإننا لا نعدم بعض العناوين المراوغة والتي ترغم القارئ على استكناه جوهر المقصود من العنوان، ومن هذه القصائد قصيدة "إساءة" فقد جاء العنوان على عكس مضمون القصيدة التي تحمل معاني الندم والاعتذار والإقرار بالذنب.

يقول(٢)

إني دعـوت الله لــك من فضله أن يشملك
إني المسيء وأرتجي عفوًا فما مثلي مـلك
ما كان قصدي أن أسيء فكيف أغواني الحلك؟

وتكثر في الديوان العناوين التي يتلمس الشاعر بها طريقه إلى الله عز وجل ومنها على سبيل المثال لا الحصر قصائد "زماني – مالك الملك – يا الله – غير الله لا تسأل – يا رب – الله يكفي – خذنا بعفوك.... إلخ. وهذه العناوين وغيرها الكثير في الديوان التي جاءت في مدح رسولنا الكريم، ترسخ لذلك الجانب الأخلاقي والديني.

هذا البعد الذي دعا إليه باشراحيل في معظم كتاباته الشعرية والنثرية، والذي يدلنا بما لا يدع مجالًا للشك على عمق ثقافته الدينية، وتأثره البالغ بمكان نشأته "مكة المكرمة" مهبط الوحي وأرض النبوة كما تدلنا على اطلاعه الواسع والمتعمق على ذخائر الكتب الثقافية العربية والدينية، هذه الثقافة التي دعته لرفض العديد من سلبيات المجتمع، وعدم مجاراة البعض في الجري وراء كل مظهر أجنبي أو ترديد الدعاوى الجوفاء بمجاراة الغرب ومدارسه، التي كانت لها

---

(١) قصيدة أينا..؟ – ديوان قرابين الوداع ص ٤٨

(٢) قصيدة إساءة- نفسه ص ٤٩

ظروف نشأة مغايرة ومتباعدة كل البعد عن جذورنا وحضارتنا وطبائعنا العربية والاسلامية، من هنا كان التمسك بباب الله الذي لا يرد سائل ولا يخيب عنده الرجاء؛ ليباعد الله بيننا وبين ما في هذا المجتمع من الشرور والمسالب فشاعرنا يشعر بغربته في هذا المجتمع الذي أصيب بالخور والعجز ووصم بالاستسلام والخنوع، فالعرب المعاصرون ابتعدوا عن حضاراتهم هذه الحضارات التي استقى منها الغرب وبنى عليها نهضته التي يتباهى بها الآن، وشاعرنا يحلم بأن تعود الإنسانية التي ترتفع بالإنسان من مصاف البشر إلى حضرة الملائكة نجد ذلك في عنوان قصيدة "إنسان ملك" والتي يتمنى فيها وفي بيتها الأخير على وجه التحديد، أن تطغى الإنسانية على الجوانب البشرية المادية فنكون كالملائكة الكرام البررة، وشاعرنا يحمل في جوانبه هذه الصفات التي جعلته يرجو لإنسان هذا العصر الخير كله ويشفق عليه ويدعو الله ليزيح عنه الضجر والكدر.

يقول د/ باشراحيل في مقطوعة بعنوان يا رب: (١)

يا رب فرج على من سامه الضجر ولتسعد الناس سعدًا ما به كدر
كل دعاك وأنت المستجيب وما خاب الرجاء ومنك الخير ينتشر
يا مالك الملك والأكوان أجمعها نحن الضعاف وإنك أنت مقتدر

وبتصفح الديوان وجدت دعاءً آخر في آخر صفحاته بنفس العنوان يا رب.. ينهيه الشاعر بدعاء صادق أن يبدل الله خير الأرض بشرها، ويكرر النداء مؤكدًا الرجاء. وفي هذا تأكيد لكل ما سبق ذكره من ترسيخ هذا الجانب الأخلاقي والديني في شعر عبد الله باشراحيل، والذي جذب انتباه الدارسين الأكاديميين لدراسة هذا الموضوع والتبحر فيه.

وفي هذه الجولة الماتعة مع صفحات ديوان قرابين الوداع نجد بعض العناوين التي تأخذ المتلقي لتصور البيئة التي نشأ فيها شاعرنا، وما فيها من أخلاقيات، وما تحويها من مفردات نجد

(١) يا رب – ديوان قرابين الوداع ص ٩٦

هذا في عنوان قصيدة "الإبل" التي يصور لنا فيها الشاعر، جمال هذا المخلوق الصبور الدؤوب الذي اعتاد السير في مجاهل الصحراء، ملؤه الصبر والود والشموخ، يعطي ولا ينتظر لعطائه مقابلًا، فالإبل هي سفينة الصحراء التي تحمل راكبها لبر الأمان والتي كانت تغشى الحروب والوغي وتحمل الجند وتنقل المتاع.

والشاعر بهذا العنوان يعطى تصورًا لما يمكن للمتلقي أن يتكهنه عن عزة وإباء الرجل العربي، الذي نشأ في شبه الجزيرة العربية، حيث سحر الصحراء ومفرداتها، من جبال و إبل، وما اعتاده أهلها من كرم ونجدة وشهامة ونبل

كما نجد أيضًا العديد من العناوين ما نقرأ من ورائها مشاركة الشاعر الوجدانية وعنايته الشديدة بالقضايا القومية والعربية، والتي رسم بها صورة للمتغيرات العالمية والإقليمية من هذه القصائد "المصير العربي، شرع طغاة صهيون، ألم مكي، المجد للغرب – شيرين أبو عاقلة – نهاية ترامب – الرعب لأمريكا – طوفان الأقصى.... إلخ".

وفي الحقيقة، فإنه بقراءة هذه القصائد وغيرها الكثير في الأعمال الكاملة لشاعرنا، سنجد ملامح لقصيدة ما يمكن أن نطلق عليه "قصيدة المشروع القومي"، التي تظهر فيها حيرة الفارس الذي انطلقت قصيدته باحثة عن ملجأ والتي نجد فيها أيضًا شعورًا واضحًا بالذنب، الذي تحمل وصمته كل الشعوب التي ترتضي المهانة والذل ولا تسعى لاتخاذ مكانها في ركب الحضارة وتسوغ بصمتها وخنوعها للغرب حقه في الاستهانة بهذه الشعوب.

تتناثر في ثنايا ديوان قرابين الوداع أيضًا العديد من أبيات الحكمة، وما فيها من تناص واضح مع جده المتنبي، وحتى جماليات قصيدة شوقي ذلك التناص الحر ما بين الأنساق السابقة والحاضرة، لا يمكننا حصره في علاقة وحيدة البعد، فقد انداح الحاجز ما بين الذات والموضوع، غير أن دوال العزة والشموخ والشجاعة ومدلولاتها تنسج شبكة حضورها وهيمنتها على قصيدة باشراحيل.

بين العشق العذري والغزل الصريح

جولة في قصائد

قصة عشق – العاشقتان – ضمة عمر

لا يكف باشراحيل عن متابعة الكبار، ولا يمل من استدعاء عيون الشعر العربي لحاضره الشعري، ولذهن المتلقي الذي يستقطب إحساسه وشعوره وفكره؛ لينحاز إلى تراثه الشعري ويستحضر ماضي أجداده العظام، وهو في قصائد "قصة عشق – العاشقتان – ضمة عمر" يعرج على صنف من الشعر العربي عُرِف في العصر الجاهلي وعاود الازدهار في العصر الأموي هو "الغزل الصريح"، والغزل الصريح غرض شعري معروف يتغزل فيه الشاعر بمفاتن المرأة الجسدية، ويؤمن باللهو في الحب وفيه يعدد الشاعر أسماء محبوباته، وينتقل من محبوبة إلى أخرى فلا يكتفي بواحدة.

وقد ظهر في العصر الجاهلي، وخفت نجمه في صدر الإسلام والخلافة الراشدة ليلمع من جديد في العصر الأموي، حيث أضحت الحواضر الإسلامية مراكز حضارية وثقافية، كبغداد، والكوفة، ودمشق، ومكة، والمدينة، وبرز عدد من الشعراء الذين تميزوا في هذا الغرض الشعري كعمر بن أبي ربيعة الذي عادة ما كانت تُظهر قصائده صورة العاشق المطلوب لا الطالب.

لكن كيف حاكى باشراحيل أجداده في هذا النوع؟ وهو الذي يتشبث بالحس الأخلاقي الموروث الذي ظل يمثل مبدأ الواقع في مسيرة "عبد الله باشراحيل" الشعرية.

بينما يظل مبدأ الرغبة الذي ينطوي على تجليات عديدة للعلاقة بالمرأة، واضحًا في قصائد تمثل فيها باشراحيل بشعراء الغزل الصريح، ونحى منحاهم.

يقول باشراحيل في قصيدة "قص عشق":

تَأْتِينِي قَبْلَ ضِرَامِ الشَّوْقْ
تَلْهَجُ باللَّهْفَةِ وَالْخَوْفْ

تَتَلَفَّتُ لِلْخَلْفْ
كَالظَّبْيِ وَقَدْ أَفَلَتَ مِنْ قَيْدِ الْأَسْرْ
أَلْقَتْ فِي حِضْنِي الْعُمْرْ
وَبَكَتْ مِنْ حَرِّ الْعِشْقْ
ذَابَ كِلَانَا فِي غَمَرَاتِ الْحُلْمِ
نَسِينَا الْوَقْتَ
تَحَدَّثَ فِينَا الصَّمْتُ
بِلُغَةِ الْحِسِّ
وَحَدَّق فِينَا اللَّمْسُ
تَعَرَّى الصُّبْحُ أَمَامَ اللَّيْلِ
يُمَزِّقُ سُجُفَ الظُّلْمَةْ
وَتَطُولُ النَّشْوَةُ
تَخْتَلِطُ ثَوَانِينَا تَأْخُذُنَا سِنَةُ الْمُتْعَةْ
تَرْتَعِشُ أَيَادِينَا
وَوَجِيبُ الْأَنْفَاسِ الْغَرْقَى شَلَّالُ النَّهْرْ
قَطَفَتْ مِنْ رَوْضِي التَّمْرْ
وَقَطَفْتُ أَنَا أَبْكَارَ الْوَرْدِ
وَحِينَ أفَقنَا أَشْفَقْنَا أَنْ نَصْحُوَ مِنْ وَسَنِ الْعِشْقْ (١)

والمقطع ممتلئ بأفعال الحركة الدالة على تدافع الفعل، وفورة حركة الجسدين اللذين يندفعان إلى الذروة التي لا يبقى بعدها سوى الانحدار عنها، ويوازي هذه الأفعال الممتلئة بالحركة في كلمات مثل "تلهج – تتلفت – تعرى الصبح – يمزق... إلخ". ما نلمحه من الحسية في التصوير، الذي يجمع بين الأحاسيس السمعية والبصرية واللمسية في احتفالية كرنفالية، ولا

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ٢٦

غرابة في قصر الأسطر الذي دعا إليه التدافع الذي ألمحنا إليه قبل قليل.

أما في قصيدة "العاشقتان" فإن باشراحيل يتتبع تقاليد القدامى في كتابة هذا الغرض الشعري، حيث يعدد الشاعر أسماء محبوباته، ويتنقل من محبوبة إلى أخرى، فلا يكتفي بواحدة، وفي هذه القصيدة تعرض عاشقتان حبهما على الشاعر، أولهما هي دونا، والثانية ديمة، ويتباريان في لفت انتباه الشاعر، الذي يعلم ويعي جيدًا ما يحيكان من مكائد للفوز به، وهو بعد أن يصف كلتيهما بصفات حسية كالقد الفارع، والوله الحائر في الأحداق... إلخ.مقتفيًا أثر "عمر بن أبي ربيعة"، فهو العاشق المطلوب الذي تتبارى النساء عليه وتعرض عليه مفاتنها ويقمن بإغوائه وعليه أن يختار.

يقول باشراحيل:

قَالَتْ (دِيمَةُ) لَوْ يَخْتَارُ سِوَايَ
سَأُصْلِيهِ ضِرَامَ الْوَجْدْ.
قَالَتْ(دُونَا :)وَأَنَا مِثْلُكِ أَفْعَلُ
فَتَعَالَيْ نَسْأَلُهُ مَنْ مِنَّا يَخْتَارْ؟
نُغْرِيهِ فَلِلْأُنْثَى كَيْدٌ وَدَهَاءُ
هُوَ كَانَ قَرِيبًا يَسْمَعُ عَنْ نَبْسِ الْأَسْرَارْ
فَذَكَاءُ الْعَقْلِ ضِيَاءٌ يَسْبَحُ كَالْأَنْهَارْ
يَتَقَطَّرُ مِنْ دَمَعَاتِ الْغَيْمِ
جَوَابًا إِثْرَ سُؤَالْ
سَأَلَاهُ فَقَالَ:
لِمَ لَا يَمْلِكُ رَجُلٌ أَنْ يَهْوَى امْرَأَتَيْنْ؟ (١)

وفي قصيدة "ضمة عمر" وبعد أن يعدد المحاسن الجسدية للحبيبة؛ فهي كوجه الثلج وخد

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ١٥١

التفاح.... إلخ. فإنه مع نهاية القصيدة يدعو الحبيبة لأن تريح هذا العاشق الوله من حر الشوق يقول:

قَبِّلْني
احْضِنِي
واتْرُكْ أنفاسَكَ تَلهُو بينَ الصَّدرِ وبينَ الجِيدِ
وبينَ الثَّغْرْ
حتى نَبلُغَ أسرارَ اللَّذةِ
فِي ضَمّةِ عُمْرْ(١)

وبرغم غرام باشراحيل بهذا النوع من الغزل وبراعته فيه إلا أنه كتب فرائد مائزة في الغزل العذري، الذي يصل فيه الحبيب حد العشق الخالص، حيث ينداح الحد الفاصل بين العذري والحسي وتمتلئ القصائد بالوجد وتصرخ بالشوق للحبيب.

ومن القصائد الرائعة التي كتبها باشراحيل في "المجلد الثالث" من مجموعته الكاملة نجد قصيدة بعنوان "بنت السنا" وتأخذنا العتبة النصية لهذه القصيدة إلى نورانية الإحساس وشفافية الحالة الوجدانية المسيطرة؛ إذ يبدأ الشاعر بمناداة الحبيبة "ياليل" وقد يكون "ليلي" هو اسم المعشوقة الحقيقي، وقد يكون رمزًا لكل حبيبة بعيدة المنال؛ إذ إن الذاكرة العربية للمتلقي العربي ستفتح نوافذها على الفور على أشهر قصص العشق التي عرفها البشر، والتي انتشرت في معظم الثقافات العربية وغير العربية لترمز لكل حب مستحيل، إنها قصة المجنون، مجنون ليلي، قيس بن الملوح وحبيبته "ليلى العامرية" اللذان صارا مضرب الأمثال في العشق حين تحول الأقدار بين التقاء العاشقين، وسواء أكان "قيس بن الملوح" شخصية حقيقية أم نسجًا من الخيال كما قال بهذا العميد "طه حسين" في كتابه حديث الأربعاء، لكنه سيظل حاضرًا وبقوة في الضمير والذاكرة العربية، وخيال الشعراء والأدباء على مر العصور، وستظل قصته وليلي خالدة

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ١٩٩

في الإرث الشعبي والوجدان العام، سيظل قيس هو الحبيب الذي بذل الغالي والثمين، لينال محبوبته وفي قصيدة د/ عبد الله باشراحيل استحضار لهذا العاشق الوله المحب يقول:

لَوْ تَدْرِينَ عَنْ شَوْقِي
وَعَنْ حُبِّي الدَّفِينْ
أَنَا مَنْ رَآكِ
كَأَنَّكِ الْحُلُمُ الشَّهِيُّ
بِدَوْحَةٍ خَضْرَاءَ، يَا شَقْرَاءُ
فِي ثَوْبِ الْمَسَاءْ
تَسْتَافُ مِنْ نَسَمِ الْهَوَى
مِنْ بَرْدِ أَنْفَاسِ الشَّذَى
كَالْمُهْرَةِ الْجَذْلَى عَلَى ظَهْرِ الْمَدَى
وَأَنَا أُحَدِّقُ لِلنَّدَى
يَسْقِي خُدُودَكِ وَالْجَبِينْ
يَا دِيمَتِي الْأَحْلَى عَلَى جَبَلِ السِّنِينْ
سَيْفَانِ فِي عَيْنَيْكِ حِينَ تُجَرِّدِينَ
فَمَا عَلَيْكِ إِذَا جَرَحْتِ، وَإِنْ طَعَنْتِ؛
فَقَدْ خُلِقْتِ تُقَتِّلِينْ
مَا زِلْتِ فِي شَرْخِ الصِّبَا
مِنْ نَبْتِ أَزْهَارِ الرُّبَى
وَفُتُونِ كُلِّ الْأَوَّلِينْ
فَلَكِ الْجَمَالُ، لَكِ الدَّلَالُ، لَكِ الْجَلَالْ
وَلَكِ الْفُتُونُ لَكِ الْكَمَالْ(١)

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ١٧٦

وكل ما في ظاهر المقطع يتشوق إلى الحبيبة المنتظرة، و يسترجي حضورها، وإلا ستقرع الحروب طبولها، ويتنافس الفرسان لنيل ود هذه الحبيبة؛ لكن الممعن في المعنى الكامن تحت الظاهر سيجد باشراحيل يتحدث متشوقًا لحضور الشعر، لحضور القصيدة، وزيارة الوحي ومهبط الكلم بلغته العربية الرصينة، وقوافيها ووزنها الخليلي، يعضد هذا التلقي نفور الحبيبة وإعراضها وغلو مهرها ليرتد هذا الامتناع على تأبي الشعر واستعصائه، لكن لا سبيل أمام هذا العاشق إلا أن يغليها المهر وأن يهبها ما تحب حتى وإن قطف ضوء المستحيل يقول:

هَذَا الْمُحِبُّ يُرِيدُكِ السَّكَنَ الْأَمِينْ
أَوَ تَقْبَلِينَ به قَرِينْ؟
رَدَّتْ عَلَى مَلَأِ النُّجُومْ
إِنِّي الْمَلِيكَةُ وَالْمَلِيكَةُ مَهْرُهَا مَهْرٌ عَظِيمْ
مَهْرِي يَكُونُ الْبَدْرَ فِي يَدِيَ الشِّمَالْ
وَالشَّمْسُ فِي يَدِيَ الْيَمِينْ
فَأَجَابَهَا إِنِّي ارْتَضَيْتُ
وَسَوْفَ أُهْدِيكِ الْمُنَى
مِنْ قَطْفِ ضَوْءِ الْمُسْتَحِيلْ
لَيْلَايَ إِنْ شِئْتِ الْمَزِيدَ
أَزِيدُ عَمَّا تَطْلُبِينْ
قَالَتْ جَمِيعُكَ مَا أُرِيدُ(١)

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ١٧٨

شموس مظلمة
دلالات الشمس وحضورها الطاغي
في عتبة العناوين

ولقد كان لكوكب الشمس حضور طاغ في قصائد عديدة على طول مشوار باشراحيل الشعري وغزارة إنتاجه وتنوعه، وحتمًا كان لظهورها الوقاد في سماء أرض الجزيرة العربية مصدر لإلهام شاعر فذ كشاعرنا، كما كانت من قبل مصدر إلهام كبير لشاعره الأثير المتنبي، والعناوين التي تحمل مفردة الشمس في منجز شاعرنا كثيرة منها "الشمس"، و "وطن الشمس" و "شموس الفكر" و "قلائد الشمس"، "عطر الشمس"، "شمس الذهب" ،"البحث عن شمس"، "حبيبتي شمسي"، "شموس الشباب"، "البس بريق الشمس"

ويثير الجذر اللغوي "شمس" في المعاجم العربية إلى معاني التلون وقلة الاستقرار، وسميت الشمس شمسًا لأنها غير مستقرة فهي متحركة أبدًا، والمرأة الشموس التي تنفر من الريبة أو التي لا تطالع الرجال، والرجل الشموس الذي لا يستقر على خلق، عسر في عداوته، شديد الخلاف على من عانده والشمس ضرب من القلائد.

من هنا نستطيع أن ندرك شيئًا من أسرار تقديس العرب للشمس، حتى أنهم كانوا يسجدون لها كما حكاه القرآن الكريم على لسان الهدهد في قوله عز وجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ" صدق الله العظيم

ولقد بحثت في أوراق هذا الديوان عن قصيدة تحمل نفس العتبة النصية لعنوان هذا الديوان، فلم أجد فيه قصيدة بعنوان شموس مظلمة.

واستوقفتني عتبة العنوان كثيرًا قبل الولوج إلى قصائد الديوان، وبعيدًا عما تحمله من ثنائية متضادة تثير الاندهاش والترقب، فإنني وقد أصبحت هذا القارئ المتمرس بين يدي قصيدة باشراحيل والذي اعتاد كسر أفق التوقع فقد تجاوزت هذا التناقض بين طرفَي العنوان

لأبحث عما هو أعمق.

وأنت أيضًا عزيزي القارئ، لم تعد في حاجة إلى أن ألمح إليك ما يمكن أن يستحضره عقلك لتخيل شموس مظلمة، من استحضار لمعاني الظلمة والبرودة، وغياب الدفء والأمن، واتضاح زوايا الرؤية في وجود ضوء الشمس الذي يجلي كل ظلمة، وما قد ينتج عن غياب هذا الضوء من انبهام معالم الكون وتخبط المخلوقات، وانتشار الخوف والهلع والذعر، ولن أفسر لك أيضًا لماذا جمع الشاعر مفردة شموس؟ لأنك أفطن من أن تذهب بزاوية التلقي لاستحضار المعنى الأصلي للمفردة. بل سأبحث معك عن سبب إطلاق هذا العنوان على مجموعة متفردة من القصائد حواها هذا الديوان.

لتستحضر معي عزيزي القارئ صورة الشاعر هذا "الكائن الليلي الملهم" والمقترن دائمًا بدلالة الارتحال عن الآخرين، والإسراء ليلًا في ظلام الوجود، لتمضي به الأنا إلى مكان بعيد " على شرفة في ربوع القمر" باحثة عن لحظة كشف تخلق أحلاما علوية واستمع إليه عزيزي القارئ يغني:

عَلَى شُرْفَةٍ فِي رُبُوعِ الْقَمَرْ
وَقَفْتُ أُغَنِّي
فَتَنْسَابُ أُغْنِيَةٌ مِنْ ضَبَابٍ،
تَسَرْبَلَ بالضَّوْءِ فَوْقَ اللَّيَالِي
وَأَرْسَلْتُ بَعْضَ تَرَاتِيلِ نَايِي الْقَدِيمْ
فَأَشْجَى وَأَشْجِى الْبَنَاتِ الْعَذَارَى،
وَأَشْجِى رِجَالَ الْقَبَائِلِ،
وَاسْتَمَعَتْ شَدْوَهُ الْأَنْهُرُ الْجَارِيَاتُ فَحَيَّتْهُ
وَابْتَهَجَتْ بغِنَاءِ الْمَطَرْ
عَلَى شُرْفَةٍ فِي رُبُوعِ الْقَمَرْ

أُبَعْثِرُ بَعْضِي عَلَى بَعْضِهِ
بَاعِثًا فِي الْخَلَائِقِ
لَحْنًا جَدِيدًا تُغَنِّي بِهِ الْغَانِيَاتُ الْحِسَانْ
قَصَائِدَهَا مِنْ فَرَائِدِ عِقْدِ الزَّمَانْ
وَفِي كُلِّ لَحْنٍ لِسَانْ
يُعَبِّرُ عَنْ آيَةٍ فِي الْمَعَانِي
يَصُوغُ مِنَ الْهَتْنِ صَوْتًا،
مِنَ الْقَطْرِ صَوْتًا،
مِنَ الرِّيحِ صَوْتًا
وَمِنْ نَغَمَاتِ الْعَنَادِلِ صَوْتًا(١)

ليبدو البشر أمام هذه الأنا التي تعالت عن مفردات كون كئيب، بمثابة حضور بليد، جامد يرسف في قيود الغريزة، ولا يعرف غير لغة المنفعة، بشر "برجماتيون" يعيشون في عصر التيه، ووطن التيه في خضم إعصار الظلمة، يقول:

إِعْصَارٌ فِي وَسَطِ الظُّلْمَةِ وَالْعَصْر حُطَامْ
فِي وَطَنِ التِّيهِ
وَفِي الْغُرْبَةِ،
مَا بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ
يَحْيَا إِنْسَانٌ
لَا عَيْنَانِ لَهُ، لَا أُذُنَانْ،
وَعَيٌّ دُونَ لِسَانْ
فِي وَطَنٍ يَحْفِلُ بالنُّخْبَةِ
يُولَدُ أَوَّلَ مَا يُولَدُ ظِلٌّ

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الرابع ص ٦٧

يَكْبُرُ فِي الذُّلِّ،
يَعِيشُ كَمَا الْحَيَوَانْ
فِي هَذِي الْأَوْطَانِ
الْبَعْضُ يَبيعُ الْوَهْمَ،
الْبَعْضُ يِبيعُ الْأَرْضَ،
الْبَعْضُ يَبيعُ الْعِرْضَ
بِبَعْضِ الذَّهَبِ الرَّنَّانْ
وَلَنْ تَلْقَاهُ سِوَى مَهْدُومٍ يَسْعَى لِلْهَدْمْ
مَا أَبْشَعَ وَجْهَ الْفَقْرِ كَعُمْقِ الْقَبْرْ
وَعِجَافُ السَّنَوَاتِ الصَّعْبَةِ فِي آتِ الْأَيَّامِ تَضُن(١)

لتتكشف لنا ثنائية أوسع، تتجاور فيها قسوة البشر مع وطأة لغز الوجود وتزداد المأساة، لاغتراب هذا العاشق الكائن الليلي "الشاعر" في وطن يعيش على حافة الهاوية، وطن غاب فيه العدل، وعصر تخلف حاضره بالقياس إلى ماضيه، وطن يبيع الوهم.

وبقدر ما تُخايلنا رمزية التيه والضياع في هذا السياق، تبدو قدرية الرحلة التي تدعو الأنا إلى التوحد بعد أن عاشت الانتظار الطويل في وطن الغبار، الذي ضيع أحلام الصغار، والتي يتناقض معها الواقع فتشتعل في الأحشاء نار يقول باشراحيل في وطن الغبار:

وَنَسِيتَنِي خَلْفَ انْتِظَارِ الْوَقْتِ
يَا وَطَنَ الْغُبَارْ
أَلْفَيْتُ شَمْسَكَ تَصْطَلِينِي
كُلَّمَا يَمَّمْتُ نَحْوَكَ
نَحْوَ أَحْلَامِ الصِّغَارْ
إِنِّي الْمُتَيَّمُ فِي هَوَاكَ

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الرابع ص ١٠٠

أُحِسُّ فِي الْأَحْشَاءِ نَارْ
مَا كُنْتَ تُطْفِئُ حُرْقَتِي
بَلْ كُنْتَ تُشْعِلُنِي أُوَارْ
الْمَاءُ عِنْدَكَ وَالشِّتَاءُ،
وَعِنْدَكَ الدِّيَمُ الْغِزَارْ
هَلْ أَنْتَ تَأْبَهُ بِي؟
ظَمِئْتُ أَنَا
وَمَا جَرَّعْتَنِي إِلَّا الْمَرَارْ

وبقدر ما تنطوي هذه الأبيات في سياقها على دلالة العشق المفرط للوطن المتشبع بالخيال الذي "يحلم" برد شيء من هذا الحب تجيء القسوة، قسوة اللوم والاستنكار لهذا الواقع المر الممل؛ فعندما نرد دلالة "الخيال" نقيض الواقع المر على دلالة الشاعر الحالم، تتولد دلالة أخرى ترتبط بمعاني النفور والضيق بالأسر يقول:

وَلَكَمْ وَهَبْتُكَ مِنْ رَحِيقِ الْعُمْرِ،
كَمْ أَنِّي جَعَلْتُكَ غَايَتِي
وَرَأَيْتُ أَنَّكَ رَوْضَةٌ بالنُّورِ تَعْبَقُ وَالنُّضَارْ
وَأَنَا افْتَدَيْتُكَ فِي زَمَانِ الْقَيْظِ
مِنْ لَفْحِ الْهَجِيرِ،
أَجَلْ أَضَأْتُ لَكَ الدُّجَى قَمَرًا مُنِيرًا
ثُمَّ أَخْصَبْتُ الْقِفَارْ
أَلْقَاكَ فِي أَلَقِ النَّعِيمِ
تَغِطُّ فِي سِنَةِ الْحُبُورِ،
تَعِيشُ أَنْدَاءً وَنُورًا،
غَيْرَ أَنَّكَ كُنْتَ يَا وَطَنِي

الضَّنِينَ على فِي يَوْمِ الْعِثَارْ
يَا مِعْصَمِي الْمَجْرُوحَ
قَدْ ضَاقَ الْأَسِيرُ مِنَ الْإِسَارْ
سُحْقًا لِقَيْدٍ كَالسُّوَارْ
أَوَّاهُ يَا وَطَنَ الْغُبَار(١)

إن هذه الثورة العارمة التي تظهر في نهاية القصيدة لهذه النفس التي ضاقت بالأسر، وأطفأت شموس الوطن التي كانت تألفها في قوله "الفيت شمسك تصطليني" لتغدو هذه الشموس مظلمة وانظر –أعزك الله– إلى تجاوب ثنائية "الشمس - القمر" عبر القصيدة، حيث يغدو القمر نقيضًا للشمس. فبينما يضيء الشاعر الدجى بضوء القمر الخافت الذي تنسرب من خلاله دلالات عدة تتقارب فيها معاني "الحلم، والخيال، والغموض، والسحر، والحنو، والرقة، والسكينة، والهدوء، والتحرر، والانطلاق، والابداع، والكشف" في مقابل حضور الشمس في بدء القصيدة، بقسوتها التي تقترن بلهب الظهيرة المحرق، والتي عبر عنها باشراحيل بمفردات شديدة الحدة منها "تصطليني، نار، هجير، تشعلني، أوار..... إلخ".

غير أن هذا المعنى الممتلئ بالقسوة ومحاولة الهروب من هذه الشمس، لا يقلل من أهميتها وضرورة حضورها في الحياة؛ فهي نبض هذه الحياة، وبحضورها يحضر الدفء وينير الكون يقول: د/ عبد الله باشراحيل:

الشمس من خلق الإله إشراقها نبض الحياة

كما يستحضر د/ باشراحيل معنى الإشراق والإنارة، التي لا تقتصر على الكون بل تجلي جهل العقول في عنوانه اللافت "شموس الفكر" في دلالة واضحة على أن الظلمة التي يعيشها عقل الإنسان، لا ينيرها غير شمس العلم والمعرفة، التي يمنحها الله لقلة من خلقه، لذا فقد

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الرابع ص ١١٧ - ١١٨

كتبت هذه القصيدة في مدح "صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل وألقيت بمناسبة" تأسيس مؤسسة الفكر العربي، فكان للاسم دلالته الخاصة والمائزة.

يقول د/ باشراحيل:

يا خالد الفكر نبض القلب تحمله وأنت تقرن أقوالًا بأفعال
وخلفنا صوت أفاك يساومنا فمن يبيع تراب الموطن الغالي ؟
لعلنا الآن ننضو عن سواعدنا حمل السنين على أنقاض أحمال
نثري الفهوم وتثرينا مواطرها نجدد الفكر فينا بعد إغفال

عطر الشمس

وفي دعوة لتراسل الحواس، يطلقها دكتور باشراحيل، عبر عنوان قصيدته ليدعو القارئ منذ بداية الحديث إلى إعمال الفكر، واستحضار النفس الفلسفية المتأملة، التي تنطلق منها القصيدة، إذ هي دعوة لرقي الإنسان إلى مصاف أعلى من الحضور الفطري للبشر، حيث اقتناص اللحظات التي ينال بها المرء قبسًا من فيض الإله ؛ فتنجح خطواته البشرية الضعيفة الواهنة في القفز إلى الأعلى ؛ ليرى ما يعجز عن رؤيته بعينه الآدمية القاصرة، ويرى أسرار عطور الشمس التي تجرى منها أنهار في الجدب، فهو الآن يرى بعين الحكمة، ويستطيع إدراك حقائق الوجود، لأنه اتحد بالحب الذي يحيل الموت إلى حياة، بعد رحلة أبدية بين الأسفل والأعلى، بين دنيوية البشر وعلوية الملائكة يخطئ الخطو مرات، ثم يقفز للأعلى في مرات أخرى يقول:

وَتَمَنَّى وَكَثِيرٌ مَنْ يَتَمَنَّى عِطْرَ الشَّمْسْ
قَدْ كَانَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَسَلَّقَ طُولَ اللَّيْلِ
يُسَافِرُ إِثْرَ شَمِيمِ الطَّيْفِ
لِيَبْلُغَ نَهْرَ الْعِطْرِ تَفَكَّرَ ثُمَّ تَأَمَّلَ
كَيْفَ سَيُبْدِعُ فِكْرًا بِكْرْ

فِكْرًا يَنْشَأُ مِنْ لَا شَيْءْ
لِيُصْبِحَ أَحْدَثَ شَيْءْ
كَانَ يَعُدُّ النَّبْضَ
يُسَجِّلُ دَقّاتِ اللَّحَظَاتِ
يُقَارِنُ بَيْنَ الرِّيحِ وَبَيْنَ الطَّيْرْ
كَي يَعْلَمَ مَنْ سَيَجِيءُ بعِطْرِ الشَّمْسْ
وَانْطَلَقَا وَالرِّيحُ رِكَابُ الْخَيْلْ
مَنْ يَسْبقُ مَنْ؟
مَنْ أَوَّلُ مَنْ يَأْتِي بالْعِطْرْ؟
اتَّحَدَا :الرِّيحُ وَذَاكَ الطَّيْرُ وَسَارَا نَحْوَ
رِهَانٍ صَعْبْ
سَبْحٌ فِي سَبْحْ
وَشَوَاسِعُ أَنْفَاسِ الْأَسْرَارِ الْمَدْ
وَالْأَعْلَى وَالْأَسْفَلُ وَدُرُوبُ الْغَيْمِ
وَأَجْفَانٌ تَحْتَقِبُ الْغَمْضْ
آفَاقٌ تَفْتَرِعُ الصَّحْو
وَعُيُونٌ تَقْرَأُ خَارِطَةَ الْخُطُوَاتْ
تُخْطِئُ مَرَّاتْ
تَنْجَحُ فِي الْقَفْزِ إِلَى الْأَعْلَى
لِتَرَى فِي الظِّلِّ بُرُوقَ عُقُولْ
مَجْهُولٌ يَبْحَثُ عَنْ مَجْهُولْ
لَكِنْ هُوَ يَعْرِفُ عَنْ أَسْرَارِ عُطُورِ الشَّمْسْ
الْقَطْرَةُ مِنْهَا تَجْرِي أَنْهَارًا فِي الْجَدْبْ
مَنْ يَشْتَمَّ شَذَاهَا يَنْزِعْ دَاءَ الْغِلْ

وَيَقْنَعْ فِيهِ الْقَلْبُ
وَعَادَ الرِّيحُ وَعَادَ الطَّيْرُ فَمَا اسْطَاعَا
عَجْزًا عَنْ جَلْبِ الْعِطْرْ
وَالْفِكْرُ الْمُتَأَمِّلُ يَهْزَأُ وَهْوَ يَقُولْ
عَجِزَ الْمَخْلُوقُ لِجَلْبِ عُطُورِ الشَّمْسْ
وَعُطُورُ الشَّمْسِ الْحُبْ(١)

وشاعرنا حين يستخدم مفردة الشمس للمدح، لا يقتصر حضور المعنى على الإشراق فقط، بل يستحضر حاسة البصر أيضًا، وينبه القارئ إلى لونها الذهبي "لون الذهب" الذي يقترن بكل ثمين، لذا فقد خص الشاعر ابنته "مصباح الفرح" بقصيدة "شمس الذهب" وهي قصيدة ملؤها الرفق والحب والحدب على آخر عنقود الأبناء وأصغرهم "مصباح الفرح"، التي ضفر الشاعر كل جميل من خصائص المدح ليصفها به فقد جمعت بين جمال الطباع والأدب والعلم والمظهر الحسن، فكان لها من اسمها نصيب يقول د/ باشراحيل:

مصباح يا بنتي و يا رمش الهدب ... يا آخر العنقود في كرم العنب
يا طفلتي الأبهى كبرت وصرت في ... عمر تورد بالجمال وبالأدب
يا وجهك الوضاح يا شمس الشموس ... وأنت مشرقة أنرت لي الحقب
ألقاك أعطار النسائم قد سرت ... من كل أزهار الرياض أريج حب
تتناهبين الوقت في كسب العلا ... تبنين مجدك واعدا عالي الرتب
بالعلم بددت الظلام وبالأدب ... مما نهلت من المعارف في الكتب
تتسامقين إلى الذري الشماء لا ... ترضين إلا ما تسامى بالنجب
سميت في الدنيا بـ"مصباح الفرح" ... كوني كاسمك أشرقي فيما نحب

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل- المجلد الثالث ص ٢١- ٢٢

يا نخلتي الكندية الفرعاء يا نسبا تطاول في العوالم بالحسب
رباه أسألك الصلاح لها لإخوتها فلا يلقون في الدنيا نصب
كن أنت يا ربي لهم نعم المعين وهبهم الخيرات إنك من يهب
ولتكفهم يا رب أنواع الشرور من الحقود أو الحسود أو الكرب
مصباح يا نورا تألق يا فرح أنت الجمال جميعه في عين أب
يعطيك ربك كل سعد باسم وأرى بنيك الغر يا شمس الذهب

ومن المعاني التي ربطها باشراحيل بالشمس أيضا، أن حضورها مرتبط بحضور النهار، الذي خصه المولي جل شأنه بالعمل والسعي وإعمار الأرض، هذا العمل الذي يزيد ويزدهر بحضور الشباب، الذين هم وقود نهضة الأمم وتقدمها وعزها وهم الشموس القادمات، بهم تفتح الأبواب ويزول سواد الليل ويزوي عجز الزمان، لذا فإن الشاعر يحدث نفسه في قصيدة "شموس الشباب" ويطالبها بالتشبث بالأمل، والغد المشرق الذي سيأتي مع هذه الطليعة الواعدة يقول:

حَتَّى وَإِنْ هُمْ غَلَّقُوا الْأَبْوَابَ
فَارْتَقِبِي الشُّمُوسَ الْقَادِمَاتِ
غَدًا سَتَفْتَحُ كُلَّ بَابْ
وَتَمَهَّلِي لَا تَعْزِفِي اللَّحْنَ الْأَلِيمَ
وَشَاهِدِي هَذَا سَوَادُ اللَّيْلِ
يَهْرُبُ لِلسَّرَابْ
كَانَ الزَّمَانُ الْأَمْسَ
كَمْ عَجَزَ الزَّمَانُ وَلَوْ دَرَى
أَنَّ الشُّمُوسَ الزُّهْرَ
تُشْرِقُ بالشَّبَابْ.

حضور الأنثى وقضايا المرأة
في العتبات النصية للعناوين
في شعر عبد الله باشراحيل

إن الذاكرة عند باشراحيل ليست وعاء للحفظ، أو سجلًا تصويريًا يحفظ المواد دون أن يترك أثرا فيها، إنما تشكل الذاكرة لدية سجلًا تشكيليًا، وقدرة خلاقة، ولا تنجذب إلا لما تستشعر فيه دلالة خاصة، وما يتصل بمعنى تدركه في تداعياتها، ذاكرة تعيد تكوين ما تنطوي عليه، وصياغته من جديد بعد أن تدخل عليه معطياتها، وتصهره في علاقات جديدة تتجاوب في توليد دلالات مختلفة عما تغذت عليه الذاكرة، دلالات تتسم بالجدة والطزاجة والتنوع الخلاق وباشراحيل في أولى دواوينه "ديوان معذبتي" يستحضر اسمًا لأنثى ويطلقه على إحدى قصائد الديوان فنجد قصيدة تحمل اسم "لبنى" ليأخذنا الاسم فورًا إلى "لبنى" "قيس بن ذريح" وإلي أشهر قصص الحب المؤثرة التي لا تخلو من ألم الفراق والفقد(١)

---

(١) هو قيس بن ذريح بن سنة، وفي رواية ابن الحباب يتصل نسبه ببكر بن عبد مناة عذري وهو من خزاعة واسم أبيه على أو هو جده، وكان ينزل بظاهر المدينة وهو رضيع الحسين بن علي بن أبي طالب، وسبب علاقته بلبنى بنت الحباب الكعبية أنه ذهب بعض حاجاته فمر ببني كعب وقد احتدم الحر فاستسقى الماء من خيمة منهم فبرزت إليه امرأة مديدة القامة بهية الطلعة عذبة الكلام سهلة المنطق فناولته إداوة ماء، فلما صدر قالت له ألا تبرد عندنا، وقد تمكنت من فؤاده فقال نعم، فمهدت له وطاء واستحضرت ما يحتاج إليه، وإن أباها جاء. فلما وجده رحب به ونحر له جزوراً، وأقام عندهم بياض اليوم ثم انصرف وهو أشغف الناس بها فجعل يكتم ذلك إلى أن غلب عليه فنطق فيها بالأشعار وشاع ذلك عنه وأنه مر بها ثانيًا فنزل عندهم وشكا إليها حين تخاليا ما نزل به من وجدٍ بها فوجد عندها أضعاف ذلك فانصرف وقد علم كل واحد ما عند الآخر.فمضى إلى أبيه فشكا إليه فقال له دع هذه وتزوج بإحدى بنات عمك، فغم منه وجاء إلى أمه فكان منها ما كان من أبيه فتركهما وجاء إلى الحسين بن علي وأخبره بالقصة فرثى له والتزم له أن يكفيه هذا الشأن. فمضى معه إلى أبي لبنى فسأله في ذلك فأجابه بالطاعة، وقال يا ابن رسول الله لو أرسلت لكفيت، بيد أن هذا من أبيه أليق كما هو عند العرب، فشكره ومضى إلى أبي قيس. ونقل السيوطي في شرح الشواهد عن ابن عساكر، أن الحسين بن علي لما بلغه انقباض أبي قيس عن ذلك، جاء إليه حافيًا على حر الرمل فقام ومرغ وجهه على أقدامه، وكان ذريح مليًا

هذا الفقد الذي أنتج أروع عيون الشعر العربي في هذا المضمار؛ إذ قال قيس في "لبنى":

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا ... إلى الله بعد الوالدين يتيم

أنشد حين بلغه هدر دمه:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واشٍ أو وعيد أمير

فلن يمنعوا عينيّ من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومن كُرَبٍ تعتادني وزفير

ومن حرق للحب في باطن الحشا وليل طويل الحزن غير قصير

وباشراحيل في قصيدة "لبنى" يحاكي جده قيس ليترك لنا قصيدة من أرق وأعذب أشعار باشراحيل يقول: (١)

قُولِي الَّذِي تَبْغِينَ لَا تَتَمَنَّعِي فَلَقَدْ حَمَلْتُكِ -حُلْوَتِي -فِي أَضْلُعِي

إِنْ كُنْتِ قَدْ شِئْتِ الْفِرَاقَ فَإِنَّنِي بَاقٍ عَلَى عَهْدِي الْكَرِيمِ وَمَوْقِعِي

فمضى مع الحسين حتى زوج قيسًا بلبنى. ونقل الجلال السيوطي أن الحسين أدى المهر من عنده، ولما تزوجها أقام مدة مديدة على أرفع ما يكون من أحسن الأحوال ومراتب الإقبال، وفنون المحبة، وأن قيسًا على أبلغ ما يكون من أنواع البر بأمه فشغله الانهماك مع لبنى عن بعض ذلك فحسنت لأبيه التفريق بينهما، فقالت له يوماً: لو زوجته بمن تحمل لتجيء بولد كان أبقى لنسبك وأحفظ لبيتك ومالك، وأنهما عرضا على قيس ذلك فامتنع امتناعًا يؤذن باستحالة ذلك، وقال لا أسيِّبُها قط. وأقام يدافعهما عشر سنين إلى أن أقسم أبوه أو هي أمه لا يكنه سقف أو يطلق قيس لبنى، فطلقها، ولما اشتد شوقه وزاد غرامه أفضى به الحال إلى مرض ألزمه الوساد واختلال العقل واشتغال البال.

انظر تزين الأسواق في أخبار العشاق – داود الأنطاكي من ص ٣٧: ٤١

(١) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل - المجلد الأول ص ١٨

يَا حُلْوَتِي إِنْ كَانَ أَبْعَدَكِ النَّوَى ... فَلَأَنْتِ فِي قَلْبِي وَفِي رُوحِي مَعِي

أَشْقَيْتِنِي بِالْهَجْرِ فِي مَا رُمْتُهُ ... وَتَرَكْتِنِي فِي لَوْعَتِي وَتَوَجُّعِي

طَابَتْ لَكِ الدُّنْيَا، وَطَابَ أَمَانُهَا ... وَبَقِيتُ وَحْدِي لِلْعَذَابِ وَأَدْمُعِي

لُبْنَى، فُؤَادِي فِي هَوَاكِ مُتَيَّمٌ ... هَلَّا رَحِمْتِ صَبَابَتِي وَتَلَوُّعِي

فَالْعُمْرُ يَمْضِي وَالْحَيَاةُ سَتَنْقَضِي ... فَخُذِي نَصِيبَكِ مِنْ حَيَاتِكِ وَاقْنَعِي

عُودِي إِلَيَّ فَخَاطِرِي مُتَلَهِّفٌ ... لِلِقَاكِ لِلْوَصْلِ الْحَبِيبِ الطَّيِّعِ

لَا تَتْرُكِينِي لِلْعَوَاذِلِ، إِنَّنِي ... قَدْ ضِقْتُ ذَرْعًا يَا حَيَاتِي فَارْجِعِي

قصيدة أخرى من ديوان "الهوى قدري" حمل عنوانها اسم علم لأنثى؛ إذ جاءت القصيدة بعنوان "رانية" وهي قصيدة تقطر حبًا من نوع خاص حب الأب لابنته التي يغدق عليها أباها حبه وحنانه، ويختبر باشراحيل بوجودها أحاسيس جديدة ومشاعر لم يُكنها لأحد من قبل ويتعلق بها تعلق الروح بالجسد، يتابع خطواتها من قريب وبعيد، قلق على مستقبلها، وعلاقة البنت بأبيها من أجمل العلاقات، وقديمًا قالت العرب "كل فتاة بأبيها معجبة "(١)

وتظهر القصيدة روعة هذه العلاقة وجمالها يقول باشراحيل: (٢)

هَيَّا امْرَحِي وَغَرِّدِي ... يَا نُورَ يَوْمِي وَغَدِي

وَفَجْرِيَ الَّذِي بَدَا ... مِنْ خَدِّكِ الْمُوَرَّدِ

أَهِيمُ حِينَ تَبْسَمِينَ ... أَنْتَشِي وَأَهْتَدِي

وَكَمْ يَطِيبُ أَنَ أَرَاكِ ... مِلْءَ قَلْبِي وَيَدِي

---

(١) كتاب مجمع الأمثال – أبو الفضل أحمد بن محمد إبراهيم الميداني – تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – دار المعرفة العربية – بيروت - الجزء الثاني ص ١٣٤

(٢) الأعمال الكاملة – الدكتور عبد الله باشراحيل - المجلد لأول ص ٥٠

رَانِيَتِي ..يَا طِفْلَتِي يَا بُلْبُلِي...يَا هُدْهُدِي
لاَ تَجْزَعِي لِخَاطِرِي الْمُشَتَّتِ ...المُبَدَّدِ
لَا تَحْمِلِي هَمَّ الْحَيَاةِ يَا مُنَايَ وَاسْعَدِي
يَا زَهْرَتِي ..يَا غِنْوَتِي يَا نَبْضَ عُمْرِيَ النَّدِي
تَطُولُ فِيكِ نَظْرَتِي وَطَابَ لِيْ تَوَحُّدِي
إِلَيْكِ أَهْفُو ظَامِئًا فَأَنَتِ أَنَتِ مَوْرِدِي
لَوْ شِئْتِ أُهْدِيكِ الدُّنَا مَحْمُولَةً عَلَى يَدِي
يَا رَبُّ صُنْهَا طِفْلَتِي لِأُمِّهَا... وَالْــوَالِــدِ

ويكرر باشراحيل التجربة في قصيدة "يا طفلتي" ويطالعنا الإهداء باسم جديد لأنثى هي "عالية"، والقصيدة كسابقتها غاية في العذوبة ورقة الألفاظ وروعة المشاعر وتدفقها، وكان لكل ابنة وحفيدة لباشراحيل حظ بتخصيص قصيدة لكل منهن فقد كتب لحفيدته "مارية" وابنته "مريم" وابنته "مصباح الفرح" وحفيدته "رند"، ولجمانة و "حنان" وأطلق على ديوان كامل اسم ابنة أخيه "صباح" التي وافتها المنية وهي في عمر الزهور. وللموت والمراثي حديث خاص في هذا الكتاب.

غير أنني سأتوقف عند قصيدة "همس النبض" من ديوان "أنفاس الورق" وهي قصيدة مهمة تبين إلى أي مدى يتبنى باشراحيل قضايا المرأة، ويناصرها كما تبين درجة تحضره وانفتاح عقله وذكائه، وتؤكد الفرضية السابقة التي قلت بها من أن المرأة هي الوجه الآخر للحياة.

والحق أنني انجذبت إلى الجسارة التي انبنت عليها هذه القصيدة، وبخاصة بعد قراءتي لمنجز باشراحيل الشعري، الذي يتشبث بوضوح بتقاليده العربية وعادات مجتمعه، ونواميس حياته ومفرداته المتحفظة، لكنه في ذات الوقت يرتقي بفكره للانفتاح والتمدن دون أن تختل هذه الموازين.

وأعترف أنني لم أتوقف عن الإعجاب بالسلاسة التي تدافعت بها قصائد د/ عبد الله باشراحيل، والتي ينطبق عليها صفة السهل الممتنع من الكلام وكيفية استخدامه للنغم والأوزان، وكيف طوع عمود الشعر العربي، وجعل له مذاقًا مختلفًا، مزج فيه بين رصانة الكلمة وجزالتها و طزاجة المجاز وجدته الناتج عن حس لغوي مرهف في صياغته، ورغم أن عتبة العنوان تتكون من كلمتين "هامستين" هادئتين هما "همس النبض" بما فيهما من معاني الخفوت والهدوء والسكينة، فإن بداية القصيدة قد شكلت صفعة حادة، جارحة كالنصل، الذي يغوص في عمق الجرح ليطهره، وجاءت لتفتح تابو مغلقًا، ظل الجميع صامتًا عنه، لا يود الحديث فيه أو التعرض له في مجتمع وصِف بأنه مجتمع ذكوري أبوي، يضيع فيه كل حق للأنثى، مجتمع يشرع ظلم المرأة، انطلاقًا من دونيتها ونقصها، مجتمع فسر النصوص الدينية بشكل يضيق الخناق عليها، رغم أن الإسلام أكثر الأديان التي حفظت للمرأة حقوقها

يقول باشراحيل على لسان المرأة العربية:

طَيْفًا سَأَزُورُكَ فِي أَضْغَاثِ الْغَمْضْ
بَعْدَ غُرُوبِ الصَّبْرْ
قَبْلَ سُيُوفِ الْقَتْلْ
أَنَا مِنْ وَطَنِ الْأَعْرَاضِ الْبِكْرْ
مِنْ قَوْمٍ يَئِدُونَ الطِّفْلَةَ، يَسْتَحْيُونَ الطِّفْلْ
اشْتُهِرُوا بالثَّأْرِ مِنَ الْفِطْرَةِ وَالْجِنْسْ
فَالْمَرْأَةُ حُسْنٌ مَأْسُورٌ فِي قَصْرِ الْمِلْحْ
يَا وَيْلَ الْأُنْثَى فِي وَطَنٍ رَبَّاهُ الظَّنْ
لَيْسَ لَهَا مِنْ بَعْدِ الْبَعْلِ حَيَاةٌ إِلَّا الْقَبْرْ
هِيَ طَلْعُ الرِّيبَةِ
قَدْ وُلِدَتْ مِنْ دَمْعِ الْقَسْوَةْ،
مِنْ خَفَقَاتِ الضَّعْفْ

تَحْبسُ أَنْفَاسَ النَّظْرَةِ فِي أَحْدَاقِ الرَّفْضْ
صَارَتْ تَتَمَرَّدُ ضِدَّ الضِّدْ
قَالَتْ سَأَزُورُكَ فِي جُنْحِ الْأَخْطَارْ
سَأُرِيكَ فُتُونِي كَيْ تَهْنَأَ فِي قَلْبِي لَيْلَ نَهَارْ
سَأُثِيرُكَ بالْقَدِّ الْمَمْشُوقْ
وَأُرِيكَ السِّحْرَ ذُهُولًا
كَيْ تَعْرِفَ كَيْفَ تَكُونُ النَّارْ
وَكَيْفَ يَكُونُ النُّورْ
أَتَمَنَّى أَنْ أَسْكُنَ قَلْبَكَ أُنْسًا أَوْ حُزْنْ(١)

والأسطر واضحة في الدلالة التي تنطوي على نقد مجتمع قاس مضطهد، وباشراحيل يطرق به قضايا المرأة، ويناصرها لأنه ينطلق من مبدأ واضح، أنه لابد للشاعر من رسالة، وأن الشعر الحق يتسع بحدود عوالمنا إلى ما لا نهاية، ويجعلنا نرى أوجهنا المتعددة في مراياه، ونشعر أن لكلماته حيوات مستقلة وأفعالًا تسحرنا وتدفعنا إلى معاودة النظر في أفعالنا، ورؤية حياتنا من منظور جديد؛ فنكتسب خبرة الكشف، وفي مداها نولد من جديد أكثر نقاء وصفاء وإنسانية وفهمًا.

إن هذه الذات الشاعرة التي تسكن روح باشراحيل، والتي اتسمت بالإنسانية المفرطة أبت إلا أن يكون لها حضورها الواضح أمام قسوة مجتمع يمارس اضطهاده وتعنته تجاه الأنثى، لذا فقد وصف باشراحيل هذا المجتمع بالجاهلية بطريقة غير مباشرة، ففي الجاهلية فقط كانوا يئدون الإناث ويحافظون على الذكور، وكأنه ينبه العقل البشري إلى عودته لهمجيته التي نهى عنها ديننا الحنيف الذي أكرم المرأة، وكف عنها شر الظن ووضعها في مكانة علية حفظتها من

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الثالث ص ١٧ قصيدة همس ونبض

كل سوء، وشرع لها الإرث بعد أن كانت هي ميراثًا يورث وأعطاها حقها في التعلم، ومنحها حريتها بعد الأسر والمهانة.

من هذا المنطلق وبنفس الجرأة في التناول جاءت قصيدة "الأنثى والظنون" لتثبت هذه النظرة القاصرة للمرأة، والتي تمتلئ بالريبة والظن والشكوك التي تجبر الأنثى على الإقامة الجبرية في ظل تقاليد بالية جاهلية، حررها منها الإسلام وحصنها من عنفها إذ يقول باشراحيل: (١)

قَالَتْ :أَخَافُ النَّاسَ
إِنْ مَالُوا إِلَى الظَّنِّ
وَتَقُولُوا عَنِّي
بِالسُّوءِ يَرْمِينِي
خِسَاسُ الْقَوْمِ
إِمَّا فَكَّرُوا أَنِّي
مَفْتُونَةٌ بكْ،
سَوْفَ تَلْعَنُنِي
فَلْتَعْذُرِ الْأُنْثَى وَأَعْرَافَ الْقَبيلَةِ حِينَمَا
تَسْتَنْكِرُ الْإِعْجَابَ بالْفَنِّ
أَدْرِي بأَنَّكَ غَاضِبٌ مِنِّي
أَدْرِي وَلَكِنِّي
أَخْشَى مِنَ التَّأْوِيلِ يَجْرَحُنِي
لَكِنْ بمَا أَنِّي
مِثْلَ النِّسَاءِ حَبيسَةُ الْقُنِّ
قِيَمٌ وَعَادَاتٌ وَرِثْنَاهَا
تُحَرِّمُ ضِحْكَةَ السِّنِّ

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ٤١٣ - قصيدة الأنثى والظنون

أبَدًا تُجَرِّمُ نَظْرَةَ الْأُنْثَى
وَإِنْ كَانَتْ مُنَزَّهَةً عَنِ الظَّنِّ
أَمَّا الرِّجَالُ فَحَلَّلُوا فِعْلَ الْحَرَامِ،
ذُنُوبُهُمْ مَغْفُورَةٌ

ولقد آثرت الإتيان بنص القصيدة كاملًا لما فيها من دلالات موحية، ومقارنة بين نظرة المجتمعات العربية لكل من الرجل والأنثى، وتساؤل باشراحيل عن ما يحتاج إليه هذا المجتمع من وقت حتى ينفتح عقله، وينفلت من أسر عادات بالية عقيمة يرسف في أغلالها.

ولم تتوقف مؤازرة باشراحيل للمرأة عند هذا الحد، فقد تحدث عن وقت من أقسى الأوقات على الأنثى نفسيًا وهو "سن اليأس"، ونفى المسمى ليطلق عليه سن الرشد،

وهو وإن كان يتحدث في القصيدة عن لغة الضاد وكيف يصفها الجهلاء بأنها لغة أصابها العجز؛ فلم تعد قادرة على إنتاج المعاني شأن الأنثى التي تخطت سنوات الإخصاب والقدرة على الإنجاب؛ فإننا لا نعدم معنى المؤازرة والتبجيل والتقدير والإجلال للمرأة عامة وللمرأة العربية بصفة خاصة.

وآمن باشراحيل كذلك بعمل المرأة ودورها في نهضة المجتمع وكفاحها بل واستشهادها في ساحات النضال شأنها شأن أبسل الرجال، وأشدهم شجاعة، وكيف يمكن لصوت امرأة أن يعبر جدران الجمود، وكيف يمكن لاستشهادها أن يكون له مردوده المدوي في الأوساط العالمية، وهو في قصيدة "شيرين أبو عاقلة" وهي من قصائد المراثي ولكنها مع هذا تحمل دلالات غاية في الأهمية والرقي و هي دلالات لا تدع مجالًا للشك في أننا أمام عقل مستنير متفتح، ومتحضر يقول باشراحيل راثيًا شيرين أبا عاقلة؛ هذه الصحفية التي اغتالتها أيدي العدوان الإسرائيلي بكل قصدية وهمجية لأنها كثيرًا ما نددت بفضائحه وكشفتها للرأي العالمي

يقول دكتور عبد الله:

شِيرِينُ.....

وَالْعَادِي اللَّعِينْ
قَتَلُوكِ مَا قَتَلُوكِ وَحْدَكِ
إِنَّمَا قَتَلُوا جَمِيعَ الطَّيِّبِينْ
قَدَرُ الْعِظَامِ
وَأَنْتِ مِنْهُمْ أَنْ تَكُونِي
أُمَّةً فِي الْخَالِدِينْ
يَا آخِرَ الْأَبْطَالِ
يَا نَوَّارَةَ السُّعَدَاءِ
يَا صَوْتَ الْحَقَائِقِ
يَسْتَفِزُّ الْغَاصِبِينْ
أَيُّ الْفِدَاءِ لَبسْتِهِ التَّاجَ
الْمُرَصَّعَ عَالِيًا فَوْقَ الْجَبِينْ
أَنْتِ الشُّمُوسُ عَلَى دَيَاجِي الظُّلْمِ
قَدْ أَشْرَقْتِ
كَيْمَا يُشْرِقَ الْفَتْحُ الْمُبِينْ
أَنْتِ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ النَّصْرَ
أَسْمَعْتِ الطُّغَاةَ بِأَنَّ فَجْرًا قَادِمًا
سَيَكُونُ فَجْرَ الْفَاتِحِينْ
شِيرِينُ!
يَا وَجَعًا أَصَابَ قُلُوبَ كُلِّ الْمُؤْمِنِينْ
مَا ضَاعَ ثَأْرُكِ بَاتَ نِيرَانًا وَبُرْكَانًا
تَفَجَّرَ مِنْ قُلُوبِ الثَّائِرِينْ
شِيرِينُ!
أَنْتِ قَتَلْتِهِمْ قَبْلًا

فَصَوْتُكِ كَانَ يُحْرِقُهُمْ
وَمَاتُوا كُلَّ حِينْ
شِيرِينُ!
إِنَّ الرَّبَّ
لَيْسَ لِفَضْلِهِ حَدٌّ إِذَا يَقْضِي
لَهُ الْفِعْلُ الْمَكِينْ
تَرْتَادُكِ الْأَطْيَارُ مِنْ عَالِي الذُّرَى
تُشْجِيكِ
فِي الْقَصْرِ الْأَمِينْ
وَالْغَيْمُ كَمْ يَغْشَى رِيَاضَكِ دَمْعُ مَاطِرِهِ الْحَزِينُ
تَرَشَّفِي
مِنْهَا كُؤُوسًا مِنْ عُيُونِ الثَّاكِلِينْ(١)

لكن يبقى المعنى الأكثر دلالة لحضور الأنثى، وهو ارتباط حضورها بالحياة والحب وتبقى مكانتها عالية، ومليئة بالتقدير والعشق والتقديس في نفس شاعرة، حكيمة، واعية، تدرك معنى وقيمة الأشخاص والأشياء، يقول باشراحيل في قصيدة الأنثى:(٢)

لَا أَعْرِفُ قُبْحًا فِي النِّسْوَةْ
شَقْرَاءَ وَسَوْدَاءَ وَسَمْرَاءْ، الْكُلُّ سَوَاءْ
وَلِكُلٍّ عَاشِقُهَا الْمُغْرَى
يَا فَرَسًا كَانَتْ مُهْرَةْ
مَا الْفَارِسُ إِلَّا مَنْ رَفَعَ الْأُنْثَى نَحْوَ الشَّمْسِ

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الخامس ص ١٤٥ - ١٤٦
(٢) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ١٣٥

وَنَصَّبَهَا نَجْمَةْ
وَالْفَارِسُ مَنْ يُحْيِي الزَّهْرَةْ
وَغَبِيٌّ مَنْ يَحْتَقِرُ النُّورَ وَيَأْنَسُ بالظُّلْمَةْ
فَالْبَهْجَةُ أُنْثَى وَالنِّعْمَةُ أُنْثَى
وَجَمَالُ الْكَوْنِ هِيَ الْأُنْثَى
وَالْخَلْقُ تَنَاسَلَ مِنْ أُنْثَى
يَا وَيْحَ رِجَالٍ لَا يَمْتَهِنُونَ سِوَى الْقَسْوَةْ

التحديق في الموت وسؤال الصمت

تضافر دوال الموت والصمت في شعر باشراحيل

لا شك أن قضية "الموت" وسره من القضايا الكبرى، التي شغلت حيزًا غير قليل من فكر الإنسان منذ الأزل، وألهبت خياله، وأرقته، وبُنيت عليها حضارات كثيرة، وتحدثت عنها أساطير عديدة، ولم يمثل الموت في عقيدة البشر -غالبًا- نهاية مطلقة، فقد عدوه انفصالًا مؤقتًا بين الروح والجسد ولقد ترجمت أساطيرهم هذا، فكان الموت عادة رمز الجدب والبعث رمز للخصب وتعددت الصور التي تشكلت من هذه الفكرة تبعا لاختلاف ملامح البيئة لكل حضارة ففي مصر أفرزت هذه الفكرة أسطورة "إيزيس/ أوزيريس"، وعند الإغريق أسطورة "أفروديت/ أودونيس"، وفي الحضارة البابلية "عشتار/ تموز"، وفي الحضارة البابلية أسطورة "بعل/ أدن"، وكلها تيمة لأسطورة واحدة "الجدب/ الخصب" أو "الموت/ الحياة"، لكن الكتب السماوية خففت من وطأة التفكير في هذا السر الإلهي وحدثتنا عن ما بعد الموت

"القيامة / البعث / الخلود" لتجعل الحياة رحلة يقطعها المرء ليصل إلى الخلود ويصبح ذلك دستورًا ونهجًا لا يقبل الشك أو الجدل.

ثم كان تفكير فلاسفة الغرب والشرق في الموت، فعده البعض عبثًا وميز البعض بين موت الفرد وموت الجماعة، مؤكدًا حتمية وقوعه في النهاية ودوره كبنية أساسية في مسار الحياة والتاريخ ولذا أكدوا قيمة الحياة.

ثم جاء دور الشاعر في الختام وقد تمثل كل هذا التراث في وعيه وذاكرته، مضيفًا لهذا مرجعياته الثقافية وخبراته الحياتية، وظروف عصره التي جعلت الموت عنصرًا حاضرًا بل ومهيمنًا أحيانًا، غير أن باشراحيل بتكوينه وعقائده وتشربه بالثقافة الإسلامية والعربية، التي جعلته مؤمنًا أن ليس من الموت بد. وأن الحياة هي رحلتنا التي نسلكها للوصول إلى الخلود والتنعم بالجنان، وهذه العقيدة الثابتة، جعلت حديث شاعرنا عن الموت ممتلئًا بالطمأنينة

والتسليم بقدرية الموت وإرادة الله في خلقه، كما جعلت التحديق في الموت وتأمله والاتعاظ به عملًا تفكريًا لنفس اعتادت طرح الأسئلة، وإعمال العقل في كل ما تراه وتعقله.

ودوال الموت منتشرة في عناوين قصائد باشراحيل وحاضرة بكثرة نذكر منها "الموت أو الشموخ – ويموت الحب – موت التاريخ - موت بلا ألم - بعدما أموت – الموت - سر الموت – لغز الحياة والموت – ماذا يصنع الأموات..."

ويرتبط دال الموت لدى باشراحيل بغياب مظاهر الحياة والسكون حتى إن لم تنفصل الروح عن الجسد أحيانًا، فالصامت عن الحق والمغيب والذي لا يحيا بالحب وللحب، كائن ميت في نظر باشراحيل، والذي يتخلى عن شموخه وعزته وكرامته إنسان ميت لا حياة له.

كما ترتبط بشكل واضح بدلالات الصمت، والصمت مفردة فضفاضة في اللغة وحضورها لا يقتصر على غياب الكلام وسكون الأصوات، بل ينفتح المعنى على غياب الحركة؛ إذ كل حركة مقرونة بصوت، وتنفتح على دال السكون الذي يهيئ الذهن لغياب الحياة عن الكائنات يقول باشراحيل في قصيدة بعدما أموت:

....وبَعْدَمَا أَمُوتُ
خَبِّئِي الزَّمَانَ وَالْمَكَانَ
فِي قَرَارَةِ السُّكُوتْ
وَلْتَجْمَعِي الْحُرُوفَ مِنْ حَدَائِقِي
وَلْتَنْظِمِي قَلَائِدَ الشُّعُورِ
مِنْ قَصَائِدِي
وَمِنْ فَرَائِدِي
زَنَابِقًا وَتُوتْ
وَحَمِّلِي النَّسِيمَ مِنْ شَذَايَ،
مَا يُؤَرِّجُ النُّفُوسَ وَالْبُيُوتَ

بَعْدَمَا أَمُوتْ
وَاتْرُكِي الْغِنَاءَ لِلطُّيُورِ
فِي مَوَاكِبِ الْبُكُورْ
فَأَجْمَلُ الْغِنَاءِ مَا يَكُونُ بالْخُفُوتْ
وَأَرْسِلِي الصَّدَى يَرُودُنِي
لِأَنْتَشِي
وَأَزْدَهِي
فِي عَالَمِي الصَّمُوتِ
بَعْدَمَا أَمُوتْ (١)

والإشارات التي ترسلها القصيدة للقارئ كثيرة ودقيقة للغاية، ولتلتفت معي عزيزي القارئ إلى النقاط التي بدأ بها التشكيل اللغوي، والكتابة والتي تختصر عمرًا وحياة وكأنه يقول للقارئ "أما بعد"، وانظر إلى دقة اختيار الزهرة التي لخص بها باشراحيل معان كثيرة زهرة "الزنبق" فزهرة الزنبق هي -إجمالًا- زهرة مرتبطة بالجنازات، إذ ترمز إلى أنَّ الروح التي انتقلت قد استعادت الطهارة والبراءة بعد الموت، وكذلك اختياره نبات التوت المرتبط في الذاكرة الجمعية بمعاني الستر أو كشف المستور؛ فعندما يقال سقطت ورقة التوت يكون كناية عن انكشاف شيء لم يكن مكشوفًا أو المقصود به كشف الستر عن شيء ليس معروفًا أو كان مختبأً.

وهذا التعريف كان من الأقوال المأثورة، ولقد عُرف ورق التوت منذ قديم الأزل، فقبل أن يتم اختراع الملابس كان يقوم الإنسان بستر نفسه بورق التوت. وعليه يكون مقصد الشاعر أن قيمة كلماته ستكشف عن نفسها بعد موته كل هذا، ناهيك عن مدح الذات الذي يتجلى في أبهى صوره فحروف الشاعر التي تركها "حدائق" وفرائد، والشذى الذي سيخلفه بعد رحيله يؤرج

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ١٥٤

النفوس والبيوت، وتتضافر دوال الخفوت والسكون والصمت مع دال الموت ليرسل الهمس الخافت الصدى ترديد قصائد الشاعر التي تتغنى بها الحبيبة بعد الغياب لحظات الانتشاء والازدهاء. ولأن الموت هو الحقيقة الكبرى في الوجود فلا مفر منه فلابد أن يتحلى العقلاء بالعفاف وألا يتبارى البشر في تسديد سهام العداوة والبغض.

ويوجز باشراحيل هذا المعنى في قصيدة الموت يقول: (١)

سَهِرَتْ عُيُونُ الشَّكِّ بِالْأَوْهَامِ ... تَحْكِي إِلَى النَّسَمِ الرِّقَاقِ كَلَامِي
قِيثَارَةٌ مَا عُدْتُ أَسْمَعُ عَزْفَهَا ... إِلَّا نَشِيجًا مِنْ صَدَى الْآلَامِ
وَتَلُوحُ لِي بَعْضُ الْحَمَائِمِ كَالْمُنَى ... رَقَّتْ عَلَى قَلْبِ الْأَسِيرِ الدَّامِي
كَمْ وَادِعٍ سَكَنَ الظَّلَامَ تَرُودُهُ ... أَطْيَارُ آمَالٍ وَهُنَّ ظَوَامِي
يَا قَارِعًا بَابَ الْحَيَاةِ أَلَا تَرَى ... وَجْهَ الْحَيَاةِ يَنُوءُ بِالْآثَامِ
تَرْتَاعُ أَعْمَارُ الْأَنَامِ مِنَ الرَّدَى ... كَسَفَائِنٍ غَرِقَتْ بِبَحْرٍ طَامِ
قَدْ غَادَرَتْ تِلْكَ الظَّعَائِنُ أَيْكَهَا ... رَكِبَتْ ظُهُورَ قَوَافِلِ الْأَيَّامِ
خَوْفٌ يُذِلُّ السَّائِرِينَ وَضَارِعٌ ... كَمْ يَسْتَغِيثُ وَلَيْسَ ثَمَّةَ حَامِ
مَنْ يَسْتَرِدُّكَ بَعْدَ إِغْمَاضِ الرُّؤَى ... أَوْ مَنْ يُعِيدُ النَّبْضَ لِلْأَجْسَامِ
كَمْ رَاعَنَا أَنَّ الظَّلَامَ مُوَاكِبٌ ... سَتَلُفُّنَا كَرْهًا وَفِي اسْتِسْلَامِ
وَنَغِيبُ مَغْشِيًّا عَلَيْنَا نُوَّمًا ... فَكَأَنَّنَا فِي سَكْرَةِ الْأَوْهَامِ
سَيْفُ الْمَنُونِ عَلَى الْخَلَائِقِ مُصْلَتٌ ... وَالْمَوْتُ حَتْفُ وُجُودِنَا الْمُتَرَامِي
لَوْ يَعْقِلُ الْعَقْلُ الَّذِي يَقْتَادُنَا ... عَفَّ الْأَنِيسُ وَعَفَّ سَهْمُ الرَّامِي

ولا نعدم ظهور دوال الصمت في القصيدة السابقة وإن لم يأتِ هذا بصورة مباشرة في

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ١٨٩

"كم وادع سكن الظلام" و "ما عدت أسمع صوتها" "من يعيد النبض للأجسام" مما يؤكد تضافر دال الصمت والموت في مخيلة وعقل باشراحيل.

وينطلق باشراحيل من منظوره العقائدي الذي يؤكد خلود الروح، وأن الموت ما هو إلا انفصال مؤقت للروح عن الجسد، وأن الحياة هي رحلتنا التي نسلكها للوصول إلى دار الحق، نجد هذه المعاني واضحة جلية في قصيدة:

"لغز الحياة والموت" يقول: (١)

يَا زَمَانِي قَدْ أَتَيْنَ طَائِعِين نُطْفَةٌ نَحْنُ، وَمِنْ مَاءٍ وَطِينْ
كَوْنُنَا يَحْمِلُ كُلَّ الْعَالَمِينْ مِنْ جَنِينٍ يُنْجِبُ الدَّهْرُ جَنِينْ
غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ تَسْرِي فِي الْوَتِينْ تَمْلَأُ الْجِسْمَ حَيَاةً كَالْمَعِينْ
كُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ رُوحٌ لَا تَلِينْ تُتْرِعُ الْأَرْضَ عَلَى مَرِّ السِّنِينْ
أَيُّ لُغْزٍ مُعْجِزٍ لِلْحَائِرِينْ وَزَمَانٍ لَا يُجِيبُ السَّائِلِينْ
نَحْنُ نَحْيَا كَالرَّيَاحِينِ لِحِينْ ثُمَّ نَغْدُو بَعْدَهَا فِي الْمَيِّتِينْ
عَالَمُ الْمَوْتَى هُوَ الْعِلْمُ الْمَكِينْ لَا تَظُنَّ الْمَوْتَ قَبْرًا لِلدَّفِينْ
سَلْ عَنِ الرُّوحِ بِعَيْنِ الْخَالِمِينْ فَهِيَ تَبْقَى فِي رِحَابِ الْخَالِدِينْ
وَفَنَاءُ الْجِسْمِ لَا يَعْنِي السُّكُونْ إِنَّمَا يَعْنِي ارْتِحَالًا لِلْيَقِينْ
تُبْدَلُ الْأَجْسَامُ أَجْسَامًا بِطِينْ يَتَسَامَى بِسِمَاتِ الطَّيِّبِينْ
إِنَّهَا الدُّنْيَا كِتَابُ الْمُتْعَبِينْ فَتَبَدَّلْهَا بِدَارِ الْمُنْعَمِينْ

الصمت

وتتجاوب الدوال التي تتضافر فيها معاني الموت والصمت في إصرار غريب عبر مشوار

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ٢١٨

باشراحيل، وتظهر بوضوح في المجلد الرابع من أعماله الكاملة ففي قصيدة قراءة الصمت يقول:(١)

هل تعرفون قراءة الصمت أو تملكون إعادة الميت؟
ليت التي أحببت ترحمني أو ليتها تمضي ولا تأتي

وقصر الدفقة الشعورية يوحي بحالة الضيق التي يعيشها الشاعر والوصول إلى أقصى درجات التبرم والملل، من حالة الركود الشعوري والتردد والبرود من قبل الحبيبة هذه الحالة التي جسدها نزار قبلًا حين قال:

ثوري.... انفعلي.... انفجري
لا تقفي مثل المسمار
خوضي في البحر أو ابتعدي
لا بحر من غير دوار

وغياب الحب هو معنى آخر من معاني الموت، إذ يمثل كما قلت وجه الحياة الحقيقية لباشراحيل، وغيابه يعني غياب الحياة، ويسلم للموات والسؤال الذي يطرحه الشاعر، في شطر البيت الأول يوحي بخوضه ألوانًا من المستحيلات، عايشها في ظل هذه الحالة، فقد تفنن في قراءة صمت هذه الحبيبة، وكثرة تأويله ومحاورته دون عائد أو فائدة، وحاول أن يبث الحياة في سكونها الذي يشبه سكون الموتى، الذين لا أمل في إعادتهم من الموت، لذا يطالبها بأن ترحمه من كل هذه الفوضى وأن ترحل بغير عوده.

ومن المعاني التي تمتزج بالصمت في أغلب الأحوال، الحزن الشديد والهم المسيطر، فعربدة الأحزان والهموم في حيوات البشر لا تترك للحديث مجالًا، إذ لا معنى وقتها للكلمات التي يستشعر صاحبها عدم قدرتها على حمل وطأة مشاعره، وغليانها في صدره الذي يصير كالمرجل

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل المجلد الرابع ص ٣٨٠

المحتقن، وقتها يصير الصمت ملاذًا، يرتكن إليه من بُح صوته، ولا مجيب لنداء، فلا حكيم تراه في زخم الجهالة والجهلاء، ويفتتح باشراحيل آخر دواوينه "قرابين الوداع" بقصيدة "صمت الهموم" التي يجسد فيها هذا المعنى يقول (١)

لَا تَشْكُ عَصْرًا بَغَى جَوْرًا وَعُدْوَانَا ... وَلَا تُعَاتِبْ فتُكْفَى النَّاس أَحْزَانًا

وَاشْرَبْ نَجِيعَ الْقَذَى بِالدَّمْعِ مُمْتَزِجًا ... كَأَنَّهُ الْخَمْرُ وَانْسَ الْهَمَّ سَكْرَانَا

قَدْ عَرْبَدَ الْوَقْتُ وَانْهَالَتْ سَخَائِمُهُ ... وَهَدَّمَتْ مِنْ حُصُونِ الدِّينِ أَرْكَانَا

أبْكَى الْهَوَانُ قُلُوبَ الصِّدْقِ تَحْمِلُهُ ... وَالصَّمْتُ أَضْحَى مَلَاذًا لِلَّذِي عَانَى

حَيِّ الْجَهَالَةَ وَالْجُهَّالَ فِي زَمَنٍ ... قَدْ بَاتَ أَغْرَارُهُ للزَّيْفِ عُنْوَانَا

قلت مرارًا إن الحياة بكل مظاهر بهجتها وحيويتها وعنفوانها، مرتبطة بوجود طقس الحب في أجوائها، وإن غاب الحب أضحت مواتًا، لا يعرف غير معاني الصمت والسكون، لذا فالوداع، والصد، والنسيان، والبعد وكل صور الفراق، تستدعى في قاموس باشراحيل حضور معاني الصمت والكتمان فحينها لن يستجوب باشراحيل عقله وخواطره؛ ليعرف الأسباب والعلل فقط سيركن إلى رحاب سكينة النسيان، رغم جمال الذكريات وإلحاحها يقول: (٢)

أَفْكَارُكَ الْبَحْرُ لَكِنْ دُونَ شُطْآنِ ... وَقَلْبُكَ الطِّيبُ لَا عَادٍ وَلَا شَانِ

يَا مُفْرِغَ الْعُمْرِ مِمَّا كَانَ يَشْغَلُهُ ... وَسَاكِنَ الصَّمْتِ عَنْ جَهْرٍ وَإِعْلَانِ

أُرِيدُ أَنْسَى فُصُولَ الْوَقْتِ أَجْمَلَهَا ... كَمَا أُرِيدُكَ بَعْدَ الْبُعْدِ تَنْسَانِي

تُحَاوِلُ الذِّكْرَيَاتُ الْعُمْرُ تَسْأَلُنِي ... فَمَا يُجِيبُ فُؤَادِي بَعْدَ كِتْمَانِي

لَا شَيْءَ أَخْشَاهُ إِلَّا اللهُ فِي زَمَنِي ... مَا دُمْتُ بِاللهِ مَنْ ذَا سَوْفَ يَقْوَانِي؟

قُلْ كَيْفَ تَرْجِعُ إِنْسَانًا يُؤَانِسُنِي ... وَقَدْ أَضَعْتَ صَدَى إِسْمِي وَعُنْوَانِي؟

---

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل المجلد الخامس ص ١٧

(٢) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل المجلد الخامس ص ٢٨٨

أسماء البلدان

في عناوين القصائد

عتبة مهمة في منجز باشراحيل

من اللافت للنظر في أشعار د/ عبد الله باشراحيل ذكر أسماء الأقطار العربية الشقيقة في شعره فلم يترك باشراحيل قطرًا عربيًا عانى إلَّا وأرخ لمعاناته في شعره، وكأنه يرصد بعين واعية الأحداث، ويشارك فيها داعمًا ومؤازرًا ومؤرخًا، ومتنبئًا أحيانًا بالكثير مما سيحدث، والحقيقة أن ما استوقفني في هذا مدى قرب باشراحيل من قضايا الأوطان والعروبة والقومية؛ فعادة ما ينصرف الشعراء إلى المشاعر الذاتية أو القضايا الإنسانية والكونية العامة أو يحلقون في سماوات من اللاوعي، غير عابئين بالمتلقي الذي يقرأ قصائد هؤلاء كما يقرأ الطلسم يغيب عنه العديد من رموزها أو اسقاطاتها ومعناها، لكن إشارات قصائد باشراحيل جاءت لتستنهض الشعب العربي في كل مكان، وتضرب على أوتار أمانيه في الوحدة، وجمع الصف لتحفر أسطرها في ذاكرة أجيال ستأتي، ولتطوف بأنغامها من المحيط إلى الخليج، غير مكتفية بإعادة ذكرى الفراديس العربية التي قرأنا عنها في التاريخ، بل لقد اختصرت الطريق من القدس إلى القادسية في إسقاط بديع للماضي الزاهر على مستقبل مأمول، إن وطنيات باشراحيل، جاءت مبكرة جدًا ومنذ دواوينه الأولى، فما أن تخطى باشراحيل مرحلة التوهج الرومانسي في ديوان معذبتي والهوى قدري، حتى امتلأ عقله وفكره بقضايا أمته العربية.

وإزاء هذا السياق المتصاعد من التغيرات الجذرية التي تولد بها نظام عالمي جديد تقوده أمريكا، بتحيزها الذي لا يكف للكيان الإسرائيلي، ونفور العرب الذين أصبحوا يوسمون بالإرهاب وبخاصة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ والتنكر المستمر للحقوق العادلة للشعب الفلسطيني، فلم يجد باشراحيل غير "القصيدة" لتطوف بين أقطار بلاده العربية، حاملة دعوى

السلام ومحذرة من غضب الأمة ومبشرة بفجر جديد.

بدأ الشعور الوطني الملتهب، وبدأت الحماسة القومية المتقدة، مع ديوان "النبع الظامئ" الذي ضمن قصائد "الخليج الأخضر – رصاصة من فلسطين – نكبة اليمن – لبنان – ويل العروبة – صبرا وشاتيلا – الأرز الذبيح – فوكلاند"

ويكفيك عزيزي القارئ أن تقرأ هذه العناوين مرة ومرة حتى تدرك مدى تشبع هذه النفس، وإدراك هذا الوعي وامتلاء هذا الوجدان، بهموم الوطن وقضاياه والدفاع عنه فهو في "الخليج الأخضر" يدعو لوحدة الشمل لإنشاده الحق

وتمسكه بالدين يقول:

وحدة الشمل يا شعوب الخليج مطلب الدين بالإخاء الوشيج

تتلاقى الآمال بين ربانا فاسلكوا الدرب مفعما بالأريج

هدف ضمنا لعزة نفس وشموخ، ورفعة، وعروج

أما قصيدة "رصاصة من فلسطين" وكثيرة هي الأشعار التي خصصها باشراحيل للقضية الفلسطينية، حتى أصبح علمًا من أعلام شعراء المقاومة، فقضية فلسطين هي الهم الأكبر لكل عربي مسلم، وقد ظل باشراحيل بشعره السهل الممتنع بالغ العمق والشفافية، فعد شعره في القضية شعرًا يمس القضايا الإنسانية عامة، وقد غاص بشعره في عمق الجرح الإنساني مقاربًا بين القمع الواقع على الفلسطيني، والقمع الذي يواجهه الإنسان في كل مكان وزمان، حيث يواجه إنسان العصر مصيره الوجودي، عاريًا من كل شيء، يخايله الموت بكل صوره في كل مكان، ولا سبيل لمواجهة هذا الموت إلا الإبداع، الذي ينتقل بالوجود من الغياب إلى الحضور، ويواجه به الإنسان كل شيء حتى الموت، ليؤكد باشراحيل بهتافه في بدء القصيدة على تمسكه بالقضية حتى الرمق الأخير يقول:

فلسطيني.. فلسطيني ورب البيت يحميني

قلبتم يا طغاة الأرض أشواكًا.. رياحينى

وبيـن جوانحـى قلـب يظللـنى ويرويــنى

أنا المطعون في أرضي وفي قدسي وزيتوني

لكن هذه الأنا التي تعدد صور الجراح في بداية القصيدة، لا تنسى أن تتوعد الظالم المغتصب في نهايتها، وأن تذكره بماضيها المنير الذي سحق كل مغتصب، فهذه النفس ورغم ما تلقاه من ذل ومهانة في هذا الوطن، ستبقى تدافع عنه، وستبقى مؤمنة بقضيته رغم نكوث العروبة وتخاذلها عن نصرته يقول:

أنا البطل الذي أبلى "بجالــوت" وحطـــين

أنا الشمس التى بزغت على كل الميادين

لبست اليوم مفخرة أعز من النياشين

برغم الجرح يسكننى ورغم الضيم يؤوينى

ورغم الذل في وطنى أقاتل كل صهيوني

سأمحو العار يا قدسي بتفجير... البراكين

وإن نكثت عروبتنا فنور الحق يكفينى

نكبة اليمن

وتهتز هذه النفس الشاعرة الرقيقة شديدة الحساسية والرفق، تجاه ما واجهته اليمن من اجتياح الزلزال(١) الذي راح ضحيته مئات من أبناء الوطن العربي، وأصيب المئات، وزلزل هذا الحدث الجلل نفس شاعرنا، كما زلزلت الهزة الأرضية أركانه وأطاحت بأعمار أبنائه، و"اليمن"

---

(١) زلزال مدينة " ذمار " الذي وقع في شمال اليمن في ١٣ ديسمبر ١٩٨٢ وكانت قوته ٦,٥ درجة وقتل فيه نحو ٢٨٠٠ شخص وأصيب ١٥٠٠ بجروح – الماسح الجيولوجي الأمريكي عن **Wikipedia significant earthquakes of the word 1982**

بلد له مكانته في نفس كل عربي مسلم، إذ هي أول حاضرة في شبه الجزيرة العربية، ومنها انطلقت القبائل العربية القديمة، والعرب العاربة مثل "عاد" و"ثمود" و "طسم" و"جديس" و"جرهم" و"العمالقة" و"أميم" و"قحطان" و"عدنان"، وكان ملوكهم أول من لبس التاج، ومنهم "الملكة بلقيس" ملكة سبأ التي ذكرها القرآن الكريم لما لها من الحكمة ورجاحة العقل، والقدرة على القيادة، وتجلت عبقرية اليمني في بناء القصور والسدود، كسد مأرب الذي بني عام ٨ ق.م فكان معجزة زمنه، وأثرت حضارة اليمن على العالم وذهب البعض إلى أن حضارة اليمن هي أقدم حضارة على الأرض، كما ظن البعض أن هيردوت أصله من يهود اليمن، لكل هذا وغيره من الأسباب؛ جاءت قصيدة باشراحيل تفيض بالاعتزاز والحب والأسى؛ لنكبة جزء عزيز على قلبه من الوطن العربي.

يقول:

يَا أَرْضَ بِلْقِيسَ قَدْ جَاءَتْكِ نَازِلَةٌ ... طَخْيَاءُ أَذْهَبَتِ الْأَلْبَابَ وَالْكَبِدَا

مَادَتْ بِهَا الْأَرْضُ وَانْهَارَتْ مَعَالِمُهَا ... كَأَنَّمَا هِيَ رُوحٌ فَارَقَتْ جَسَدَا

صَنْعَاءُ» وَارْتَجَّتِ الدُّنْيَا مُوَلْوِلَةً ... اللهُ أَكْبَرُ خَطْبٌ أَوْرَثَ الْكَمَدَا

" صَنْعَاءُ» وَافْتَرَقَ الْأَحْبَابُ فِي عَجَلٍ ... وَعَاشَ مَنْ عَاشَ يَبْكِي الْأَهْلَ وَالْولدَا

خَرَّتْ جِبَالُكِ وَانْدَكَّتْ شَوَامِخُهَا ... وَأَصْبَحَتْ كَهَشِيمٍ طَالَ وَانْجَرَدَا

قَدْ زُلْزِلَتْ أَرْضُهَا فِي لَمْحِ بَارِقَةٍ ... وَبَيْنَ أَفْيَائِهَا كَانَ الْهَنَا رَغَدَا

مَشِيئَةُ اللهِ فِي آيَاتِهِ بَدَرَتْ ... وَغَادَرَتْ أَرْضَ بِلْقِيسٍ بِهَا بَدَدَا

تَنَاثَرَتْ جَنَبَاتُ الْأَرْضِ طَاغِيَةً ... وَدَكَّتِ الزَّرْعَ، وَالْبُنْيَانَ، وَالْوَلَدَا

الذُّعْرُ وَالْهَوْلُ وَالْأَقْدَارُ جَارِيَةٌ ... وَالْخَلْقُ زُلْزِلَ مِمَّا شَامَ وَارْتَعَدَا

فَهَلْ هُوَ الْحَشْرُ إِنْ أَشْرَاطُهُ ظَهَرَتْ ... تَبَادَرَتْ، وَتَجَلَّتْ تُعْجِزُ الْمَدَدَا؟

يَلْتَفُّ حَبْلُ الرَّدَى، وَالْبُؤْسُ مُنْتَشِرٌ ... وَالرُّوحُ للهِ تَمْضِي حَيْثُمَا وَعَدَا
لَا يَمْلِكُ النَّاسُ مِنْ أَسْرَارِ قُوَّتِهِ ... يَا رَبّ فَاكْتُبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدَا
يَا أَرْضَ بِلْقِيسَ إِنَّ النَّفْسَ فِي وَجَلٍ ... وَالْعَيْنُ تَنْزِفُ دَمْعًا قَانِيًا جمَدَا
دَارَتْ عَلَيْكِ عَوَادِي الدَّهْرِ جَامِحَةً ... وَبَاتَ وَادِيكِ لِلْأَمْوَاتِ مُلْتَحَدَا
قَدْ يُرْسِلُ الدَّهْرُ أَحْدَاثًا مُرَوِّعَةً ... وَيَمْنَحُ الصَّبْرَ وَالْإِيمَانَ وَالْجَلَدَا
وَلَا يَظَلُّ سِوَى الْمَعْبُودِ مُقْتَدِرًا ... عَلَى الْخَلَائِقِ يَقْضِي أَمْرَهَا أَبَدَا
يَا مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَالتُّرْبُ يَغْمُرُهُ ... نِلْتَ الشَّهَادَةَ إِيمَانًا وَمُعْتَقَدَا
سَقَاكُمُ اللهُ مِنْ مُزْنِ الْجِنَانِ نَدًى ... وَأَرْسَلَ الْغَيْثَ يَهْمِي فَوْقَكُمْ بَرَدَا
فَالْمُؤْمِنُونَ رِدَاءُ الْحَقِّ يَجْمَعُهُمْ ... وَاللهُ مَوْلَى مَنِ اخْتَارَ الْهُدَى سَنَدَا
سُبْحَانَهُ اللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ عِزَّتُهُ ... وَهْو الَّذِي خَلَقَ الْأَكْوَانَ مُنْفَرِدَا

قصيدة صبرا وشاتيلا

حركت مجزرة صبرا وشاتيلا المياه الراكدة لفناني العالم العربي في مناصرتهم لقضايا العروبة والاسلام، وتأثر بها عدد كبير منهم؛ فصنعوا أعمالًا فنية خاصة بها، و كان من بين هؤلاء الفنانين "ناجي العلي، عبد الحي مسلم، ضياء العزاوي، سامي محمد، عدنان يحي، اسماعيل شموط، ناس غليوان..... وغيرهم".(١) أما شاعرنا فإنه لم ينفض يده يومًا من قضايا أمته العربية، ولم يترك حدثًا مر على الوطن العربي، إلا وأرخ له بقصائده في كلمات تقطر حكمة وعذوبة وهو على مدار دواوينه المتتالية يتغنى بهموم العروبة، ويدعو لجمع الشمل ووحدة

(١) مجزرة صبرا وشاتيلا، هي مجزرة نفذت في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في ١٦ سبتمبر ١٩٨٢، واستمرت لمدة ثلاثة أيام على يد حزب الكتائب اللبناني، وجيش لبنان الجنوبي وجيش الاحتلال الإسرائيلي وتجاوز عدد القتلى في المذبحة ٣٥٠٠ قتيل – عن موقع قصة الاسلام "مجزرة صبرا وشاتيلا مؤرشف من الأصل في ١٧/ ١٢/ ٢٠١٦

العرب، ويجعل هذه القضية همه الأكبر، وشغله الشاغل الذي لا يمل من الدعوة إليه، وشحذ الهمم للوصول له ففي ختام قصيدة صبرا وشاتيلا وبعد أن يتوعد بأخذ ثأر هؤلاء الأبرياء الذين قتلوا بأيدي الغدر يقول:[1]

أَيْنَهُ الْإِنْسَانُ فِي أَعْرَافِهِمْ؟ وَيْلَ مَنْ جَارَ وَبَاعَ الذِّمَمَا
وَمَضَى يَجْتَاحُ فِي طُغْيَانِهِ أَنْفُسًا تَحْمِي وَتَرْعَى الْقَسَمَا
أَشْعَلَ الْحِقْدَ وَمِنْ غَلْوَائِهِ كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ أَضْحَى عَدَمَا
إن « شَاتِيلَا» وَ« صَبَرَا» اتحدا فَوْقَ نَصْلٍ غَادِرٍ وَالْتَحَمَا
مَنْ رَأَى لَيْلَ الْأَسَى مُرْتَسِمًا نَثَرَ الْهَوْلُ عَلَيْهِ الرِّمَمَا
صُوَرٌ مَا زَالَ فِيهَا نَابِضٌ يَسْأَلُ الثَّأْرَ وَيُخْفِي الْأَلَمَا

لبنان "عروس الشرق"

أما "لبنان" عروس الشرق التي شوه جمالَ قسماتها كثرةُ ما لقيت من نكبات بأيدي أبنائها وحسادها، فقد كان لها نصيب كبير من الأشعار في العصر الحديث منذ "أمير الشعراء أحمد شوقي" حين نشرت له قصيدة "لبنان" في جريدتي المقطم والأهرام صيف ١٩٢٥، وكذلك قصيدة "نكبة بيروت" التي يندد فيها بضرب الأسطول الطلياني لبيروت، وصولًا إلى "أحمد عبد المعطي حجازي" الذي عبر عن أحلام التحرر التي تبنتها حركة اليسار اللبناني في قصيدة "صبي من بيروت" ثم كانت الحرب اللبنانية الأهلية (١٩٧٥-١٩٨٩)، موضوعًا حاضرًا مهمًا في الشعر العربي وكان أكثر من عنى به "نزار قباني" ربما لأنه فقد معشوقته وزوجته "بلقيس" جراء تفجير هز السفارة العراقية في بيروت؛ مما جعله يخلد هذا الحدث في ديوان من عيون شعر المراثي هو "رثاء بلقيس" ثم توالت أشعاره بعد هذا في بيروت فكتب "إلى بيروت الأنثى مع حبي" ١٩٨١، و"بيروت والحب والمطر"..... وغيرها.

---

[1] الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل - المجلد الأول ص ١١٦

كما كتب عن بيروت "جبران خليل جبران" الذي ولد في لبنان في بلدة "بشرى" وهاجر ووالدته إلى بوسطن بالولايات المتحدة لكن حنينه ظل يراوده طوال حياته للعودة لوطنه الأم، وافتتح "محمود درويش" قصيدته الشهيرة " في مديح الظل العالي " برثاء بيروت.

لقد ظلت "لبنان" مهوى حنين الشعراء، وكان من الطبيعي أن يخص "عبد الله باشراحيل" لبنان بالعديد من القصائد على طول رحلته مع الشعر فكتب لها قصائد عديدة منها قصيدة "لبنان" وقصيدة "الأرز الذبيح".

يقول في قصيدة لبنان:

مَنَازِلَ الْوَحْيِ إِرْثِي الْيَوْمَ لُبْنَانَا وَاسْتَمْطِرِي الصَّبْرَ مِنْ عَيْنَيْكِ

مَالَتْ عَلَيْهِ الْأَعَادِي فِي شَرَاسَتِهَا وَقَدْ أَحَالَتْ عَرُوسَ الشَّرْقِ بُرْكَانَا

تَنَاوَشَتْهُ يَدُ الطُّغْيَانِ ..ظَالِمَةً وَبَدَّلَتْ أَمْنَهُ خَوْفًا ..وَأَحْزَانَا

وَكُلَّمَا لَاحَ فِي الْآفَاقِ مَأْمَنُهُ يَجْتَثُّ مِنْهُ الرَّدَى شِيبًا وَوِلْدَانَا

لكنني سأتوقف عند عتبة عنوان "الأرز الذبيح" وقد التصق وصف الذبيح في الذهن العربي الإسلامي بسيدنا "إسماعيل" عليه السلام وأبوه إبراهيم خليل الله، والرؤيا المشهورة، التي طالب الله فيها نبيه إبراهيم بذبح ابنه. وفي استخدام لافت يختار د/ عبد الله هذه اللفظة دون غيرها في إشارة دالة على الحرب الأهلية التي ذبحت فيها لبنان بأيدي أبنائها، واحترقت أشجار الأرز في كل الربوع دون أن يلتفت اليها أحد، ولقد استخدمت شجرة الأرز في الأشعار الأوروبية كرمز للخلود واستحالة الفساد(١)

فإذا جمعنا بين الدلالتين اتضح لنا ما عناه باشراحيل من أن أبناء لبنان قد ذبحوا بأيديهم، رمز الخلود والطهر، وبهذا نشروا الفساد والبغض في ربوع عروس الشرق، وفي القصيدة مقارنة

---

(١) انظر إلى رمزية شجرة الأرز في قصيدة فيكتور هوجو "أسطورة القرون" – وانظر إلى رمزيتها في ملحمة جلجامش وفي عرش الآلهة ويربط شجر الأرز بين "سفر التكوين" "حواء" و "نهاية العالم"

بين لبنان قبل وبعد المأساة في موازنة تجعل القارئ يرسم صورتين متناقضتين يقربان في خياله شناعة الفعل ويجسدان عمق المأساة يقول باشراحيل في بداية القصيدة:

مهج تذوب وخافق يتحسر ورياح (يعرب) عاتيات صرصر
لا تدرك الأبصار بين عجاجها أجحافل الرومان عادت تزأر؟
أم هجمة نكراء في وضح الضحى أمسى الفؤاد لهولها يتحسر
أم عاديات الروض ترجم روضة لاح الأمان لها وهش البيدر

ثم يقول:

كان الربيع يلوح فيك منسقًا وغدا الأسى في جانبيك يزمجر
كانت زهورك بالندى فواحة وإذا النوائب فوق أرضك تسجر
كانت تمدك بالجمال طبيعة أغصانها كحسانها تتبختر
كم حار فيها عاشق متوله يرنو إليها، والمياه تثرثر

وكعادته يحث باشراحيل جموع العرب على التيقظ، ويدعوهم إلى الصحوة ولم الشمل حتى لا نكرر مأساة فلسطين السبية التي صادرها اليهود، واستباحوا أرضها وتبجحوا وتسلطوا وتجبروا يقول: (١)

منازل الوحي إرثي اليوم لبنان واستمطري الصبر من عينيك ريانا
مالت عليه الأعادي في شراستها وقد أحالت عروس الشرق بركانا
تناوشته يد الطغيان.. ظالمة وبدلت آمنه وفا.. وأحزانا
وكلما لاح في الأفاق مأمنه يجتث منه الردى شيبا وولدانا

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الأول ص ١١٨، ١١٩ قصيدة الأرز الذبيح

الكويت:

في الحادي عشر من محرم ١٤١١ ه الثاني من أغسطس ١٩٩٠ استولت القوات العراقية على الكويت واستمرت العملية العسكرية يومين، وانتهت بالاستيلاء على كامل الأراضي الكويتية، في الرابع من أغسطس، ثم شكلت حكومة صورية برئاسة العقيد "علاء حسين" خلال الفترة من الرابع إلى الثامن من أغسطس، ثم أعلنت الحكومة العراقية يوم التاسع من أغسطس ضم الكويت للعراق، وإلغاء جميع السفارات الدولية في الكويت، الأمر الذي شكل مأساة عربية ألهمت العديد من الكتاب والشعراء الذين قدموا العديد من الأعمال الأدبية فأصدر د. سليمان الشطي "رسالة لمن يهمه أمر هذه الأمة" وصدرت مجموعة من القصائد لدكتور خليفة الوقيان كما صدر لإسماعيل الفهد "إحداثيات زمن العزلة" وصدر أيضًا "الحواجز السوداء"، و "يوميات الصبر المر"، و "مقطع من سيرة الواقع" للأديبة "ليلى العثمان".... إلخ.

فقد مثل غزو العراق للكويت صدعًا بالغ الأثر في الأمة العربية، والنفوس السوية، التي لم تستطع استيعاب أن دولة عربية شقيقة قد جارت بكل جبروت وعنفوان على شقيقة لها في نفس المنطقة، وامتلأت سماء الكويت بسحاب مثقل بالأدخنة جراء احتراق آبار النفط وقذائف الغزو العراقي، وامتلأت معها الأذهان بالأسئلة التي لم تجد إجابات شافية وتكاتفت معظم دول المنطقة لرد الظلم عن الكويت.

وتحركت مع هذا كله هذه النفس الشاعرة التي تشبعت بحب الوطن، وشبت على شهامة الفروسية في مناصرة كل ضعيف، ومساندة كل الأقطار العربية التي قد يصيبها حادث أو تلم بها فاجعة، أو الدفاع عن قضايا إنسانية في المقام الأول قبل أن تكون قضايا عربية أو إسلامية، وإن كان المنطلق العقائدي "أولوية" ينبعث منها معظم شعر د/ عبد الله باشراحيل، غير أن نفسه التي وسمت بخصائص الفرسان هبت للزود عن الحق، والدفاع عن الحرمات، والتنديد بهذا العدوان يقول في قصيدة كويت لا تخف:

غدر تبدى وانكشف ماذا أقول وما أصف ؟
المجرمون تنكبوا نهج العدالة والشرف
لا رعت يا أرض الكويت ولا تكانفك الجنف
كرب تطول وحقدها في روضنا يا ما عصف
لا هدأة الأحلام تنعم بالطرائف والطرف
سيان أن نبدي بما ننوي وألا نعترف
خيط ضبابي أحاط بنا ولما ينصرف
يخفي المصير بما يذاع وما يشاع ويقترف
أشراط مذبحة تحاك على الخفاء وتنكشف
من يسأل الأحزان عنها؟ من يقول؟ ومن يصف؟

واستمع عزيزي القارئ لهذه الصورة شديدة البلاغة التي وصف بها باشراحيل حيرة كل عربي إزاء تصرف "صدام حسين" حين قال في المقطع السابق

"خيط ضبابي أحاط بنا ولما ينصرف"

هذا الضباب الذي يحول دون الرؤية العينية والذهنية للأمور، ويثير حالة من تشوش الذهن وعدم الفهم، ضباب أخفى المصير المنتظر، بعد أن أصبح الأخ يجور على أخيه، لكن هذه النفس المجبولة على الكفاح والتمسك بالأمل، هذه النفس المحاربة دائمًا وأبدًا وهذا الفارس الذي لا يستسلم مهما عاندت الظروف، لأن عقيدته بنيت على الجهاد في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الحق، تدعوه في نهاية القصيدة إلى خلق الإرادة في نفس كل كويتي إذ يقول:

صبرًا جميلًا موطني وانفض يديك ولا تخف
ما دام فجرك باسمًا وربيع روضك ما اختلف

مهما تعاظمت الكروب وساد ليلك واعتسف
فلسوف تجتاز الخطوب وتزدري تلك الجيف
ولسوف تنعم بالأمان وسوف تعليك الصدف

تونس الخضراء:

وكان لتونس الخضراء حظ من قصائد باشراحيل في ديوان "الهوى قدري" فكتب لها "يا تونس الخضراء" وهي قصيدة وصف ناعمة ملؤها الرقة والموسيقى والجمال؛ إذ يصف فيها جمال تونس الخضراء وسحر طبيعتها الخلابة يقول:

خضراء.. يا فتانة الأقمار يا قبلة الرواد والزوار
ما كنت أعلم أن حبك آسر تحتار فيه بدائع الأشعار
حتى أتيت وبي إليك تشوق كتشوق الأطيار للأزهار
فرأيت فيك عوالما فتانة من حسنها قد ألهمت أفكاري
هذي رباك الوارفات ظليلة ومن الجمال، تأزرت بإزار
فكأنما هي لوحة سحرية رسمت معالمها يد الأقدار
الطير خفاق الجناح مغرد يغشاك بالآصال والأسحار
يا روع واديك ازدهى بخميلة وحنا على العشاق والسمار
ماذا صنعت بعاشق بقي الهوى في قلبه سرا من الأسرار
وافاك عاصفة به أحزانه وتجيش بين ضلوعه كالنار
يا تونس الخضراء هذا معزفي لك قد غدا يشدو مع الأطيار
ليصوغ من حلو الكلام قصائدًا لك.. يا ديار الأهل والأبرار
فإذا عجزت عن البيان فأجملي وتفضلي وتقبلي أعذاري

أرض الكنانة:

ولما كان باشراحيل ينطلق في إبداعه الشعري عادة من منطلق عقائدي، فمرجعيات باشراحيل الإسلامية أولًا والعربية ثانيًا محرك قوي للإبداع لديه، ولما كانت "مصر" أيقونة الكتب السماوية جميعًا فقد ذكرت في العهدين "القديم" والجديد" ٦٩٨ مرة وذكرت صراحة في القرآن الكريم في أربعة مواضع، حيث يقول المولى عز وجل في محكم التنزيل:

﴿و قَالَ الَّذِى اشترَاهُ مِن مِّصرَ لامْرَأَتِهِ أَكرِمِي مَثْوَاهُ عَسى أَن يَنفَعَنَا أَو نَتَّخِذَهُ وَلَداً وكذَلِك مَكَّنَّا لِيُوسف فِي الأَرْضِ ولِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ والله غَالِبٌ عَلى أَمْرِهِ ولَكِنَّ أَكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)

وقال سبحانه:

﴿ فَلَمّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ﴾(٢)

وقال جل شأنه:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٣)

وقال عز وجل على لسان فرعون:

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٤)

كما ذكرت مصر إشارة قرابة الثلاثين مرة في مواضع أخرى من القرآن الكريم، فهي مهبط الأنبياء والأماكن المقدسة، واعد الله عليها كليمه موسى عليه السلام من جانب الطور

---

(١) سورة يوسف اية ٢١

(٢) سورة يوسف آية ٩٩

(٣) سورة يونس آية ٨٧

(٤) سورة الزخرف آية ٥١

الأيمن لإنزال التوراة، وأوى إليها عيسى بن مريم وأمه البتول، وعاش على أرضها يوسف عليه السلام، وهي أرض العلماء والفلاسفة والزهاد، لذا -وغيره الكثير- اختصها باشراحيل بالعديد من القصائد التي كانت حاضرة دائمًا كلما استشعر شاعرنا خطرًا أو أراد توجيه رسالة لشعبها الذي تربطه به علاقات كثيرة و قوية من هذه القصائد "مصر بين الأمس واليوم – ناديت مصر – مصر الثورة – مصر مبارك – مصر – مصر وأثيوبيا والسد" وربما كانت هناك قصائد حديثة لم تنشر بعد يقول باشراحيل في قصيدة "مصر مبارك":(١)

مِصْرَ الْعُرُوبَةِ أَنْتِ بَهْجَةُ رُوحِي ... فِي غَيْرِ حُسْنِكِ لَا يَطِيبُ مَدِيحِي
أَنْتِ الشُّرُوقُ إِذَا ادْلَهَمَّ ظَلَامُنَا ... وَجَمِيلُ آمالٍ وَنَبْضُ طُمُوحِ
نَشْوَى الْبَلَابِلِ غَادَرَتْ أَوْكَارَهَا ... تَشْدُو بِأَلْحَانِ الصَّبَاحِ الْمُوحِي
وَخُطَى النَّسَائِمِ بِالزُّهُورِ تَرَاقَصَتْ ... وَتَمَايَلَ الصَّفْصَافُ بالتَّرْنِيحِ
وَكَأَنَّ نَهْرَ النِّيلِ يَسْبَحُ بالرُّؤَى ... لِمَوَاكِبِ الْإِينَاسِ وَالتَّرْوِيحِ
أَرْضُ الْكِنَانَةِ لِلشُّعُوبِ مَنَارَةٌ ... وَحَضَارَةٌ لِلْعَالَمِ الْمَفْتُوحِ
تَلْقَى الْفَرَاعِنَةَ الْمُلُوكَ وَفِيهِمُ ... سِرُّ الْخُلُودِ وَإِنْ مَضَوْا بِالرُّوحِ
وَلِرَوْعَةِ الْأَهْرَامِ فِي بُنْيَانِها ... لُغَةٌ تَبُوحُ بمَجْدِ كُلِّ ضَرِيحِ
هِيَ بَعْضُ إِعْجَازٍ يَحَارُ بِهِ الْحِجَى ... وشُعَاعُ أَحْقَابٍ وَرَجْعُ صُرُوحِ
مِصْرَ الْعُرُوبَةِ أَنْتِ فِي أَحْدَاقِنَا ... وَجْهُ الْجَمَالِ وَسِحْرُ كُلِّ مَلِيحِ
نَادَتْ بتَمْجِيدِ الْإِلَهِ مَسَاجِدٌ ... وَكَنَائِسٌ لِلدِّينِ وَالتَّسْبيحِ

وكما نرى فقد جمع باشراحيل في مدحه لمصر معظم مظاهر التحضر والجمال فتغني

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ١٢٤

ببلابلها وهوائها الذي يتمايل بالزهور، وتراقص شجرة الصفصاف وهي من الأشجار التي يشتهر بها الريف المصري، والتي تعد رمزًا تغنى به كل شاعر وأديب مصري كما تغنى بنيلها الذي يسبح بالرؤى، وبالحضارة الفرعونية التي حيرت العقول إثر إعجازها الذي بهر العالم، ولم يزل، وبالسماحة الدينية على أرضها فهي الأرض التي احتضن فيها الهلال الصليب، وكانا شعارًا لعلمها لفترات طويلة، وعقل باشراحيل الذي تشبع بتاريخ أمته يعي جيدًا أن مصر هي صمام الأمان لهذه الأمة، ومحرك الإرادة، وموحد الصف منذ هزيمتها للتتار والصليبين وللصهاينة في نصر العبور، لذا ففي نهاية القصيدة يدعو قائدها في هذا الوقت الرئيس الراحل "محمد حسني مبارك" لتوحيد كلمة العرب، وتجميع حكام العروبة لتمثل هذه الوحدة، سفينة نوح التي تنجو بالعرب من الطوفان الغربي القادم، وتحاول إعادة وجه الماضي الزاهر الذي يهيمن ببهائه على مخيلة باشراحيل ولا يفارقها يقول في ختام القصيدة: (١)

يَا مِصْرُ يَا حِضْنَ الْأَمَانِ يَضُمُّنَا ... بِشَغَافِ قَلْبٍ صَادِقٍ وَصَرِيحِ
فَلْنَنْزِعِ الْخُذْلَانَ عَنْ أَوْطَانِنَا ... وَنُصَوِّبِ الرُّؤْيَا بِنُصْحٍ نَصِيحِ
لِنُعِدْ إِلَى الْأَمْسِ الْعَظِيمِ بَهَاءَهُ ... بِغَدٍ كَأَلَاءِ الشُّمُوسِ صَبُوحِ
يَا أَيُّهَا الْبَطَلُ الرَّئِيسُ :شُعُوبُنَا ... وَجِرَاحُهَا تُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ
هَا قَدْ تَنَاهَى الصَّبْرُ فِي أَعْذَارِنَا ... وَصَحَتْ عَزَائِمُ عُمْرِنَا الْمَكْبُوحِ
فَاشْدُدْ بِحُكَّامِ الْعُرُوبَةِ أَزْرَنَا ... مَا لِلنَّجَاةِ سِوَى سَفِينَةِ نُوحِ

وفي قصيدة "مصر بين الأمس واليوم" يرثي الشاعر أحوال مصر في نهاية حكم "حسني مبارك" وتفاقم الأزمة وكثرة التظاهر ضد سياسته التي لم تستمع لصوت الجموع حتى علا صوت الجياع، ولم تعبأ الحكومة بمطالب الشعب واشتهرت الجملة التي قيلت على لسان "مبارك" بعد رؤية الجماهير يهز صوتها أركان الميادين والشوارع، والتي عنت أن ما يفعله الشعب محض هراء

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ١٢٥

وتسلية، الأمر الذي أوقد النار في الهشيم، وزاد من حدة التظاهر الذي كان الإرهاص الأول لثورة يناير وهو الأمر الذي لم ينتظره العالم من حكمة مبارك المعهودة في سنوات حكمه الأولى، والتي تخلى عنها كثيرًا في نهاية هذا الحكم، وباشراحيل يقف كعادته إلى جوار الشعوب يشد أزرها ويواسي ضعفها، ويبث فيها الأمل، ويحثها على الصبر يقول: (١)

كَمْ قد مَدَحْتُ ولم أكُنْ أَدْري ... أنّ الجُحُودَ خَلائِقُ الكِبْرِ
خابَ المُؤمِّلُ فيكَ واأَسَفَا ... بِعتَ القَريبَ وللعِدا تَقْرِي
مِصرُ التي غَنّيتُها زَمَنًا ... الجَورُ يَسكُنُها ويَستمْرِي
مصرُ التي أعْلَتْكَ قد أَلِمَتْ ... ولَسوفَ يَعْقِلُ أمرَهُ المِصري
مصرُ التي الأفلاكُ مَنْزِلُها ... أَمْسَتْ تَنامُ على لَظَى القَهْرِ
صوتُ الحِياعِ أقَضّ مَضْجَعَها ... والدَّاءُ في الأَجْسامِ يَسْتشرِي
كَمْ حَاكِمٍ في الأرضِ تحكمُهُ ... أَهْواؤه ..وزَمَانُه يُزْرِي
يُغري به التّرهيبُ مُقتدرًا ... والظُّلمُ يُورثُ نِقمةَ الدَّهْرِ
يا مصرُ مَا زِلنا علَى أملٍ ... هيّا أَعيدي النُّورَ للفَجْرِ

ومع بدايات ثورات الربيع العربي انتاب معظم مثقفي المنطقة الخوف والقلق على مصير الشعوب، فعادة ما تخلف الثورات الضحايا، ويعقبها الدمار والتخبط والضياع لكن ثورة الخامس والعشرين من يناير والتي وصفت بأنها "ثورة اللوتس البيضاء" برهنت على تحضر وعظمة الشعب المصري، الذي خاطبه باشراحيل أثناء الثورة وفي أعقابها مباشرة قائلًا:

خوفي على مصر الحبيبة من غد
يا رب لطفك من ضلالات الردى

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الثالث ص ٢٠٥

شعب الكنانة أيها الشعب الندي
لا خانك العقل الحكيم لتهتدي
هيا أعيدوا الحب للشعب الصدي
إني أناشدكم برب المسجد

حتى في قضية "السد" التي احتدم وطيسها بين مصر وإثيوبيا يدلي باشراحيل بدلوه فيها موضحًا جور أثيوبيا، وعدم أحقيتها في إقامة السد، وفي كل قصائده لأرض الكنانة يَظهر حرص باشراحيل على "مصر" والمصريين وخوفه الشديد عليها ودعمها في كل ما يُلم بها من أحداث تثير ضجة الأوساط الثقافية، أو تُحدِث بلبلة في المحافل الدولية، وهو في نهاية قصيدة "مصر وإثيوبيا والسد" يقول:

مصر والنيل مثل روح ونفس روحها النيل تفتدي الروح جلة
إن (إثيوبيا) تمادت وجارت وترى النهر ملكها أي ذلة
أي عدل وأي عقل تصادى؟ أي دين يجيز ملك الأهلة ؟

السودان

وكان لدولة السودان نصيبها من أشعار باشراحيل، شاعر العروبة والإسلام، الذي لم يدع قضية شائكة في محيط وطنه العربي، إلَّا وخصها بقصيدة تؤرخ للحدث وتشارك في تصوير الأزمة وأحيانًا في وضع حلول لها، وفي قصيدة "السودان والبشير"، يسجلُ باشراحيل اعتراضه على الحكم الصادر من محكمة الجنايات الدولية، بتوقيف وجلب الرئيس عمر البشير(١)، رئيس الجمهورية السودانية العربية متهمًا بأنه مجرم حرب بناء على ما حدث في

(١) (عمر حسن أحمد البشير) رئيس جمهورية السودان السابق من " ١٩٨٩ - ٢٠١٩ " والقائد الأعلى السابق للقوات المسلحة السودانية، ورئيس حزب المؤتمر الوطني، وصل إلى السلطة بانقلاب عسكري خططت له الجبهة الإسلامية القومية المنشقة عن جماعة الإخوان المسلمين في السودان حيث تمكنت من الإطاحة

إقليم دارفور، معتبرًا أن اتهامًا كهذا لرئيس دولة عربية، ما هو إلا جور وظلم و تدخل سافر من أمريكا ودول الغرب لهيمنتها على هذه المحاكم يقول دكتور عبد الله:

قيل دارفور سامها كل خسف وأشاعوا بأنها تستجير
أصدروا الحكم بالإدانة ظلمًا حيل الزيف في الطغام تبير
كلنا نرفض القرار لئلا يرد السجن حاكم ووزير
إنها غضبة الشعوب فهيا نطرد اليأس في زمان يمور
يا زعيم الأباة يهنيك دهر ضاحك والرضا إليك يشير
فانشر النور في دروب الحيارى فالزعيم الحكيم فينا أثير
وطن النيل لا غشتك الأعادي بل تغشاك ما حييت السرور

الجزائر

غنّى باشراحيل للجزائر أيضًا ومدح زعيمها "عبد العزيز بوتفليقة" وفي القصيدة يذكر

بالحكومة المدنية المنتخبة برئاسة الصادق المهدي، وتولى عمر البشير منصب رئيس مجلس قيادة ثورة الإنقاذ الوطني في ٣٠ يونيو ١٩٨٩، وجمع بين منصب رئيس الوزراء ومنصب رئيس الجمهورية حتى ٢ مارس٢٠١٧عندما فصل منصب رئيس الوزراء وفقًا لتوصيات الحوار الوطني السوداني وعُين بكري حسن صالح رئيسًا للوزراء. وفي ٢٦أبريل ٢٠١٠ أعيد انتخابه رئيسًا في أول «انتخابات تعددية» منذ تسلمه السلطة. وتعد فترة حكمه الأطول في تاريخ السودان الحديث، بعد احتجاجات واسعة في الشارع السوداني أعلن الجيش السوداني تولي المجلس العسكري برئاسة وزير الدفاع أحمد عوض بن عوف مقاليد السلطة في ١١ أبريل ٢٠١٩، مزيحًا البشير عن رأس السلطة. ووجه المعارضون انتقادات إلى السلطات إبان حكم البشير بدأت من الانقلاب العسكري عام ١٩٨٩، وحله للحكومة المنتخبة آنذاك، واتهامات المحكمة الجنائية الدولية التي أصدرت مذكرات اعتقال بحقه في مارس عام ٢٠٠٩، ويوليو عام ٢٠١٠، تضم خمس جرائم ضد الإنسانية وجريمتي حرب و٣ جرائم إبادة الجماعية للإجراءات العسكرية لحكومته أو موالين لها في البلاد سواء في دارفور أو في جنوب السودان. كما وضعت أمريكا السودان في عهد البشير في قائمة الدول الراعية للإرهاب وفرضت عقوبات على السودان، حيث قدمت السودان الدعم والتسليح لحركة المقاومة الإسلامية في فلسطين.

"الجزائر" بلد المليون ونصف شهيد فهي أرض الثوار، وبلد الأبطال، وهو في مدحه للجزائر زعيمًا وشعبًا، لا ينسى أن يذكر أتراح أمته العربية، وما أصبحت فيه العروبة جراء الأدواء التي تصرعها، ويدعو هذا الزعيم العربي كما فعل مع كل زعماء العروبة الذين نالوا حظًا من مدح "باشراحيل" إلى توحيد الصف، وجمع الشمل، وكأنه يتخذ من هذا المدح زريعة لمعالجة همه الأكبر، وشغله الشاغل، ألا وهو جمع الشعوب العربية والدعوة إلى وحدتها واتحادها، فهو لا يترك فرصة إلا ونبَّه من غزو الغرب وفرض هيمنتهم على ربوع الوطن العربي، هذه الهيمنة التي أصبحت لها أشكالٌ عدة، ولم تعد قاصرة على الاحتلال المسلح، فمنذ وقت غير قليل سلك العالم الغربي طرقًا أخرى لفرض الهيمنة، والتحكم في شعوب العالم وانتشرت حروب الجيل الرابع بخطرها الذي تضيع تحت وطأته كل معالم الهوية العربية، وربما كان حرص باشراحيل في تمسكه بكل مظاهر الحفاظ على اللغة والأصالة، ناشئًا من خوفه الشديد على انطماس هويتنا العربية العريقة يقول في قصيدة صوت الجزائر:

أرض العروبة والإسلام من قدم ... منذ الفتوح وتاج النصر يعليها
منها الرجال وفيها العلم منبثق ... منها المفاخر تسمو في معاليها
سنا الجزائر أقمار محلقة ... تضيء رغم أعاديها وشانيها
أهل البطولات من ينسى بسالتهم ... وللدماء وعود في نواحيها؟
كتابهم في جبين الدهر مؤتلق ... يعلم المجد للأحرار يبنيها
نضالهم ما خبا يوما وقد خلبوا ... الدنيا وشقوا دروبا عز ماشيها
لم يرهبوا الموت أو يوهي عزائمهم ... هول السلاح وقد صدت أعاديها
أهلوك يا بلد المليون قد رفعوا ... رأس العروبة مذ جدت مساعيها

ويواصل "باشراحيل" مدح الشعب وبسالته ثم مدح الرئيس "عبد العزيز بوتفليقة" إلى أن يقول:

يا قائدًا أمة للمجد ظامئة يكبل الجهل والفوضى أياديها
تظل تحتقب الآلام في وهن والخوف والذل والأوهام تجنيها
هذي العروبة والأدواء تصرعها عز الشفاء فقل لي من يداويها ؟
يا ألف مليون عقل كم يؤرقنا أن العروبة نامت عن دواهيها

فباشراحيل يحلم بدولة للفكر العربي تعود بها حضارة العرب وهو القائل:

دولــة الفــكر تعــالي نشعــل العــرب لآلـي

لكن في عالم تحكمه أمريكا التي تتقيها شعوب الأرض، وفي نفس الوقت تزدريها لسفاهتها وسفاهة أفعالها، يشجعها غفلة الشعوب العربية التي تعيش في مدن الجهالة التي غفا فيها التاريخ، بين شعوب عربية أصبحت تكرس للفرقة والعداوة والبغض يقول باشراحيل عن أمريكا:

شعوب الأرض خوفا تتقيها ورغم نكالها كم تزدريها
وما فعلته أمريكا بقومي يفيض سفاهة منها وفيها

ويقول عن الأوطان العربية

كالذي آنس أفعى بزعاف السم تسعى

ويقول:

غفا التاريخ في مدن الجهالة وقد يصحو إذا صحت النبالة

لكن باشراحيل لم يقتصر ذكره للبلدان والعواصم على الدول العربية، فهناك مدن أجنبية عريقة سافر إليها ووصف حالته النفسية بعد زيارتها، فشاعرنا رحالة يحب السفر والتنقل، إعمالًا للحكمة القديمة عن فوائد السفر، المعروفة والمتأصلة في الوجدان العربي، ومن أشهر هذه المدن "لندن" التي حضرت مرتين في عتباته النصية في قصيدة "لندن" و"عشق لندني".

ولم تنبهر عين باشراحيل بمظاهر المدنية في لندن، لم يعشق جمودها وبرودتها وضبابية أجوائها، فقد جاءت حقيقتها عكس هذه الصورة التي رسمها لها في مخيلته يقول: (١)

أمس في لندن قد حطت رحالي بعد أسفار طوال وارتحال
جئتها أحمل عن أفيائها صورا تملأ عقلي وخيالي
فإذا بي عندها في سأم واكتئاب، وانفعال وملال
أينما وجهت طرفي صور من لياليها و يا بؤس الليالي
أجمال؟ أين منها موطني مكة الفيحاء، ينبوع الجمال
وهي لو تدري شموخ خالد حرر الإنسان من كل عقال
وطن العز.. وساحات العلا قلعة الإيمان في وجه الضلال

إنه أصدق الحب وأشده، هذا الذي يأخذ الحبيب من كل جمال يحيط به، إلي حيث حبه الحقيقي، إن وطنية باشراحيل وتعلقه بعروبته وإسلامه لا يشوبها شائبة، ولا يمكن أن يغيرها شيء زائل زائف مما يبهر غيره أو يغر سواه انه عاشق يذوب شوقًا لبلاده ويعتريه السأم والملل والاكتئاب في بعاده عنها.

باريس وجاك شيراك

ويتخذ باشراحيل من شعره منبرًا؛ لرفع الظلم الواقع من المجتمع الدولي على قضايا العروبة، وينتهز فرصة تعاطف رئيس فرنسا "جاك شيراك" مع قضايا الأمة العربية، مغلبًا الجانب الإنساني على الدور السياسي، مطالبًا إياه برد الظلم عن الدول العربية، بمخاطبة الضمير العالمي في القضايا العربية الشائكة كالقضية الفلسطينية يقول:

باريس ردي الظلم عن أرض العروبة وتجردي سيفًا عن الأمم السليبة

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الأول ص ٦٨

غابت ترانيم البلابل والرؤى ومدائن أضحت مناظرها كئيبة
ساد السواد ورحلة الدمع التي لفت صحاري الشرق واستوحت غـروبه
ونسائم ثكلى تمر على الردى والريح تعبث والضمائر مستهيبة
قد صوحت أغصانها وتناوحت أطيارها تأسى على جلل المصيبة
تحنو القبور على الأباة كأنها صب يشيع سنا الحبيبة

وهكذا يمثل التغني بالأقطار العربية سيمفونية عشق "باشراحيل" عشقًا لكل ما هو عربي أصيل، وانتماءً خالصًا لقضايا الأمة العربية والإسلامية، ودعوات لا تكل ولا تمل من المطالبة بحقوق العروبة الضائعة، واتحاد الدول العربية والتمسك بكل مظهر يحافظ على الهوية، و يعيد الوجه المشرق للحضارة العربية والإسلامية في أوج سطوع شموسها الغرر.

العشق المكي " أم القرى "

إن غرام باشراحيل بموطن نشأته " مكة المكرمة " أكبر من أن تحصره كلمات أو استشهاد ببعض أبيات، فلا يخلو ديوان من دواوين باشراحيل إلا وجاء به حضور للقلب النابض بداخله "مكة" المكان الأقدس، والأقرب لقلب كل مسلم من الخليج إلى المحيط، تهفو إليها الأفئدة؛ فبها قبلة المسلمين وبيت الله الحرام الذي تحلم به الأعين وتناديه القلوب "الكعبة الشريفة" وحجرها الأسود الذي حملته أطهر الأيادي؛ يد نبينا المصطفى، لذا حجزت عناوين قصائد دكتور/ عبد الله باشراحيل لمكة الكثير من الأماكن فكتب لها: "أم القرى – أهل مكة المكرمة – بين جدة ومكة – موطن الهدى – نور من البيت..... إلخ".

يقول: (١)

مَكَّةُ النُّورُ حِينَمَا انْتَشَرَ النُّورُ وَعَادَ الْبَشِيرُ بالْأَمْجَادِ

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الأول ص ٩٧

وَاسْتَقَامَ الْأَمَانُ وَارْتَفَعَ الصَّوْتُ قَوِيًّا، وَهَادِرًا فِي الْبَوَادِي
فَإِذَا نَحْنُ بِالْيَقِينِ وَجَدْنَا عِزَّةَ الْحَقِّ فِي بُلُوغِ الْمُرَادِ
وَحَكَمْنَا الْأَمْصَارَ فِي سَالِفِ الْعَهْدِ بِبَأْسِ الْآبَاءِ... وَالْأَجْدَادِ

ويقول: (١)

هَذِي ذُرَى مَكَّةِ الْإِسْلَامِ شَاخِصَةٌ تَبَارِكَ الْخَطْو إِنَّ الْخَطْوَ مَأْجُورُ
فَامْضُوا إِلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ وَاتَّحِدُوا وَخَلْفَ رَكْبِ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى سِيرُوا
كَفَى الْعُرُوبَةَ وَالْآلَامُ تُوجِعُهَا أَنْ سَادَهَا -الْآنَ- تَشْتِيتٌ وَتَغْرِيرُ
قَدْ طَالَ لَيْلُ الْأَسَى، طَالَتْ دَيَاجِرُهُ وَعِنْدَنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ تَبْشِيرُ

(١) نفسه ص ١٠٣

الموسيقى غذاء الروح
جولة في قصائد

حطمت قيثارتي – فيروز قيثارة الشرق – الموسيقى الناي – أنفاس الناي

لا شك أن الغالبية العظمى من شعراء الشعر العمودي "الخليلي" الأوزان، لديهم أذن موسيقية، وذائقة مميزة في الاستماع إلى الموسيقى، وانتقاء أروع أشكالها الكلاسيكية، فالموسيقى والشعر -لا سيما العمودي منه- روح وجسد، وقد قرأت قسمات وجه شاعرنا "دكتور باشراحيل" حين كان يستمع للموسيقى في دار الأوبرا المصرية في الاحتفالية التي أقيمت بمناسبة إصدار المجموعة الكاملة لأشعاره، وتوقفت عند إحساسه بالنغم وحركة الأوتار. وكيف تهيم هذه النفس التي تمتلئ بالإحساس المرهف وفيض المشاعر الصادقة التي تتحرك لكل جميل، وفي مقطوعة غاية في الروعة والرقة والإيجاز غير المخل يُعرف باشراحيل وقع تأثير الموسيقى على النفوس الراقية في مقطوعة بعنوان

"الموسيقى": (١)

كَمَزِيجِ الْهَمْسِ إِذَا مَا رَقَّ
كَلَفْحِ نَسِيمٍ هَبَّ
يَمُرُّ عَلَى شِرْيَانِ الْحُبْ
كَنِدَاءٍ يَتَسَلَّلُ كَالطَّيْفِ إِلَى الْأَحْلَامِ
وَيَبْعَثُ لَحْنًا يَتَجَسَّدُ فِيهِ النَّبْضْ
يُشْعِلُ فِي الْأَعْمَاقِ اللَّوْعَةَ
حِينَ تَئِنُّ صَدَى الْأَنْغَامْ
أَوْ حِينَ تَشِنُّ الْآهَةُ فِي تَجْوِيفِ الصَّدْرِ
لِتَنْفُضَ عَنْهُ الْأَحْزَانْ

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ٢٧٩

وَتُسَافِرُ فَوْقَ خُيُوطِ النَّشْوَةِ كُلُّ الزَّفَرَاتْ

وطبيعي والأمر هكذا أن يستوقف صوت فيروز شاعرنا، فهي صوت السماء على الأرض نسمعها، فكأن صوتها يأتي من الغيب، من عالم لا يعرف غير الملائكة وقد حملت عتبات العناوين قصيدة باسمها في تمجيد من شاعرنا لهذا الصوت العبقري "قيثارة الشرق" يقول باشراحيل في قصيدة "فيروز قيثارة الشرق": (١)

فَيْرُوزُ جَاءَتْ مِنْ شِتَاءِ النَّجْمِ
مِنْ صَوْتِ الطُّفُولَةِ،
مِنْ أَنَاشِيدِ الرَّبيعِ
كَزَهْرَةٍ فِي رَوْضَةِ الْإِحْسَاسِ،
كَالْأَمَلِ الْمُدَاعِبِ لِلنَّسَائِمِ فِي الْبُكُورِ
وَإِنْ تَغَنَّتْ
تَرْقُصُ الْأَطْيَارُ وَالْأَنْهَارُ وَالزَّهْرُ الْمُضَمَّخُ بالْعُطُورِ
وَكُلُّ أَطْيَافِ الشَّفَقْ
تُذْكِي النَّظَرْ
قِيثَارَةٌ غَيْمٌ مَطَرْ
فِي صَوْتِهَا صَوْتُ الْأُمَمْ
تُشْجِي الْبَلَابِلَ فِي الشَّجَرْ
كَالسِّحْرِ يَسْتَحْيِي الْعُمُرْ
هِيَ رَجْعُ نَايَاتِ السَّنَابِلِ فِي حُقُولِ الشَّمْسِ
بلْ صَوْتُ الْحَيَاةِ،
هِيَ النَّغَمْ

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ١١٢

فَيْرُوزُ عَلَّمَتِ الْبَلَابِلَ كَيْفَ تَشْدُو لِلزُّهُورِ
وَكَيْفَ تَأْتَلِقُ الْبُدُورُ
غِنَاؤُهَا شَلَّالُ نُورْ
وَلأَنَّهَا أَصْدَاءُ آثَارِ الْعَرَبْ

وانظر عزيزي القارئ إلى إصرار باشراحيل على الربط بين صوت فيروز وبين كونه صوتًا عربيًا، ومنبرًا لقضايا العرب في قوله: "في صوتها صوت الأمم" وقوله: "ولأنها أصداء آثار العرب".

ويؤثر د/ عبد الله آلة موسيقية ذكرت كثيرًا في أشعار العرب؛ لما تثيره من الشجون، وهي آلة الناي؛ فالناي تلك الآلة الشرقية العريقة، ليست مجرد أداة موسيقية، بل هو جسرٌ يربط الإنسان بروحه، ويُعبر عن مشاعره بصدق لا مثيل له، إذ يتميز الناي بصوته العذب العميق الذي يأخذنا في رحلة تأملية وسماوية إلى عوالم من الصفاء والهدوء والسكينة فهو صدى الأنفاس التي تحترق بها النفس من الشوق والولع يقول: (١)

صدى الأنفاس في القصب لحــون النــاي والطــرب

لذا فمن اللافت للنظر عنوان قصيدة "أنفاس الناي" التي تتحدث عن تفرق العرب وصمتهم حتى غضب الزمان، وعتب الأسى فكل شعور يموج بالشجون يرتبط بصوت هذه الأداة يقول: (٢)

يا صاحبي كذبوا وتفرق العرب
رهنوا مصائرنا بمصيرهم وصبوا
حتى إذا وهنوا وتمزقوا هربوا
والوقت ينظرهم ليحوز ما نهبوا

---

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ٣٤٤
(٢) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الثاني ص ٤٧٣

رسموا الردى وجهًا وعيونه حرب
وتحلقوا شيعًا يومًا وقد ذهبوا

ويستعير باشراحيل رموز الموسيقى وآلاتها؛ ليصف بها تغنيه بالأشعار إذ يعزف بكلماته على أوتار قلوب محبي الكلمة وعشاقها في كل مكان، لكن هذه الروح التي طالما منحت بلا تردد وأعطت بغير حد، يصل بها اليأس أحيانًا إلى الدرجة التي تعاف بها الكتابة وهي بالنسبة لشاعرنا حياة، يقول في قصيدة حطمت قيثارتي: (١)

أَسْقِي الظِّمَاءَ وَقَلْبِي مُوجَعٌ ظَامِي لَا الْعُمْرُ طَابَ وَلَا الْأَيَّامُ أَيَّامِي
قَدْ أَنْكَرَتْنِي عُيُونٌ كُنْتُ أَعْشَقُهَا وَأَشْبَعَتْنِي جِرَاحًا نَزْفُهَا دَامِ
آهٍ وَآهٍ عَلَى دُنْيَا تُخَادِعُنِي وَأَلْفُ آهٍ تَحُطُّ الْقَدْرَ بِالسَّامِي
كَمْ لَامَنِي الطِّيبُ وَالْآمَالُ تَعْذِلُنِي وَجَرَّعَتْنِي كُؤُوسَ الْهَمِّ أَعْوَامِي
وَكَمْ كَلِفْتُ بِحُبِّ النَّاسِ مِنْ قِدَمٍ وَكَمْ فَدَيْتُ وَكَمْ أَجْزَلْتُ إِكْرَامِي
وَقَدْ جُزِيتُ جَزَاءً لَا وَفَاءَ بِهِ مِمَّنْ ظَنَنْتُ بِهِمْ بُرْءًا لِأَسْقَامِي
حَمَلْتُ حِمْلَ أَحِبَّائِي فَمَا وَهَنَتْ نَفْسِي بِرَغْمِ سِهَامِ الرَّمْيِ وَالرَّامِي
لَوْلَا الشُّمُوسُ الَّتِي كَانَتْ تُنَوِّرُنِي لَمِتُّ قَبْلَ زَمَانِي رَغْمَ إِقْدَامِي
بَعْضُ النُّفُوسِ عَلَى أَحْقَادِهَا فُطِرَتْ تَسْتَكْثِرُ الْحُبَّ فِي كِبْرٍ وَآثَامِ
وَإِذْ كَرِهْتُ حَيَاةً أَنْكَرَتْ شِيَمِي حَطَّمْتُ قِيثَارَتِي حُزْنًا وَأَقْلَامِي

(١) الأعمال الكاملة – عبد الله باشراحيل – المجلد الرابع ص ٥٩

إسلاميات
حضور المناسبات والأعياد الإسلامية
في العتبات النصية للعنوان
في
منجز دكتور/ عبد الله باشراحيل الشعري

ربما كانت الدولة الفاطمية من أكثر الدول الإسلامية احتفالًا بالمناسبات الإسلامية، أو بمعنى أدق فإن مظاهر الاحتفال بالمناسبات الإسلامية قد زاد الاهتمام بها وأولاها الناس عناية خاصة منذ الدولة الفاطمية، فكان المسلمون يحتفلون بيوم عاشوراء، والمولد النبوي، واستطلاع هلال رمضان.... إلخ. وكتبت العديد من قصائد الشعر في مناسبات إسلامية، بل وتم دراسة هذه الظاهرة في رسائل دكتوراه منها رسالة باسم: "شعر المناسبات الإسلامية في مصر الفاطمية.. دراسة موضوعية" – للباحثة/ آلاء سعيد عبد الله علي، و"شعر المناسبات الدينية عند شعراء الأزهر في العصر الحديث" للدكتور/ القطب يوسف زيد وآخرين.

وبتتبع أشعار د/ عبد الله باشراحيل وجدت اهتمامًا واضحًا بشعر المناسبات الدينية وظهر هذا بوضوح في عتبات العناوين، حيث نجد قصائد: "هلال العيد"، "رمضان"، "الحج"، "العيد".

في إلحاح واضح من الشاعر للتمسك بكافة مفردات الهوية العربية والإسلامية. ويصف باشراحيل لحظات انتظار المسلمين لظهور "هلال العيد" ووقت استطلاعه متلهفين لبهجة وسناء طلعته، وتطلع النفوس إلى بهائه ويُكثر في نهاية المقطوعة من الدعاء فهذه اللحظات، لحظات جبر واستجابة من الله الواحد القهار يقول: (١)

اكْشِفْ لِثَامَكَ يَا هِلَالَ الْعِيدِ وَاصْدَحْ لَنَا بالْحُبِّ وَالتَّمْجِيدِ

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل المجلد الرابع – ص ٤٢

وَانْشُرْ سَنَاكَ مَهَابَةً وَجَلَالَةً وَسَمَاحَةً تَزْهُو بكُلِّ جَدِيدِ
تَرْنُو النُّفُوسُ إِلَى بَهَاكَ وَتَرْتَجِي وَقُلُوبُهَا لِلْخَالِقِ الْمَحْمُودِ
انْصُرْ شُعُوبًا ضَامَهَا حُكَّامُهَا عَجِّلْ عَلَى الظُّلَّامِ بالتَّنْكِيدِ
يَا رَبِّ فَلْتَجْبُرْ بِفَضْلِكَ كَسْرَنَا وَارْحَمْ بِفَضْلِكَ ضَعْفَ كُلِّ فَقِيدِ
وَاغْفِرْ ذُنُوبَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ إِنَّ الْعَبِيدَ تَلُوذُ بِالْمَعْبُودِ
فَامْنُنْ بجُودِكَ مِثْلَمَا عَوَّدْتَنَا لا لن نخيب وأنت رب الجود

وفي قصيدة الحج، يصف باشراحيل هذا المشهد المهيب لجموع المسلمين حول الكعبة المشرفة في موسم الحج، وهذا النداء الذي تهتز له الأرض ومن عليها "لبيك اللّٰهُمَّ لبيك"، وهذه النفوس التي حجت إلى بارئها مثقلة بالذنوب تتطلع لمغفرة عرضها السموات والأرض؛ لتعود بريئة خالية من الخطايا، وقد غسلت همومها وتبرأت من ثقلها يقول:

لبيك لبت قلوب شاقها الحج ترجوك رب الهدى الغفران كي تنجو
حجت إليك نفوس أنت خالقها قد أثقلتها ذنوب ما لها خرج
كل يناجيك يا مولاي في أمل أن تستجيب طغى من حولنا الموج
لجت وهامت شعوب في مثالبها وفي الخلائق من هادوا ومن لجوا
جاؤوك يا رب والآثام تسبقهم وكلهم يحتبي فضلا به ينجو
أنت الكريم وقد أوسعتنا كرمًا أنت الرحيم وأنت الحق والنهج
يا خالق الخلق إن الأرض شاخصة إلي ضيائك إما خانها الوهج

وفي قصيدة "العيد" معايدة رقيقة من الشاعر لكل أمة الإسلام، ودعاء خالص من القلب بأن يختم الله بالصالحات أعمالنا، وأن يشمل والدينا بالرضا وأن يهبنا في الختم جنات عدن يقول:

عيد لكل المسلمين سعيد فيه المنى يحظى بها الموعود

يا رب بلغنا رضاك وكن لنا عونا فإنك وحدك المعبود

واعد لنا رمضان أعواما وجد بالعفو والآلاء يا محمود

واختم لنا بالصالحات حياتنا يا رب وارحمنا فأنت ودود

يا رب واشمل والدينا بالرضا يا واسع الرحمات منك الجود

وارحم جميع المسلمين وهب لنا جنات عدن، والنعيم خلود

أنت الكريم وكم تمن على الورى بالخير والإحسان وهو مديد

باشراحيل الشاعر الفارس

أو

الفارس الشاعر

حديث الشاعر عن الشعر، حديث قديم فقد وصف الشعراء القدماء أشعارهم، فخرًا، وتيهًا وسعوا إلى تعريف الشعر بالشعر، لإبانة ما للشعر في نفوسهم من مكانة أو لإيضاح حد الشعر في تصورهم الفردي أو لإجلاء معناه في المدرسة التي ينتمون إليها. وفي قصيدة "لسيد الكلام أقول" يتحدث باشراحيل عن الشعر و للشعر يقول:

كم عاش الشعر رفيقي
في الأزمات
شكرًا يا شعر
قضيت العمر شتات
شكرًا كم تحزن في حزني
كل الأوقات
كم تفرح في سعدي
وحملت سهام الذات
يا أعذب صوت في الدنيا
صوت النايات
الشعر المجد
إذا بلغ الشعر الغايات

وشاعرنا وإن كان ينتمي للواقعية الشعرية، ويكتب شعر الحداثة وما بعد الحداثة، فإنه -أيضًا- ينتمي بلا شك إلى المدرسة الكلاسيكية، كما ينتمي إلى المدرسة الرومانسية التي تحول

الشعر فيها إلى وحي وإلهام ووجدان، فأصبح الشاعر أقرب إلى النبي المجهول ولن ننسى تصور "علي محمود طه" "الملاح التائه" للشاعر الذي جعله أقرب لميلاد الأنبياء حين قال:

هبط الأرض كالشعاع السني بعصـــا ساحـر وقلـب نبي

هذا المعنى الفريد الذي تمثل بعضه باشراحيل في قصيدته التي رد فيها على ثناء الشاعر "باب الفأل" حين قال باشراحيل:

قلائـد من نجومي وهي لامعة ومن سناها أضأت الحلك والظلمة

فكلماته تستمد سناها من سنا نفسه، هذه النفس التي تنضوي على خصائص مائزة تغاير البشر العاديين، وترتبط أكثر ما ترتبط بأخلاق الفروسية فالشعر والفروسية وجهان لعملة واحدة، كما هما عند العرب منذ القدم فقد كانت الفروسية عاملًا وغرضًا رئيسًا في الشعر، منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر، "فالفروسية فروسيتان: فروسية العلم والبيان وفروسية الرمي والطعان".

ومن لوازم الفارس وجود الخيل وللخيل في حياة "عبد الله باشراحيل" مكانة خاصة جدًا، وقد جاءت كلمة "فارس" من الفَرس التي يمتطيها لذا نجد عبر منجز باشراحيل العديد من القصائد التي حملت عناوين ترتبط بالفروسية والخيل منها: "فارس الأمجاد"، "الفارس"، :الشاعر الفارس"، "غمد وسيف"، "القلم والسيف"، "فارس العلم"، "فارس الشعر"، "مهندي"، "الفارس المرتجل"

ولن يكون من الصعب أن يرى القارئ ما عناه باشراحيل من ربط الفارس بكل معاني المجد، والنبل والعلو التي غالبًا ما تقابل بالنكران والجحود، فزامر الحي لا يطرب(١) وفي

(١) كان هناك في إحدى القرى شاب يرعى غنمه، وعند غروب الشمس يأخذ نايه ويعزف به بعض الألحان الجميلة، ولقرب القرية ومع الرياح التي تأخذ أنغامه إلى مسامع أهلها، كانوا يستمعون لها، ولكن ما أسرع ما ينصرفون إلى أشغالهم، فلا يسمع من أي منهم كلمة استحسان، وكأنه يعزف في واد لا صدى يسمع ولا باقي

قصيدة الفارس الشاعر يحاكي باشراحيل جده المتنبي في فخره بنفسه واعتداده بها، ويعدد أخلاق الفارس الشاعر التي يلتزم بها تجاه نفسه وتجاه الآخرين، حتى إن لاقى منهم النكران والجحود.

يقول في قصيدة الفارس الشاعر:

وَمَا الْعَقْلُ إِنْ لَمْ أَكُنْ بَاذِلًا ... وَمَا الْجُودُ إِنْ لَمْ أَكُنْ مُحْسِنَا

فُطِرْتُ عَلَى الْجُودِ أَسْقِي النَّدَى ... وَكَانَ أَبِي لِلنَّدَى مَوْطِنَا

وَإِنِّي وَإِنْ عِفْتُ أَنْ أَحْمَدَا ... حَمِدْتُ الَّذِي يَرْزُقُ الْمُؤْمِنَا

وَأَبْخَلُ بالضُّرِّ عَمَّنْ رَمَى ... وَأُعْرِضُ بالْحِلْمِ عَمَّنْ جَنَى

وَمَا كُنْتُ أَجْبُنُ فِي النَّائِبَاتِ ... وَأَضْرِبُ بالسَّيْفِ بَعْدَ الْقَنَا

وَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ أَدْرَى بِمَا ... يَسُوءُ الْكَرِيمَ وَقَدْ أَحْسَنَا

حنين، على قول الشاعر المبدع بدر بن عبدالمحسن في إحدى جمالياته.

وفي ذات يوم جاء رحالة إلى القرية، وسمع عزف الفتى وأعجب بعزفه أيما إعجاب، فاتفق معه أن يذهب وإياه إلى قرية الرحالة، على أن يعطيه ألف درهم في الْيَوْمَ، فوافق الفتى على العرض، وانتقل إلى هناك وأصبح يعزف ويجتمع من حوله جمع من السميعة ويطربون ويدفعون، وهكذا أغتنى الشاب وارتاح ماليًا ونفسيًا، ولكن تذكر قريته وأهله، فاشتاق لهم وكذا أحب أن يعرف جماعته بنجاحه، ويثبت لهم ذلك عملياً بعد أن ذاع صيته في هذا المجال، وأيضًا يتمتع بتكريمهم له معنويًا بسماعه وطربهم لعزفه، وأصر على من رعاه وتبناه فنيًا على العودة فوافق الرحالة مكرهًا.

رجع إلى قريته، وقام بالعزف فتجمع أهل القرية لرؤية هذا العازف الجديد، فقد اختلف شكله نظير تغير ملامحه إثر النعمة، وكذا لبسه وعندما بدأ بالعزف عرفوا أنه نفس الشخص الذي كان عندهم فبدأوا بالتململ والانسحاب واحدًا إثر الآخر حتى ما بقي إلا الرحالة ورجل مسن حكيم، فقال له الرحالة يا ابني لا تحزن فمع الأسف إن زامر الحي لا يطرب، أما الشخص المسن الحكيم فقد قال له أخطأت إذ أتيت وأخطأت إذ تدنيت وأخطأت إذ تمنيت.

فسأله الشاب اشرح يا شيخ فقال إذ أتيت يعني إذ رجعت لقريتك، وقد نلت النجاح بعيدًا عنها، وإذ تدنيت أي أنك رضيت بألف درهم، وصاحبك يكسب ألف دينار، وإذ تمنيت فقد أملت أن يحتفل بك أهل قريتك، وتركت من احتفل بك في القرية الثانية.

وَمَنْ يَفْتَدِي النَّاسَ لَا كَالَّذِي يُرِيدُ الْحَيَاةَ لَهُ وَالْمُنَى
أَنَا الْفَارِسُ الشَّاعِرُ الْمُجْتَبَى وَكَمْ شَهِدَ الْمَجْدُ أَنِّي أَنَا
وَمَا غَيَّرَتْنِي أَعَالِي الذُّرَى وَمَا زِلْتُ فِي النَّاسِ قَلْبًا حَنَا
وَلَكِنَّ حَظِّي مِنَ الْحَاقِدِينَ كَحَظِّ الَّذِي فِي الْجَدِيبِ ابْتَنَى
مِنَ الْجَهْلِ عَيْنٌ تَرَى مُوسِرًا وَلَيْسَتْ تَرَى شَامِخَاتِ الْبُنَا
عَلَوْتُ فَلَا خُلَّةٌ تُزْدَرَى وَيَكْفِي بِأَنِّي أَحُوزُ السَّنَا

ويقول في قصيدة الفارس:

خِصَالِيَ فَوْقَ الظَّنِّ فَوْقَ التَّأَثُّمِ أَنَا الْفَارِسُ الْمَنْشُودُ يَا لَيْلُ فَاعْلَمِي
كَرِيمٌ إِذَا عُدَّ الْكِرَامُ فَأَوَّلٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا حَاتِمٌ قَالَ :مُكْرِمِي
وَأَشْجَعُ مَا فِي الْقَوْمِ يُغْضِي مَهَابَةً إِذَا قِيلَ عَبْدُ اللهِ قِيلَ هُوَ الْكَمِي
رِقَابًا أنا أعْتَقْتُ حَانَ قَطْفُهَا وَأَظْمَأْتُ مَالِي ثُمَّ أَتْرَعْتُ مِنْ دَمِي
وَمَا زَادَنِي الْحُسَّادُ إِلَّا نَبَالَةً لِأَنِّي بِهِمْ أَرْقَى عَلَى كُلِّ مَعْلَمِ
أَجُودُ لِقُصَّادِي بِخَيْرِي وَحُسَّدِي كَمَا الْغَيْثِ لَا مُسْتَثْنِيًا قَطْرُهُ الْهَمِي

وإذا كان الإنسان مفطور على حب نفسه، والإدلال بها وبمآثرها، فالشاعر المتميز برهافة الحس، وفصاحة اللسان وجمال التعبير والتصوير، أجدر من سواه على التفاخر وأولى به، وأكثر صور الذات في "جمهرة أشعار العرب" هي الذات المتفاخرة التي تعتز بالأنا وتعدد صفاتها وأخلاقها، فالفخر بالنفس ليس مجرد شعور يترافق مع إنجازات الفرد، بل هو رؤية شاملة لقيمة الفرد وكرامته كإنسان.

لكننا سنقف على معنى الفروسية في فكر باشراحيل ومخيلته من كلامه عنها في المجلد السادس من مجموعته الكاملة إذ يقول في مقال بعنوان "الفروسية والموعد الحضاري المرتقب":

"الفروسية هي كلمة جامعة لصفات وخلائق رفيعة يفترض أن تكون في الفارس، فهو يتسامى بالشهامة والنبل والشجاعة، ويمتاز الفارس بالمهارة والقدرة على ركوب الخيل وتطويعه وترويضه في الحرب والسلم".

فهي كما يقول:

الفروسية أخلاق وحكمة رسم الفارس في الأيام اسمه

وترتبط صورة الفارس في الأذهان بحضور الخيل والسيف وقد كتب "باشراحيل" قصيدة في فرسه "عناق" بعنوان "الخيل عناق"

وعنوان القصيدة يترك للمتلقي مجالًا لتأويل العلاقة الوطيدة والقوية بين باشراحيل الفارس وحصانه، الذي خصه بهذا الاسم لقربه الشديد منه وشدة تعلقه به، وقد رويت العديد من القصص عن الخيول العربية الأصيلة وتعلقها بصحابها والعلاقة القوية بينهما ، التي قد تصل إلى مرض الفرس أو وفاتها إن ألم بصاحبها مكروه، وللتسمية مغزاها الواضح "عناق" فالعناق في اللغة هو الأمر الشديد، وعانقه وضع يده حول عنقه وضمه إلى صدره، أعنقت الفرس: أسرعت وسارت سيرًا واسعًا. فقد تخير باشراحيل هذا الاسم لحصانه ليجمع هذه المعاني، أي للدلالة على حبه الشديد له وقربه من قلبه، وكذا لسرعته والدلالة على كونه حصانًا عربيًا أصيلًا.

يقول:

أقدم عناق تحفك الخيل العتاق يا أيها البرق المجلي في السباق

اسبح كأن النجم حتفك والتحق بالوهم حيث الريح يعجزها السباق

وقد تحدثت في موضع من هذه الدراسة عن مكانة السيف في نفس باشراحيل ودلالة حضورها لكنني سأورد هنا "قصيدة مهندي" لتكتمل مع القلم الذي لا يقل في الأهمية لدي شاعرنا من السيف والفرس وبه تكتمل أدوات الفارس الشاعر أو الشاعر الفارس/ عبد الله

باشراحيل:

قصيدة "مهندي" (١)

حَدِّقْ إِلَى السَّعْدِ يَهْمِي وَهْوَ أَضْوَاءُ ... وَارْشُفْ سَنَا النُّورِ لَا تُعْيِيكَ أَرْزَاءُ

مُهَنَّدِي وَسُيُوفُ الْعَدْلِ مُشْرَعَةٌ ... وَأَنْتَ سَيْفٌ عَلَى الْأَرْزَاءِ مَضَّاءُ

أَعْدَدْتُ فِيكَ النَّدَى وَالْخَيْرَ مِنْ زَمَنٍ ... وَقَدْ وَجَدْتُكَ تَعْلُو مِنْكَ أَضْوَاءُ

رَسَمْتُكَ الْيَوْمَ آمَالًا مُؤَثَّلَةً ... تُغْرِي اللَّيَالِيْ وَكُلُّ الدَّهْرِ إِغْرَاءُ

أَرَاكَ تَبْعَثُ أَيَّامِي الَّتِي سَلَفَتْ ... كَدِيمَةِ الصَّيْفِ تُغْرِي وَهْيَ أَنْدَاءُ

مُهَنَّدِي وَرَبِيعُ الْعُمْرِ مُؤْتَلِقٌ ... قَدْ أَشْرَقَ الزَّهْرُ وَالرَّيْحَانُ وَالْمَاءُ

انْهَجْ إِلَى الرُّشْدِ وَاسْتَهْمِي مَوَاطِرَهُ ... وَعِشْ كَرِيمًا وَإِنْ عَادَاكَ مَشَّاءُ

هَذَا هُوَ الدَّهْرُ أَيَّامٌ مُقَلَّبَةٌ ... وَالدَّهْرُ يَسْكُنُهُ حِقْدٌ وَأَعْدَاءُ

وَانْهَلْ مِنَ الْخَيْرِ أَكْوَابًا مُطَهَّرَةً ... شَرَابُهَا كَبَيَاضِ الْحَقِّ وَضَّاءُ

وَافْزَعْ إِلَى الصِّدْقِ وَانْزِعْ نَحْوَهُ أَبَدًا ... وَالصِّدْقُ فِي الْحَقِّ تَعْلُو فِيهِ أَسْمَاءُ

فَانْعَمْ بِدُنْيَاكَ قَدْ تُغْرِي مَبَاهِجُهَا ... وَنِعْمَةُ اللهِ بِالرِّضْوَانِ آلَاءُ

---

(١) الأعمال الكاملة – دكتور عبد الله باشراحيل – المجلد الأول ص ٣٥٠

خاتمة

كانت هذه إطلالة على ما يمكن أن تدلنا عليه العتبات النصية في شعر باشراحيل، وما زالت هناك نواح عدة وموضوعات شائقة، في مجمل منجز شاعرنا الذي أمتعنا بمؤلفاته العديدة، فهناك مثلًا

"الذات المفتخرة" بين أبي الطيب المتنبي وعبد الله باشراحيل "دراسة سيكولوجية لمنطلقات المدح وخصائصه" – أو "الفكر النقدي في المنجز النثري لعبد الله باشراحيل" –، أو "خصائص قصائد الرثاء وارتباطها بالجانب العقائدي"..... إلخ.

إن المنجز الشعري لدكتور عبد الله باشراحيل من الثراء بحيث يفتح مئات الزوايا للتلقي واختلاف الرؤى وختامًا فإنني أقتبس قول شاعرنا في خاتمة مقدمة ديوان قرابين الوداع التي قال فيها:

"السلام على فرسان الحق في الأولين والآخرين"

السيرة الذاتية للدكتور
عبد الله محمد باشراحيل

الجنسية سعودي
مكان الميلاد: مكة المكرمة
تاريخ الميلاد: ١ / ٧ / ١٣٧٠ هـ الموافق ٨ / ٤ / ١٩٥١ م
المهنة: رجل أعمال، ومستشار قانوني

المنصب الحالي:

- رئيس مجلس إدارة مجموعة الباشراحيل الإنمائية.
- رئيس مجلس إدارة مستشفى الشيخ "محمد صالح باشراحيل".
- المشرف العام على فروسية مكة المكرمة.
- عضو مجلس إدارة مشروع الزواج الخيري بمكة المكرمة.
- عضو مجلس إدارة نادي مكة الثقافي الأدبي.
- عضو اتحاد الأدباء المصريين اليونانيين.
- عضو رابطة الأدب الحديث بالقاهرة.
- عضو بالجمعية السعودية للأطفال المعاقين.
- عضو جمعية رعاية الأيتام بمكة المكرمة.
- عضو مؤسسة الملك "عبد العزيز" ورجاله لرعاية الموهوبين.
- عضو المجلس التأسيسي بشركة جدة القابضة.
- عضو جمعية البر بمكة.
- عضو شرف الهيئة العليا للحياة الفطرية.
- عضو مؤسس بالجمعية العمومية للتعلم الإسلامي برابطة العالم الإسلامي.
- عضو شرف نادي الوحدة الرياضي بمكة المكرمة.
- صاحب جائزة الشيخ "محمد صالح باشراحيل" (يرحمه الله) للثقافة والإبداع.
- وجائزة الشاعر "عبد الله محمد صالح باشراحيل" للثقافة والإبداع للشباب بجامعة "المنيا".
- وجائزة مركز الإسكندرية للإبداع باسم (الشاعر الدكتور عبد الله باشراحيل للأدباء الشبان).
- العضوية الشرفية للجمعية العلمية السعودية للأدب العربي.

المؤهل العلمي:

- درس الحقوق بجامعة القاهرة، ومنح شهادة الدكتوراة الفخرية من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بجمهورية السودان.

التخصص:

- رجل أعمال ساهم في تقديم بعض المشاريع الوطنية والتجارية مع والده وأخواته.
- شاعر وأديب.
- الإنتاج الأدبي: صدر له ستة وعشرون ديوانًا شعريًا، وستة كتب نثرية هي:
- الأول: ديوان (معذبتي) سنة ١٩٧٨ م – ١٣٩٨ هـ في القاهرة.
- الثاني: ديوان (الهوى قدري) سنة ١٩٨٠ م – ١٤٠٠ هـ في تونس.
- الثالث: ديوان (النبع الظامئ) سنة ١٩٨٦ م – ١٤٠٦ هـ في جدة.
- الرابع: ديوان (الخوف) سنة ١٩٨٨ م – ١٤٠٨ هـ في جدة.
- الخامس: ديوان (قناديل الريح) سنة ٢٠٠٢ م – ١٤٢٣ هـ في بيروت.
- السادس: ديوان (قلائد الشمس) قصيدة مترجمة إلى الإنجليزية والفرنسية موجهة إلى مثقفي أمريكا ردًا على بياناتهم إلى المثقفين العرب سنة ٢٠٠٢ م في بيروت.
- السابع: ديوان (أقمار مكة) سنة ٢٠٠٢ م – ١٤٢٣ هـ في بيروت.
- الثامن: ديوان (سيوف الصحراء) سنة ٢٠٠٢ م – ١٤٢٣ هـ في بيروت.
- التاسع: ديوان (بوح النسايم) سنة ٢٠٠٢ م – ١٤٢٣ هـ في بيروت.
- العاشر: ديوان (كهوف الوهم) سنة ٢٠٠٣ م – ١٤٢٣ هـ في بيروت.
- الحادي عشر : ديوان (وحشة الروح) سنة ٢٠٠٣ م – ١٤٢٤ هـ في بيروت.
- الثاني عشر: ديوان (أبجدية قلب) سنة ٢٠٠٣ م – ١٤٢٤ هـ في بيروت.
- الثالث عشر: ديوان (مدن الغفلة) سنة ٢٠٠٣ م – ١٤٢٤ هـ في بيروت.
- الرابع عشر: ديوان (المصابيح) سنة ٢٠٠٤ م – ١٤٢٤ هـ في بيروت.
- الخامس عشر: ديوان (بماذا تتنبأ يا صديقي) سنة ٢٠٠٤ م في بيروت.
- السادس عشر: ديوان (بيت القصيد) سنة ٢٠٠٤ م – ١٤٢٥ هـ في بيروت.
- السابع عشر: ديوان (الجراح تتجه شرقًا) سنة ٢٠٠٥ م – ١٤٢٥ هـ في بيروت.
- الثامن عشر: ديوان (المرايا) سنة ٢٠٠٥ م – ١٤٢٥ هـ في بيروت.
- التاسع عشر: ديوان (أنفاس الورق) سنة ٢٠٠٥ م – ١٤٢٦ هـ في بيروت.
- العشرون: ديوان (البرق الحجازي) سنة ٢٠٠٨ م – ١٤٢٩ هـ في بيروت.
- الحادي والعشرون: ديوان (عمر بلا زمن) سنة ٢٠٠٩ م – ١٤٣٠ هـ في بيروت.

- الثاني والعشرون: ديوان (صباح) سنة ٢٠١٠ م – ١٤٣١ هـ في بيروت.
- الثالث والعشرون: ديوان (عصر الشعوب) سنة ٢٠١٣ م – ١٤٣٤ هـ في بيروت.
- الرابع والعشرون: ديوان (لمع وومض) خواطر فلسفية سنة ٢٠١٣ م – ١٤٣٤هـ في بيروت.
- الخامس والعشرون: ديوان (شموس مظلمة) سنة ٢٠١٥ م – ١٤٣٦ هـ في بيروت.
- السادس والعشرون: ديوان شعر ونثر (اللآلئ) سنة ٢٠١٧ م – ١٤٣٨ هـ في بيروت.
- السابع والعشرون: ديوان (قرابين الوداع) سنة ٢٠٢٤ م – ١٤٤٥ هـ في القاهرة.
- الثامن والعشرون: ديوان (الغوادي) سنة ٢٠٢٤ م – ١٤٤٥ هـ في القاهرة.

كما صدر له مجموعة كتب نثرية هي:

- كتاب (أصداء الصمت)، مقالات نقدية ٢٠٠٠ – ١٤٢١ هـ، بيروت.
- مؤلف (توقيعات)، مجموعة حكم فلسفية، ٢٠٠٢ م بيروت.
- كتاب (صدى الصمت الصدى الثاني)، ٢٠٠٥ م – ١٤٢٦ هـ، بيروت.
- كتاب (أحاديث الأحداث)، مقالات نقدية وفلسفية، ٢٠١٣ م – ١٤٣٤ هـبيروت.
- كتاب (خريف الفكر)، مقالات نقدية وفلسفية، ٢٠١٣ م – ١٤٣٤ هـبيروت.
- كتاب (شذرات) نصوص في الفكر والثقافة والاجتماع ٢٠١٧ م – ١٤٣٨ هـبيروت.
- كتاب (صدى العصر) سياحة فكرية ٢٠٢٤ م – ١٤٤٥ هـ- القاهرة.

المترجم:
- وكذلك ترجم وطبع باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية ٢٠٠٥ بيروت.
- وكذلك صدر ديوان (قناديل الريح) باللغة الإنكليزية في بيروت.
- أيضا ديوان (قناديل الريح) باللغة الفرنسية في بيروت.
- وترجم ديوان (المصابيح) إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية عام ٢٠٠٧ م – ١٤٢٨ هـ بالمغرب.
- وطبع له مختارات من قصائده باللغة الفرنسية.
- وله مخطوطان من الشعر ومقالات أدبية.

صدرت بعض الدراسات في شعره منها ما يلي:
- (الجملة المثبتة في وطنيات الشاعر عبد الله محمد باشراحيل) للدكتور زين الخويسكي.
- (دراسات في الأدب السعودي)، للباحثين الدكتور عباس عجلان، والدكتور عبد الله

سرور.

- (شعراء من مكة المكرمة دراسات في الأدب)، د. محمد مصطفى هدارة.
- (دراسات وآراء في ديوان النبع الظامئ) تقديم الدكتور محمد مصطفى هدارة، صدر عن الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية.
- تُرجم بعض من شعره إلى اليونانية.
- (جدلية الواقع والمتخيل) قراءة في ديوان قناديل الريح للدكتور محمد بن مريسي الحارثي.
- (شعر عبد الله باشراحيل الدلالات الفنية والإنسانية) للدكتورة غريد الشيخ.
- (الذات الإبداعية المنكسرة والانبعاث) دراسة في شعر عبد الله باشراحيل للدكتور إدريس بلمليح.
- (الفروسية الشعرية عند عبد الله باشراحيل) للدكتور عبد الله بنصر العلوي.
- (في مغاصات لآلئ باشراحيل) عبد الرحمن طيب بعكر الحضرمي.
- (الالتزام الإنساني في شعر عبد الله باشراحيل) الدكتورة إيمان بقاعي.
- (مختارات من شعر عبد الله باشراحيل) – اختارها الأستاذ عبد الله جبر.
- (المعنى والمضمون في شعر عبد الله باشراحيل) للأستاذ الناقد/ عهد فاضل.
- (من الخيال إلى ما بعد الخيال عند عبد الله باشراحيل) للدكتور إدريس بلمليح.
- (زمن النقد الأدبي) آراء نقدية في شعر عبد الله باشراحيل لكبار الأدباء والكتاب.
- (صورة الحبيب بين المقدس والدنيوي في شعر عبد الله باشراحيل) مجموعة دراسات لكل من د/ عبد السلام المسدي – أ / جورج جرداق – أ / عهد فاضل – د/ محمد نجيب التلاوي – ومجموعة كبيرة من دكاترة جامعة المنيا حيث قدمت في ندوة علمية خصصت له.
- (الرثاء في شعر باشراحيل) دراسة أدبية للشاعر / محي الدين صالح.
- دراسة باللغة الانجليزية بعنوان (***Images of Woman in Abdullah's Poetry***) للدكتورة / فاطمة صدقي .
- دراسة باللغة الفرنسية بعنوان (***Sujet et Éveil de l'âme crise du***) للدكتور / خالد حادجي .
- (قصائد مختارة) من دواوين الشاعر عبد الله باشراحيل اختارها وقدم لها - عهد فاضل .
- (الأوزان والقوافي في ديوان عبد الله باشراحيل "المرايا") للأستاذة سهام مزياني تحت إشراف الدكتورة لويزة بولبرس.
- (واحات الضوء مواقع الإنسان في ديوان "قناديل الريح" للشاعر عبد الله باشراحيل)للدكتور إبراهيم المزدلي.

- (الشعر السعودي المعاصر جليات العروبة في شعر عبد الله باشراحيل) للدكتور مصطفى عبد الغني.
- (الرؤية والتشكيل في ديوان قلائد الشمس.. إلى مثقفي أمريكا للشاعر عبد الله باشراحيل) للأستاذ الدكتور/ محمود إسماعيل عمار.
- (عبد الله باشراحيل – صناعة وردة الشعر من عطر مكة) دراسة جمالية للناقد الأستاذ – نعيم مهلهل.
- (قراءة في شعر د/ عبد الله محمد صالح باشراحيل) للأديب الأستاذ / على خضران القرني
- (العروبة والإسلام في شعر عبد الله باشراحيل) رسالة ماجستير للباحث أنس عبدو الحموي وحصل على الماجستير بدرجة الامتياز في كلية الآداب بجامعة طنطا بجمهورية مصر العربية.
- (القيم الأخلاقية في شعر باشراحيل) رسالة دكتوراة للباحث/ أسامة حسن عباس – جامعة الاسكندرية بجمهورية مصر العربية.
- (تجليات الهوية في شعر عبد الله باشراحيل.. دراسة في المضمون الفكري وآليات النص)، دراسة دكتوراة للباحث/ أشرف الشحات السيد الصيري، وحصل بها على درجة الدكتوراة بتقدير مرتبة الشرف الأولى، مع التوصية بنشر الرسالة على نفقة الجامعة، وتبادلها مع الجامعات الأجنبية في جامعة المنصورة بجمهورية مصر العربية.
- (بناء الجملة الخبرية في ديوان شموس مظلمة لعبد الله باشراحيل.. دراسة نحوية دلالية) رسالة ماجستير للباحث العراقي/ غائب حميد عبد العزاوي، بجامعة المنصورة، بجمهورية مصر العربية.
- (التناص في شعر عبد الله باشراحيل) رسالة دكتوراة للباحث/ أنس عبدو الحموي، وحصل بها على درجة الدكتوراة، بتقدير مرتبة الشرف، في كلية الآداب بجامعة طنطا، بجمهورية مصر العربية.
- (الأنا والآخر)، دراسة بحثية للباحثة / أمينة القرشي، بجامعة الطائف، بالمملكة العربية السعودية.
- (المناص التأليفي في شعر عبد الله باشراحيل) رسالة دكتوراة – دكتورة ريهام فتحي عبد البديع عطية، وحصلت بها على درجة الدكتوراة بتقدير مرتبة الشرف الأولى، كلية الآداب بجامعة المنصورة – جمهورية مصر العربية ٢٠٢٣ .
- (البعد الإنساني والحضاري في شعر عبد الله باشراحيل رسالة ماجستير، للباحثة/ هاجر ازويشي – جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – المغرب ٢٠٢٣ م.

- (النزعة الدرامية في شعر عبد الله باشراحيل) رسالة دكتوراة للباحثة/ يسرا إبراهيم إسماعيل بركات، كلية الآداب جامعة الاسكندرية.
- (تحولات الصورة بين القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة في شعر عبد الله باشراحيل) رسالة ماجستير للباحث/ فيصل بن حسين الشريف، كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى.
- (ملامح التجربة الشعرية والإنسانية عند الشاعر عبد الله باشراحيل) مجموعة باحثين وهم
د / أسماء مساعد إبراهيم العمري – د/ سلطان مريع أبو دبل – جمهورية مصر العربية ٢٠٢٤.
- (الدكتور عبد الله باشراحيل في ديوانه قرابين الوداع.. إضاءات جمالية في الشعر السعودي) أ. د نعيم عبد مهلهل. العراق ٢٠٢٤.
- (الكينونة، الحب والجمال رحلة فلسفية في كون الشاعر عبد الله باشراحيل) – فيصل السائحي – منازل للنشر والتوزيع ٢٠٢٤. تونس.

- الأوسمة و التكريمات والشهادات التقديرية:
- حصل على وسام الأرز برتبة فارس من فخامة الرئيس إميل لحود رئيس دولة لبنان ٢٠٠٤م.
- تم تكريمه في حفل كبير باليونان حضره نخبة كبيرة من الدبلوماسيين العرب والمثقفين والأدباء والسفير السعودي عبد الله الملحوق.
- تم تكريمه في جامعة المنيا عام ٢٠٠٣م بحفل حضره رئيس الجامعة الدكتور/ عبد المنعم البسيوني ومعالي محافظ المنيا اللواء حسن حميدة كما أقيمت ندوة علمية في شعره بنفس الجامعة.
- ومنح درع الجامعة لتميزه الإبداعي ودرع محافظة المنيا.
- تم تكريمه في مركز الإسكندرية للإبداع في حفل قيل فيه ما كتبه عنه أهم الكتاب والنقاد العرب.
- حصل على كأس مركز الإسكندرية للإبداع للعام ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ
- شهادة تقدير من مكتبة الإسكندرية لمشاركته ببعض دواوينه الشعرية وكتبه النثرية.
- تم تكريمه بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- حاصل على دروع تكريمية في معظم الأنشطة الإنسانية والوطنية بالمملكة وغيرها.
- تلقى عددًا كبيرًا من الخطابات التقديرية من ملوك ورؤساء بعض الدول العربية بالإشادة بشعره العربي الأصيل.

- كما قدم له الرئيس عبد العزيز بوتفليقة خطابًا بمثابة دراسة عن شعر الشاعر عبد الله باشراحيل لما صدر له من سابق وآخر دواوينه واعتبرها الشاعر مقدمة لديوانه وحشة الروح.
- كما تلقى عددًا كبيرًا من خطابات التقدير من الرؤساء الأوروبيين والأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان وبعض السفراء للدول الأوروبية والأمريكية وعلى سبيل المثال خطاب السفير الأمريكي برده على ديوان (قلائد الشمس) للشاعر عبد الله باشراحيل واعتبره نموذجاً لحوار الحضارات

- أشاد الرئيس جاك شيراك رئيس دولة فرنسا الأسبق بديوان (قلائد الشمس) للشاعر عبد الله باشراحيل، وأثنى عليه.
- كذلك خطاب إشادة بديوانه (قلائد (الشمس) المترجم من الأمير شارلز ولي عهد بريطانيا.
- تم تكريمه بمهرجان المتنبي الشعري العالمي السادس في سويسرا المقام في الفترة من ٢٠١٣ مايو ٢٠٠٦م، تحت رعاية المركز الثقافي العربي السويسري.
- تم تكريمه في مهرجان الشعر العالمي بمديين - بدولة كولومبيا عام ٢٠٠٧م. وهو الوحيد الذي قابله الرئيس الكولمبي "ألفارو أوريبي فاليز" من بين أربعمائة وثمانين شاعرًا عالميًا بعد قراءة قصيدة (قلائد الشمس).
- تم تكريمه بمهرجان الرواد والمبدعين العرب بدمشق دولة سوريا عام ٢٠٠٨م تحت رعاية الرئيس السوري بحضور معالي وزير الثقافة السوري الدكتور رياض نعسان أغا نيابة عن الرئيس وتسلمه الدرع التكريمي وشهادة تقدير.
- حصل على وسام العلم والآداب والفنون الذهبي من فخامة الرئيس عمر حسن أحمد البشير رئيس جمهورية السودان في عام ٢٠١١/٩/٢م.
- منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الأدب العربي من جامعة القرآن الكريم والعلوم الاسلامية بجمهورية السودان في ٢٠١١/١٠/١م.
- قلد وسام التميز للكشافة وربطة العنق الكشفية من جمعية الكشافة السعودية بمكة المكرمة ٢٠١١م.
- حصل على الوسام الذهبي لجامعة سيدي محمد بن عبدالله بفاس بالمغرب العربي ودرع الجامعة التقديري من معالي رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور السرغيني فارس وذلك لعطائه المتميز في شعره العربي الأصيل وأنه أحد الشخصيات العربية الفعالة التي انفتح وعيها على قضايا أمتها وانفتحت شاعريته على مساءلة الواقع الحضاري في تحدياته وتحولاته في ٢٠١١/١٢/٢٠م.

- في حفل تكريمي كبير بقاعة كلية الطب والصيدلة بفاس حضره عدد من الدبلوماسيين العرب وأساتذة وعمداء الكليات بالجامعة وجمع من طلبة وطالبات الجامعة وعدد من النقاد والشعراء والمثقفين المغاربة.

- قلد وسام كلية الآداب بجامعة طنطا بجمهورية مصر العربية بقاعة قسم اللغة العربية من عميد الكلية الأستاذ الدكتور خالد الفخراني تكريمًا له على عطائه المتميز لما قدمه من دواوين شعرية هي من روائع وعيون الشعر العربي الفصيح بما تحمله من معاني ومضامين وصور تعنى وتعبر عن هموم الأمة العربية والإسلامية ومدافعًا عنها بقصائده القوية والقومية في كل المحافل الدولية لما تتعرض له أمته العربية والإسلامية من زرع المشاكل والمكائد لعدم توحيد الصف العربي وهذه الدواوين والنصوص العربية الأصلية كانت بمثابة الأرض الخصبة لينهل منها الدارسون والباحثون في الشعر العربي الأصيل في ٣١/ ١٠ / ٢٠١٦م.
- تم تكريمه تحت رعاية خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز حفظه الله من وزير الثقافة والإعلام الدكتور عادل الطريفي بالرياض خلال حفل افتتاح مؤتمر الأدباء السعوديين الخامس ومنحه درع الشكر والتقدير لعطائه وتميزه في الشعر العربي الأصيل في ٢٧ صفر ١٤٣٨هالموافق ٢٧ نوفمبر ٢٠١٦م.
- كرمه أهالي مكة المكرمة ونادي مكة الثقافي الأدبي في حفل كبير يوم ١٩ جمادى الأولى لعام ١٤٣٨هالموافق ١٦ فبراير ٢٠١٧م بمزرعة الأصدقاء بمكة وذلك بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية لتميزه في الشعر العربي الأصيل، وتم عرض فيلم وثائقي عن الشاعر وأعماله وإنجازاته خلال برنامج حفل التكريم أعده وأخرجه وكالة ماب نيوز» الإعلامية.

مشاركات في مهرجانات الشعر الدولية:

- شارك بمهرجان المتنبي الشعري العالمي السادس وبأمسيات شعرية عديدة في كل من زيورخ وبيرن وبازل وجنيف ولوكانو بسويسرا.
- شارك بعدة أمسيات في مهرجان الشعر العالمي بمديين - بدولة كولومبيا عام ٢٠٠٧م حظي بشرف مقابلة الرئيس الكولومبي - الفارو أوريبي فاليز، عقب انتهاء المشاركة
- بالمهرجان - وتحدث حول أهمية التعاون العربي الكولومبي المشترك في العديد من المجالات، وأثنى الرئيس على ديوان (قلائد الشمس) الموجهة إلى مثقفي أمريكا في ختام المقابلة إهداء باشراحيل ديوانه «المصابيح» المترجم للإنجليزية والفرنسية وقصيدته قلائد الشمس» في ترجمتها للإسبانية والإنجليزية والفرنسية.
- شارك في مهرجان جرش» للشعر بالأردن عام ٢٠٠٧م.

- الاهتمامات الأخرى والأنشطة
- له صالون أدبي بمكة المكرمة سماه باسم منتدى الشيخ محمد صالح باشراحيل (يرحمه الله) الثقافي.
- أنشأ جائزة عربية من أجل الأدباء والمثقفين العرب أطلقها باسم والده.
- أنشأ مسابقة بمركز الإسكندرية للإبداع تحت رعاية وزارة الثقافة باسم (جائزة الشاعر الدكتور عبد الله باشراحيل للأدباء الشبان).
- يقيم الندوات العلمية والأدبية والأمسيات يهتم بإصدار الكتب لأهم الكتاب والنقاد والكتب العلمية والدراسات الإسلامية والثقافية.
- (جائزة الشيخ محمد صالح باشراحيل (يرحمه الله) للإبداع الثقافي.
- أنشأ جائزة بجامعة المنيا باسم الشاعر عبد الله محمد صالح باشراحيل للثقافة والإبداع للشباب).

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
المقدمة	٧
توطئة	٨
جماليات العتبات النصية في ديوان – النبع الظامئ	١١
العتبات النصية للعناوين في ديوان الهوى قدري	١٤
دلالات العناوين في ديوان الخوف	١٧
قناديل الريح- إرادة الحياة الأيدولوجيات الفكرية في شعر د/ عبد الله باشراحيل	٢١
سيوف الصحراء استحضار عظمة الأجداد واستعادة الماضي "المدح" في أشعار باشراحيل	٢٨
ديوان أقمار مكة في حب نبي الإسلام وأهل بيته الكرام حين يكون الشعر "منبرًا للدعوة"	٣٠
وحشة الروح	٤١
أبجدية قلب	٤٤
"مدن الغفلة" منظور باشراحيل للبني التسلطية وموقفه من حاكم العراق السابق صدام حسين	٥٦
أكواخ الطين "ثنائية المدينة القرية" المدينة البادية "بين شاعر الكوخ محمود حسن إسماعيل ودكتور عبد الله باشراحيل	٦٠
المصابيح	٦٢
ديوان "بماذا تتنبأ يا صديقي...؟" اختلاف المنطلق الفكري... وطرق التناول لا يفسد للود قضية	٧٠
عمر بلا زمن	٨٢
ديوان قرابين الوداع محاولة لقراءة عتبة الغلاف وربطها بعناوين القصائد في الديوان	٨٦

بين العشق العذري والغزل الصريح - جولة في قصائد قصة عشق – العاشقتان – ضمة عمر	٩٥
شموس مظلمة - دلالات الشمس وحضورها الطاغي في عتبة العناوين	١٠١
حضور الأنثى وقضايا المرأة في العتبات النصية للعناوين في شعر عبد الله باشراحيل	١١١
التحديق في الموت و سؤال... الصمت تضافر دوال الموت والصمت في شعر باشراحيل	١٢٢
أسماء البلدان في عناوين القصائد عتبة مهمة في منجز باشراحيل	١٢٩
الموسيقى غذاء الروح جولة في قصائد حطمت قيثارتي – فيروز قيثارة الشرق – الموسيقى الناي – أنفاس الناي	١٥١
إسلاميات حضور المناسبات والأعياد الإسلامية في العتبات النصية للعنوان في منجز دكتور/ عبد الله باشراحيل الشعري	١٥٥
باشراحيل الشاعر الفارس أو الفارس الشاعر	١٥٨
خاتمة	١٦٤
السيرة الذاتية للدكتور عبد الله باشراحيل	١٦٥

المفاتيح النصية للعناوين

باب لقراءة جديدة في المنجز الشعري للدكتور عبد الله باشراحيل

إن العتبات النصية ، هي كل ما تحتويه النصوص الأدبية من جوانب متاخمة للنص الأصلي وهي ظاهرة حري بالدرس الأدبي أن يتناولها ، ولقد كانت العناوين أكثر هذه العتبات لفتا لانتباه النقاد لأنها بمثابة المفاتيح التي تفك شفرات النص الأدبي وتفتح الأبواب لتلقيه بزوايا مختلفة ، وعبر مرايا نقدية متقابلة أو متجاورة ولدواوين وقصائد عبد الله باشراحيل عناوين مائزة وضعها شاعرنا عبر استراتيجية محكمة وهذه الدراسة هي دعوة للقارئ العربي لنفتح سويا نوافذ أخرى لقراءة النص من خلال عتبات العناوين وأن ندخل لعالم شاعر عربي آمن بوجوب وجود رسالة للشعر وبضرورة ربطه بالمجتمع رغبة في خلق حيوات أخرى ملؤها العزة والكرامة والحب و الجمال.

طبع على نفقة الشيخ
محمد بن صالح باشراحيل الكندي (رحمه الله)

9 789779 689340

غلاف فهد عبد الله